فنون العمارة
في
المدينة الاسلامية

تأليف

مجموعة كتاب وباحثين

الكتاب: فنون العمارة في المدينة الإسلامية

الكاتب: مجموعة كتاب وباحثين

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

فنون العمارة في المدينة الإسلامية / مجموعة كتاب وباحثين
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٩٣ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ١ – ٩٩٣ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان   رقم الإيداع : ٩٧١٢ / ٢٠١٩

فنون العمارة
في
المدينة الإسلامية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

العمارة الإسلامية هي أحد أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، التي لاتزال شاهدة على عظمة هذه الحضارة وإنسانيتها، إذلم تقتصر على المساجد والمنازل فقط، بل امتدت لتشمل المدارس والأسبلة وحتى القلاع والحصون ما يدل على اهتمام الحضارة الإسلامية بكافة مناحي النشاط الاقتصادي والاجتماعي وأيضا الحربي، وجمعت العمارة الإسلامية بين مختلف أشكال الفنون الأخرى لذلك اعتبرها اليونانيون أما للفنون.

وإذا كان الاسلام هو الدين الصالح لكل زمان ومكان، لذلك تبقى الخصائص الحضارية للمدينة الاسلامية تبقى ثابتة لكل مكان وزمان، ولكن تختلف الخصائص العمرانية باختلاف المكان والزمان، فلكل مكان خصائصه المناخية والطبوغرافية والذاتية التى تؤثر على النسيج العمرانى للمدينة وتبقى الخصائص العقائدية التى ترسم العلاقة بين الانسان والمكان ثابتة لا تتغير فى المدينة الاسلامية.

وهذا هو المحور الذي تدور حوله الأبحاث المختلفة التي يضمها الكتاب، وأولها بعنوان "التحدي المعماري في المدينة الإسلامية" للمعماري السعودي الدكتور محمَّد سعيد فارسي، وهو من مواليد مكة المكرمة عام

١٩٣٦، أنهى تعليمه الأولي في مدارس المملكة العربية السعودية، حيث درس الابتدائية بمدرسة الرحمانية، ثم أكمل تعليمه في مدرسة تحضير البعثات، ثم ارتحل إلى مصر ليدرس بجامعة الإسكندرية، وتخرج في كلية الهندسة في عام ١٩٦٣، في تخصص الهندسة، ثم نال درجة الماجستير في العمارة والتخطيط بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف الأولى من الجامعة ذاتها في ١٩٨٢ وأكمل دراسته بنفس الجامعة حتى حصل على درجة الدكتوراه في الهندسة عام ١٩٨٧.

بعدها عاد إلى المملكة ليعمل مديراً لمكتب تخطيط المدن في الرياض ، لسنوات قبل أن ينتقل ليصبح مسؤولاً عن تخطيط مكة المكرمة والمنطقة الجنوبية ورئيساً لبلدية جدة ثم أمين مدينة جدة ، وفي الفترة من ١٩٧٢ حتى ١٩٨٦ كان رئيسا لبلدية جدة الساحلية. وكجزء من التخطيط الحضري للمدينة، تحولت طبيعة المدينة، إلى معرض فني في الهواء الطلق بتكليف المئات من الأعمال الضخمة الرئيسية فحوّلها إلى متحف مفتوح ومعرض متاح، فقد اقتنى لجدة ما يزيد على الأربعمائة عمل نحتي من أكثر مقتنيات الفن العام في العالم وأكثرها تنوعا، وتستمد من التصميمات العربية التقليدية إلى الفن التجريدي.

وقد توفي الدكتور مُحَّمد سعيد فارسي في مارس من عام ٢٠١٩ عن ثلاثة وثمانين عاما تاركا خلفه إنجازات تخلد إسمه، وإسهامات فكرية في مجال العمارة منها بحثه " التحدي المعماري في المدينة الإسلامية"، الذي يضمه هذا الكتاب، وفيه يقف على التطور التاريخي والعمراني للمدينة الإسلامية

القديمة، حيث يستعرض المدن الإسلامية القديمة، من الكوفة وبغداد ودمشق والفسطاط حيث كانت هذه المدن معسكرات وقواعد لمواصلة الجهاد ونشر الدعوة، وكان أول ما بني فيها المسجد الجامع ودار الإمارة، ثم تقسم المدينة إلى أقسام أو خطط، تنزل كل قبيلة فيخطه ما تلبث أن تتحول إلى أحياء معمورة تتخللها الطرق والسكك التي تؤدي إلى المسجد الجامع في وسطها.

أما المدن القديمة التي كانت قائمة فقد تم تطويرها لتناسب عاداتهم وتقاليدهم وأصبحت تتميز بسمات واضحة تكاد تكون ثابتة أملتها العقيدة الإسلامية، قام الباحث بإجمالها في بحثه، ومن أهم هذه السمات أن أغلب هذه المدن محاطة بأسوار تحميها وتحفظ خصوصيتها وتحتوي على بوابات تتصل خارجياً بطرق القوافل. وكلها يتوسطها المسجد الجامع، فهو مركز الالتقاء الروحي والثقافي ويلحق به بعض الخدمات الصحية والاجتماعية، وكانت المساجد الأولى بسيطة يحيط بها سور لحمايتها، وكان بيت القبلة مسقوفاً يقي المصلين الحر والبرد، ثم أقيمت الأسقف على أعمدة مكونة من أروقة حول الصحن وزودت الجوامع والمساجد بالمآذن، ثم استخدمت الايوانات مكونة ما يعرف بالمسجد المدرسة، ثم تطورت المساجد لتصبح مجموعة دينية معمارية تشمل المسجد والمدفن والسبيل والمستشفى والخانقاه. وكان التحدي الحقيقي الذي واجه المعماري المسلم المعاصر يتمثل في إيجاد الحلول المناسبة التي تأخذ في الاعتبار احتياجات الإنسان المعاصر ومقومات المدينة الإسلامية.

ويستعرض الباحث تجربته في تطوير معمار مدينة جدة، وقد كانت جدة القديمة نموذجاً للمدينة الإسلامية ذات الطابع الخاص وذلك بحكم موقعها كبوابة بحرية لمكة المكرمة.فكانت تعيش داخل سور يحميها مثلها مثل معظم مدن العصور الوسطى، لذلك كان شاغلهاالأول بالنسبة لأحياء جدة الجديدة هو تطوير شبكات الطرق والمرافق والخدمات العامة والعمل على نشر اللمسات المعمارية والجمالية التي تحفظ للمدينة طابعها الممي ، مع المحافظة على النسيج المعماري القديم بطابعه التاريخي المميز وعدم اللجوء إلى الهدم وتوسعة الشوارع إلا في حالة الضرورة القصوى.

***

أما المعماري الأردني رائف نجم، وهو نائب رئيس لجنة اعمار المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، فبحثه يتناول النمط المعمارى فى المدينة الإسلامية، فهوية ذلك النمط المعاصر تعتبر من المواضيع الشائكة التى تداولها المؤتمرات العالمية فى السنين الأخيرة ، لأنه ليس شيئاً ثابتاً بل يتطور مع تطور الزمن ، فالثبات من الجمود والجمود من الموت ، ولكن التجديد من الحياة ، والاسلام يدعو الى التجديد ، كما أن العمارة هى صورة مجسمة من ثقافة الأمة ، وحتى نفهم النمط المعمارى الاسلامى المعاصر علينا ان نفهم التراث المعمارى الاسلامى ونربطه مع الحاضر والمستقبل لنستفيد من الماضى وفى نفس الوقت نقارنه بالعالم المتغير لنستفيد من العمارة الحديثة والتكنولوجيا الحديثة. والتحدى الذى يجابه المهندسين والمعماريين فى الوقت الحاضر يتمثل فى أهمية التنسيق بين

الأشكال القديمة والمجتمع المعاصر دون اللجوء الى التضحية بالخصائص الأساسية المتوارثة . والمعمارى شخص يركز اهتمامه على المستقبل بعكس رجل التاريخ الذى يدرس الماضى ويوليه أكثر اهتمامه ، وتصميم العمارة الإسلامية المعاصرة يحتاج إلى هذا وذاك ، ويحتاج إلى هذا الرباط الوثيق بين الماضى والحاضر الذى هو بداية المستقبل.

***

هذا يستوجب دراسة " وحدة الجوار بالمدينة المعاصرة" ، وسبب إشكالية المجاورة أننا نقلنا قواعد ونظريات تخطيط المدن كما هي في العالم الغربي وطبقناها ، دون أن توضع في اطارها الاسلامي الصحيح الذي يناسب المجتمع الاسلامي الذي تقام من أجله المدينة. ومن هنا تبرز اهمية وضع صياغة اسلامية لنظرية المجاورة السكنية لكي تكون اساسا لتخطيط المناطق السكنية بالعالم الاسلامي. فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية تدعو إلى الترابط والتراحم، وتدعو الى مكارم الاخلاق، واحترام الغير وصيانة الحرمات، والتعاون، والتكافل والصدق في المعاملة و غير ذلك من مكارم الأخلاق، يمكن أن نستنبط منها مبادىء وحدة الجوار الاسلامي. وقد انتبه إلى ذلك مبكرا العلامة عبدالرحمن بن خلدون ، في الباب الرابع في المقدمة "أحوال المدن والأمصار وسائر العمران" وهي ما توقف عندها بالدراسة الباحث المغربي الدكتور السعيد ريان، في بحثه المعنون ب المدينة الإسلامية.. دراسة في المنظور الخلدوني، وهو نفسه المنظور الذي توقف عنده الضابط والمهندس المصري عبد الرحمن زكي، في بحثه "عواصم مصر

الإسلامية... الفسطاط – العسكر – القطائع – القاهرة" ، فيعرض لانتقاد بن خلدون لمهندسي العرب الأوائل لأنهم لم يراعوا الشروط الأساسية التي يجب توافرها عند انتخاب موقع المدينة وتخطيطها، فذكر أنه يشترط في اختيار موقع المدينة أن تقع إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر حتى لا يوصل إليها إلّا بعد العبور، كما اشترط طيب الهواء للسلامة من الأمراض، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات، وضرب ابن خلدون مثلًا في سوء الإختيار لذلك مدن القيروان والكوفة والبصرة التي كانت أقرب إلى الخراب لأنها لم تراع فيها الأمور الطبيعية.

والكاتب لا يوافق بن خلدون في كل ما ذهب إليه، ويرى أن عمرو بن العاص قد وفق في اختيار موقع العاصمة الأولى لمصر الإسلامية – الفسطاط – أكثر من توفيق زملائه القوّاد الآخرين في اختيار العواصم الأخرى التي أسسوها في العراق أو في شمال أفريقية كالبصرة والكوفة والقيروان. أما الدكتور مصطفى عبد الله شيحة أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة، فيذهب في دراسته " نماذج تطبيقية للفن المعماري في مدينتي: الفسطاط والقاهرة"، إلى أن المدينة الإسلامية ضمت كل نماذج العمارة الإسلامية، وكذلك طرز الزخرفة المتنوعة بحيث صارت العمارة والزخرفة وحدة فنية متحدة، لا يمكن الفصل بينهما، وهو الأمر الذي أكسب الفن الإسلامي مظهراً جمالياً رائعاً اتحدت فيه العمارة الدينية والمدنية والحربية بعناصرها ونماذجها المتنوعة مع الأساليب الزخرفية المتطورة والمتنوعة معاً.

ويتناول في بحثه عدة نقاط تتعلق بالمدينة الإسلامية في بعض مشتملاتها المعمارية كنماذج تطبيقية كانت من المنشآت التي حرص المعمار على توافرها في المدينة لأهميتها في استمرار الحياة فيها، ويشير إلى الاكتشاف الأخير في مدينة الفسطاط، ويختص بالكشف عن شبكة تزويد المدينة بالمياه العذبة من ساحل النيل المشرف عليها، وكذلك الإشارة إلى منازل الفسطاط القديمة، والبوابات الأثرية بمدينة القاهرة التي ترجع إلى فترة العصر الفاطمي بمصر، كذلك يشير إلى بعض العناصر الزخرفية القديمة التي اقتبسها الفنان في العصر الإسلامي واستخدامها كنماذج تطبيقية على تحفه وعمائره.

***

أما "العمارات الإسلامية العتيقة القائمة في بغداد" فكانت مناط بحث العالم الموسوعي العراقي الراحل الدكتور مصطفى جواد، ويتخذ من قبة السيدة زمرد خاتون مثالا لتلك العمارات الإسلامية العتيقة التي لم تزل قائمة، ويذكر أن إن هذه القبة وأمثالها من القبب المخروطية أو الهرمية تكاد تكون خاصة بمشاهدة الأئمة والكبراء منذ زمن العباسيين، ومما بقي منها في العراق، هذه القبة وقبة الحسن البصري وقبة أمام الدور وقبة الشيخ عمر السهروردي ببغداد، من المخروطيات، وقبة يحيى بن القاسم بالموصل، ويشير إلى أن وكان المؤرخون إذا قالوا: أن لفلان تربة أو ابتنى فلان تربة، دل قولهم على وجود القبة ، فالتربة كلمة اصطلاحية عند

مؤرخي العصور العباسية ومن بعدها معناها قبر ذو مشهد وقبة كتربة موسى بن جعفر وعبد القادر الجيلي، إلا أن اصطلاح التربة لمثل ذلك البناء لم يبق حتى القرن الحادي عشر للهجرة، وقبة السيدة زمرد خاتون قائمة على قاعدة ثمانية الأضلاع لأن كثرة الأضلاع في الشكل المضلع تعين كثيرا على قيام بناء مخروطي عليها أي قيام دوائر من البناية متضائلة شيئا فشيئاً حتى تنتهي بسماوته أي بنقطة أعلاه ، ولذلك كثر استعمال هذا الشكل الثماني في الترب كالتربة الصليبية بسامراء وتربة شيخ الشط بالموصل وتربة نجم الدين بالحديثة قرب عانة، وتأتي بعدها التربة الرباعية الأضلاع كتربة أمام الدور وتربة علي بن إدريس اليعقوبي قرب بعقوبة.

***

ومن الشرق الإسلامي إلى الأندلس وعمارته، وبحث بقلم الدكتور السيد عبد العزيز سالم أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة بجامعة الإسكندرية ، فتناول "الابتكارات المعمارية في المسجد الجامع بقرطبة"، ويعتبر جامع قرطبة من اهم روائع العمارة الإسلامية المتبقية في الأندلس الى يومنا هذا. وتتضح فيه السمات المميزة للعمارة الأندلسية في العهد الأموي من خلال المزج بين التأثيرات الخارجية والخصائص المحلية، مما ساعد على ابتكار اشكال وأساليب فنية معمارية جديدة، انطلق منها الفن الأندلسي. ومصلى الجامع واسع تصطف في رحابه الأعمدة المرمرية المتعددة الألوان التي تتجه نحو القبلة و المحراب، وفوق هذه الأعمدة الأقواس المزدوجة التي ترفع السقف الذي يتكون من الخشب المغطى

بالقرميد الأحمر. وكان المصلى مكوناً من إثني عشرة ممراً موازياً لجدار القبلة، وتسعة أروقة عمودية على هذا الجدار. وكان الرواق الأوسط اوسع من البقية ويؤدي الى المحراب. وقد أكسبت واجهات صفوف الأعمدة المزدوجة المركبة داخل المصلى الجامع شهرته الواسعة، اما انسياب هذه الواجهات الشبيهة بأشجار النخيل فقد اعطى المصلى روعة في الجمال المعماري. وظل جامع قرطبة طوال تاريخه مركزاً اجتماعياً ودينياً. وكان من اشهر مراكز العلم. وفي عهد الدولة الأموية في الأندلس، كان الجامع الرسمي للدولة، الذي تعقد فيه الاجتماعات والمركز الذي يتجمع فيه الجمهور عند تنفيذ الأحكام القضائية. وبسبب هذا المفهوم كان يطلق على جامع قرطبة في ذلك الوقت اسم جامع الحضرة.

***

إن التقيد بمصطلح «إسلامية» العمارة، يُحتم نمطية التزامها في بنائها بتعاليم الإسلام، وينطبق تعريف العمارة الإسلامية في تلك الحالة على المباني المقترنة بخدمة العقيدة فكراً وممارسة لغرض ديني وحسب.

وتساهم نظرية إسلامية العمارة في اختزال المساهمات الإنشائية والعمرانية التي أنجزتها مختلف القوى الفاعلة في المجتمعات الإسلامية، وهي ليست بالضرورة العمارة التي تُجسد عقيدة الإسلام وحسب؛ بل هي العمارة الناطقة بهوية الحضارة الإسلامية، والمعبرة عن العلاقة بين العقيدة والمجتمع، والملبية حاجات المسلمين سواء العمائر الدينية كالمساجد

والزوايا، أو المنازل والأسبلة والكتاتيب، وبمعالجات معمارية متنوعة، اكسبت تلك المنشآت سمة مميزة من إقليم لآخر، ومن عصر لعصر.

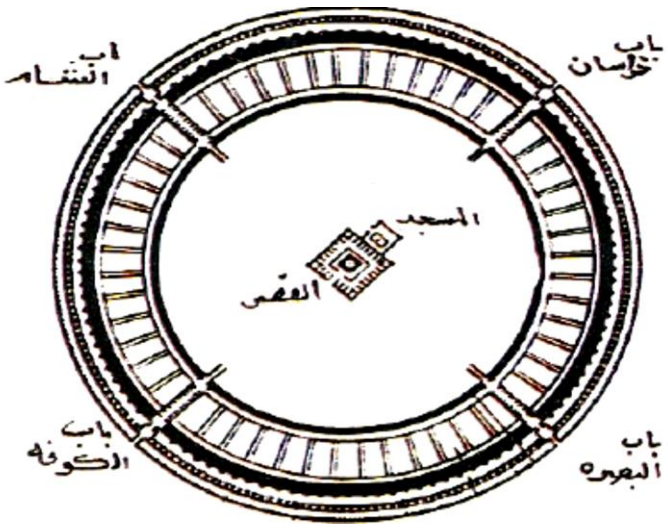
وإذا كان المصطلح يُوحي باكتساب نزعة دينية إسلامية؛ فقد ذهبت بعض الدراسات المعاصرة لنسبة العمارة إلى عصور محددة في حضارة الإسلام، مثل العمارة في العصر الفاطمي أو المملوكي أو العثماني، ما ينطبق على أبنية ذات خصائص معمارية تميز الهوية الإسلامية لتلك العمائر في حقبة بعينها، فتتصف العمارة الملوكية على سبيل المثل بمفردات معمارية متطابقة في مصر والشام، وتتسم العمارة العثمانية كذلك بعناصر وزخارف متمايزة حيثما وُجدت في تركيا أو اليونان أو مصر أو الجزيرة العربية.

التحدي المعماري في المدينة الإسلامية

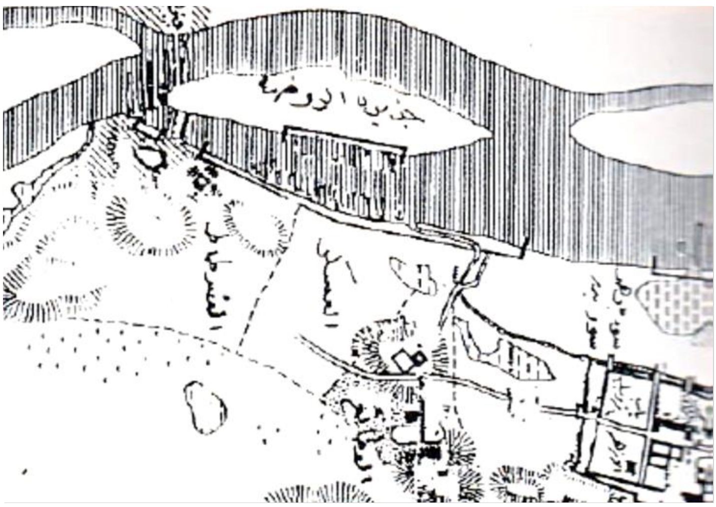
د.م/ مُحَمَّد سعيد فارسي

لما نزل الوحي على مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام، كان ذلك مولداً لدين جديد وانطلاقة لحضارة هي حضارة الإسلام التي بدأت في مكة المكرمة وانتقلت إلى المدينة المنورة، فالإسلام دين حضاري والمدينة الإسلامية هي المكان الأمثل للمسلم لممارسة تعاليم دينه حيث يتوفر له الأمن والأمان وحيث المسجد الجامع الذي يوفر له أداء فريضة صلاة الجماعة وحيث يتبادل التجار بضائعهم ويمارس الصناع والحرفيون نشاطهم، فالمدينة الإسلامية مركز ديني وسياسي واقتصادي وثقافي وفني تميزت بمقومات وقيم أكسبتها هذا الطابع المميز.

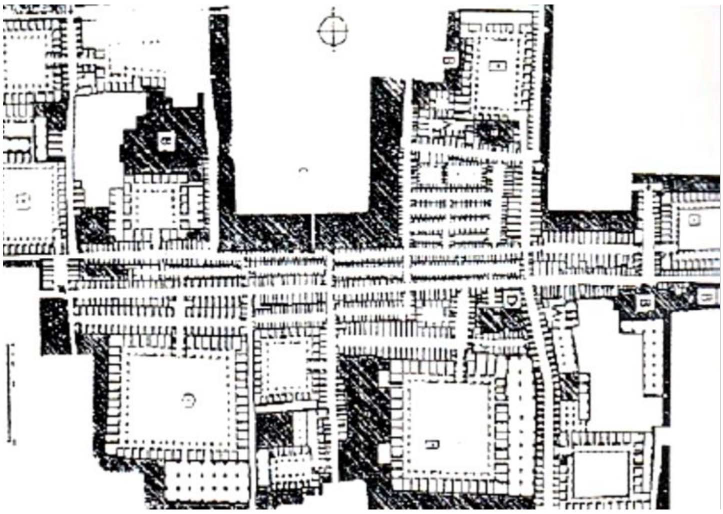
وباستعراض تطور المدينة الإسلامية في العصور المختلفة يمكن استخلاص هذه المقومات والمميزات التي تصبح نموذجاً لمدن اليوم والغد.



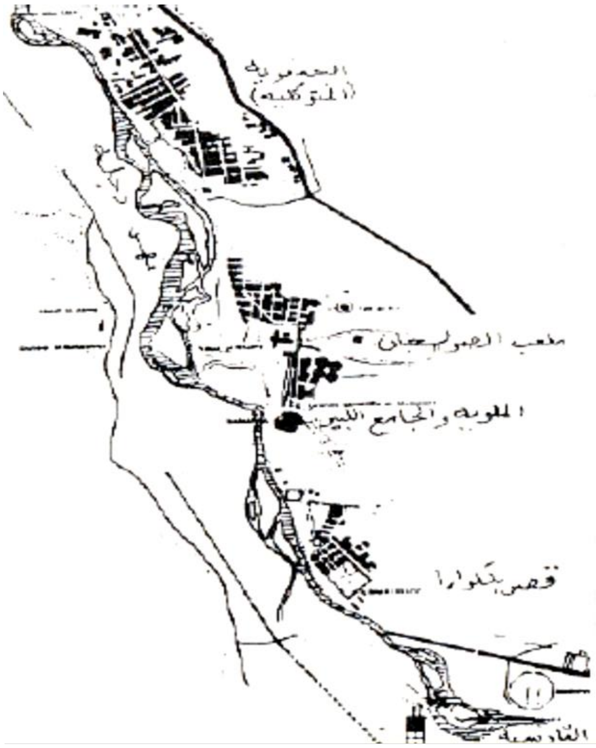
بغداد "المدينة المدورة" كما كانت أيام تأسيسها ١٤٥هـ/٧٦٢م



الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة



أسواق مدينة حلب



التطور التاريخي والعمراني للمدينة الإسلامية القديمة

عندما فتح العرب سوريا والعراق ومصر وشمال أفريقيا كانت المدن الأولى التي أسسها المسلمون مثل البصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر معسكرات وقواعد لمواصلة الجهاد ونشر الدعوة وكان أول ما بني فيها المسجد الجامع ودار الإمارة، ثم تقسم المدينة إلى أقسام أو خطط، تنزل كل قبيلة فيخطه ما تلبث أن تتحول إلى أحياء معمورة تتخللها الطرق والسكك التي تؤدي إلى المسجد الجامع في وسطها.

دخل العرب أثناء الفتوحات مدناً عريقة مثل الإسكندرية وأنطاكية ودمشق والقدس، ما لبثوا أن طوروها لتناسب مقتضيات الدين الإسلامي.

وفي عصر الدولة الأموية انتقل مركز الخلافة الإسلامية من الكوفة إلى دمشق التي تصبح عاصمة الدولة، يرتفع داخل أسوارها المسجد الأموي.

ثم اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وامتدت فتوحاتها من أسبانيا وشاطئ المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود الصين شرقاً، ويؤسس العرب مزيداً من المدن مثل قيروان التي اختطها عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ في تونس، وكان أول ما بني فيها دار الإمارة والمسجد الجامع وأحيطت بسور له أربعة عشر باباً.

زال حكم الأمويين عام ١٣٢/٧٥٠م عقب ثورة شبت في إقليم خرسان شرق إيران انتهت بانتصار أسرة بني العباس، ولكن أحد أفراد أسرة بني العباس، ولكن أحد أفراد أسرة بني أمية وهو عبد الرحمن "الداخل" تمكن من الفرار إلى أسبانيا حيث أسس خلافة إسلامية هناك، وازدهرت مدينة قرطبة، وأسس عبد الرحمن جامعها الشهير عام ١٦٩هـ / ٧٨٥م، الذي اتسع فيما بعد حتى أصبح من أجمل وأكثر الجوامع في العالم الإسلامي.

أنشأ أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي عاصمة جديدة عام ١٤٥م/ ٧٦٢هـ على نهر دجلة عرفت باسم بغداد، اتخذ تخطيطها الشكل المستدير، وأحيطت بثلاثة أسوار وخندق، وكان يتوسطها القصر الذي اشتهر بقبته الخضراء وبجانبه المسجد، ويحيط بهما مساحة شاسعة من الحدائق وسور دائري، ويقسم المدينة شوارع متسعة وأخرى دائرية.

وتصبح بغداد مركزاً هاماً للعلوم والفنون الإسلامية، وتترجم بها مؤلفات عدة في العلوم والفلسفة من اللغة اليونانية إلى العربية، وأنشأ بها الخليفة المأمون "بيت الحكمة" وهي دار للبحث والدرس، وغدت بغداد مدينة من أكثر المدن ازدهاراً في عهد الخليفة هارون الرشيد.

وأنشأ المعتصم مدينة سامراء (سُر من رأى) على بعد ستين ميلاً شمالي بغداد، وأصبحت هي الأخرى مركزاً للفن والثقافة ومقر الخلفاء

العباسيين من سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م إلى أن هجرت فجأة في سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م.

وإذا كانت بغداد المدورة قد اختفت تحت مباني المدينة الحديثة إلا أن أطلال سامراء مازالت باقية وتدل على تخطيطها.

تمتد المدينة على ضفاف نهر دجلة الشرقي بطول خمسة وثلاثين كيلومتر، واشتملت على عدة أحياء وسلسلة من القصور الفخمة مثل الجوسق الخاقاني وقصر بلكوارا وقصر العاشق وغيرها، كما احتوت على أكبر الجوامع الإسلامية مثل جامع المتوكل وجامع أبي دلف، هذا بجانب الأسواق والملاعب وسكن الجنود والحرس ورجال الدولة.

وكان "الشارع الأعظم" يخترق المدينة من الشمال إلى الجنوب وتتفرع منه شوارع عمودية عليه.

حين أوشكت الخلافة العباسية على الانهيار، انقسمت الإمبراطورية إلى عدة دويلات، وقامت في مصر الدولة الطولونية.

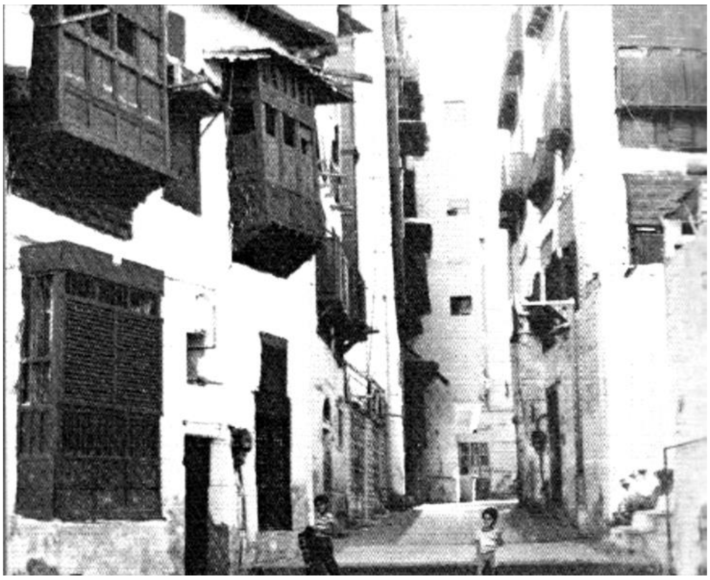
ولد أحمد بن طولون في بغداد سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م، وتلقى علومه في سامراء، وجاء إلى مصر وأقام أول أمره في مدينة العسكر التي أنشأها العباسيون شمالي الفسطاط، ولما ضاقت به وبجنده، شرع سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م ببناء مدينة جديدة شمالي العسكر وقسمها إلى قطع وزعها بين قواده ورجال دولته، لذلك سميت القطائع. جاء تخطيط مدينة ابن طولون

متأثراً بسامراء، ويشبه الجامع الذي يتوسط المدينة جامع سامراء، وكانت مئذنته تشبه الملوية.

عادت مصر ولاية عباسية لفترة من الزمن، ولكن استطاع مُحَمَّد بن طغج الإخشيد الاستقلال بالبلاد، ولكن ما لبث أن دخل جوهر الصقلي قائد الجيوش الفاطمية مصر بجيوشه، وأنشأ مدينة القاهرة، ودعا الخليفة المعز لدين الله للإقامة بها عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م.

شيدت مدينة القاهرة شمالي القطائع الطولونية على شكل مربع طول ضلعة ألف ومائتي متر، وأحاطها بسور من اللبن به سبع بوابات، وكان يتوسط المدينة ساحة يكتنفها القصر الشرقي الكبير من ناحية، والقصر الغربي الصغير من الناحية الأخرى، وبينهما ميدان لاستعراض الجند، يخترقه طريق من الشمال إلى الجنوب، هو شارع المعز أو بين القصرين، وبالقرب من القصرين اختط جوهر المسجد الجامع وأسماه الأزهر تيمناً بفاطمة الزهراء.

وفي عصر الدولة الأيوبية ٥٦٧هـ/ ١١٧١م وحد صلاح الدين بين ضواحي المدينة التي شملت الفسطاط، التي أسسها عمرو بن العاص والعسكر التي أقامها العباسيون وقطائع ابن طولون وقاهرة المعز داخل سور، وأصبحت عاصمة الدولة، وتميزت بأسوارها وقلعتها وأبوابها المنيعة، ولا غرو فقد تحملت الدولة الأيوبية عبء الدفاع عن الإسلام أثناء الحروب الصليبية.



صورة عامة توضح أنموذج المباني في جدة القديمة

استمرت الدولة العباسية في التدهور وتعرضت بغداد عام ٤٥١هـ/ ١٠٦٠م لغزو السلاجقة الأتراك، الذين أبقوا على الخليفة رمزاً للسلطة الروحية والدينية، ولكنهم أصبحوا الحكام الحقيقيين، وازدهرت مدن أخرى في عهدهم مثل الري وقاشان التي اشتهرت بصناعة البلاط الخزفي الملون (القاشاني) الذي استخدم في تغطية الجدران، مما أعطى هذه المدن طابعها الخاص.

وازدهرت مدينة أصفهان عاصمتهم، وأقيم بها مسجد الجمعة الذي تميز بالايوانات الأربعة، وهو النظام الذي سوف ينتشر في العالم الإسلامي تحت اسم المسجد المدرسة.

إذا كان السلاجقة قد أبقوا على السلطة الروحية للخلافة العباسية فإن المغول الذين اجتاحوا البلاد قضوا عليها كلية.

استولى "هولاكو" حفيد جنكيزخان على بغداد عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وقتل "المعتصم" آخر الخلفاء العباسيين، ودمر بغداد وكذلك معظم المدن التي غزاها.

ولكن اعتنق "ملوك الخان" الإسلام في أواخر القرن السابع الهجري (١٣م) ووقت طباعهم، وازدهرت تبرير عاصمتهم. وكذلك مدينة السلطانية التي حلت محلها فيما بعد كعاصمة للدولة المغولية، ولكن ضعفت الدولة واجتاحت جيوش تيمورلنك إيران والعراق وآسيا الصغرى وكان جيشاً يتكون من الخيالة البدو الذين قضوا على كل شيء في طريقهم، يغتالون السكان ويقطعون الطرق ويدمرون المدن ويدمرون الآبار، وتعرضت دلهي وشيراز وبغداد ودمشق وأصفهان للتخريب.

ولكن بعد مرحلة الهدم بدأت مرحلة البناء واستقرت الدولة التيمورية واتخذت من سمرقد عاصمة لها، وأتى الحكام إليها بالفنانين والصناع والكتاب والفلاسفة والعلماء وأصبحت سمرقند المدينة الأولى في الشرق الإسلامي وازدهرت هراه وبلخ وبخارى.

ولكن دب النزاع بين خلفاء تيمورلنك وقضى إسماعيل الصفوي على دولته واتخذ من تبريز عاصمة له ثم نقلها إلى قزوين عام ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م ثم غدت أصفهان العاصمة في عهد الشاه عباس الأول (٩٦٦ –

١٠٣٨هـ/ ١٥٨٧ – ١٦٢٩م) الذي تبلغ البلاد أوج ازدهارها في عصره وتتقدم العلوم والفنون وتعود أصفهان إلى سابق مجدها ويتم تخطيط المدينة مع المحافظة على مبانيها التاريخية مثل مسجد الجمعة، ويشيد جامع الشاه ومسجد الشيخ لطف الله وقصر على قابو (أي الباب العالي) حول ميدان فسيح (١٧٠ × ٥٠٠م) ويصل الميدان بالمركز القديم حيث جامع الجمعة بطريق تجاري "القيسرية" ويزود الشاه عباس المدينة بالحدائق والقنوات والجسور.



جدة الحديثة

كانت الدولة الصفوية في إيران معاصرة لدولة الأتراك العثمانيين الذين دخلوا آسيا الصغرى وقضوا على الدولة البيزنطية قضاءاً مبرماً سنة ١٤٥٣م عندما افتتح مُحَمَّد الفاتح القسطنطينية وحلوها إلى مدينة إسلامية اسمها استانبول أو إسلام بول أي مدينة السلام، وجعلها عاصمة للدولة وجدد أسوارها وزينها بالمنشآت الفخمة.

الملامح المعمارية للمدينة الإسلامية القديمة

هذه المدن التي أسسها المسلمون أو فتحوها ما لبثوا أن طوروها لتناسب عاداتهم وتقاليدهم وأصبحت تتميز بسمات واضحة تكاد تكون ثابتة أملتها العقيدة الإسلامية، يمكن إجمالها في العناصر الآتية:

– يحيط بمعظم هذه المدن أسوار تحميها وتحفظ خصوصيتها وتحتوي على بوابات تتصل خارجياً بطرق القوافل.

– يتوسط المدينة المسجد الجامع، مركز الالتقاء الروحي والثقافي ويلحق به بعض الخدمات الصحية والاجتماعية، وكانت المساجد الأولى بسيطة يحيط بها سور لحمايتها، وكان بيت القبلة مسقوفاً يقي المصلين الحر والبرد، ثم أقيمت الأسقف على أعمدة مكونة من أروقة حول الصحن وزودت الجوامع والمساجد بالمآذن، ثم استخدمت الايوانات مكونة ما يعرف بالمسجد المدرسة، ثم تطورت المساجد لتصبح مجموعة دينية معمارية تشمل المسجد والمدفن والسبيل والمستشفى والخانقاه.

– تمتد المحلات التجارية على طول الشارع الرئيسي الذي يعد العمود الفقري للمدينة وتتفرع منه شوارع أخرى تحتوي على أسواق متخصصة كثيراً ما تسمى بأسماء السلع التي تباع بها مثل سوق العطارين وسوق القناديل وسوق الشماعيين وسوق السلاح وسوق الحرير وسوق المجوهرات الخ... ولما زادت حركة التجارة أقيمت الخانات والفنادق والوكالات.

– نمت حول المسجد والأسواق الطرق والأزقة في اتجاهات تلقائية بشكل عضوي طبيعي، وبدت المدينة كنسيج متداخل تتخلله البرحات والأفنية وترتفع المآذن والقباب لترسم خط أفق تميزت به المدينة الإسلامية.

– كانت البيوت تفتح على الداخل على حوش سماوي وتتجمع الدور لتكون الحارات والأحياء لكل منها مسجد، ويشبه هذا النسيج توريقات ورقة الشجرة، وحتى المدن التي نشأت مخططة بشوارع مستقيمة متعامدة (سمراء، القاهرة) أو ورثت هذا التخطيط من مدينة قديمة (دمشق)، سرعان ما تتحول إلى هذا النسيج العضوي المتداخل.

– تقع معظم المدن الإسلامية في منطقة حارة، فاستطاعت أن تتغلب على الحر الشديد بمعالجات مناسبة مثل الأفنية وملاقف الهواء التي تستقبل الهواء من الشمال وتوجهه داخل المبنى بما يلطق من حرارة الجو.

– استخدمت العمارة الإسلامية المواد المناسبة لسد احتياجاتها مثل الطابوق في بلاد العراق والحجر الجيري وقوالب الطوب في مصر كما استخدمت الخشب بلونه الطبيعي لعمل المشربيات والرواشين.

– برع الفنان المسلم – الذي لا يميل إلى التجسيد في استخدام الأشكال الهندسية والنباتية بأشكال جميلة متداخلة. ظهر ذلك في العناصر المعمارية مثل المشربيات والأبواب والزخارف مما أضفى علي العمارة الإسلامية طابعها الخاص.

– احتوت المدن الإسلامية على الكثير من العناصر الجمالية مثل الحدائق كما استخدمت المياه والنفورات لتلطيف الجو خاصة في البيوت والقصور.

هذه بعض من المقومات التي امتازت بها المدن الإسلامية، ولكنها تعرضت معظمها في العصور الحديثة لضغط سكاني، ونزح كثير من السكان من الريف إلى المدن وامتدت المدينة رأسياً وأفقياً واستخدمت وسائل النقل الآلي وفقدت المدن أنسجتها العمرانية وهويتها الإسلامية ومقياسها الإنساني الذي تميزت به وتعرضت الأحياء التاريخية للإهمال فتدهورت، كما ظهرت في مدن كثيرة مناطق وأحياء عشوائية.

المدينة الحديثة وإشكالية المعمار الأنموذج؟

وجد المخططون أنفسهم أمام تحد ومشاكل عديدة ومعضلات صعبة الحل. هل يكون الحل في تصور مدينة مثالية، حتى ولو كانت خيالية؟.

لقد شغل هذا الحلم كثيراً من المفكرين والفلاسفة والمخططين. وصف بعضهم المدينة المثالية مثلما فعل الفارابي الذي تصور مدينة فاضلة تكون الأخلاق ومنهج القرآن والسنة أساس التعامل بين سكانها.

هل يمكن تصور نموذج أمثل يحافظ على مقومات المدينة الإسلامية ويوفر احتياجات الإنسان المعاصر؟.

هناك بلا شك نظريات عن العدد الأمثل للسكان والخدمات اللازمة لهم ونسب الحدائق والمناطق الخضراء والطرق وعروضها وتصميماتها، ولكن هل يمكن تجميع ذلك في مدينة مثالية؟.

لقد فشلت كل هذه المحاولات التي لم تأخذ الواقع في الاعتبار، وما نراه مثالياً اليوم، قد لا يناسب متطلبات الغد ونجاح المخطط الحقيقي هو أن يرتبط التخطيط بالواقع لتحسينه والارتقاء به.

هنا يمكن التحدي الحقيقي في إيجاد الحلول المناسبة التي تأخذ في الاعتبار احتياجات الإنسان المعاصر ومقومات المدينة الإسلامية التي استعرضناها، ويمكن ذكر بعض هذه الحلول أو المبادئ العامة:

– إيجاد مقياس مناسب بين المقياس الإنساني الذي تميزت به المدينة الإسلامية ومقياس السيارة التي لابد منها في الحياة المعاصرة، وهناك حلول كثيرة منها التفرق بين طرق المشاة وطرق السيارات على المستوى الأفقي أو الرأسي.

– المحافظة على خصوصية المساكن التي كانت تفتح على الداخل، إلا أن التشريعات الحالية قد تعوق هذا الحل، من هنا تأتي ضرورة إعادة النظر في هذه التشريعات.

– إعادة الجامع لدوره كمركز تثقيف وبحث ومعرفة بالدين الصحيح.

– الاستفادة من أشكال الأسواق التاريخية وما تتميز به من نشاط وحيوية في تخطيط الأسواق التجارية الحديثة.

– الحفاظ على طابع المدينة الإسلامية باستخدام المواد وأساليب البناء الحديثة وربط الحديث بالقديم.

– مراعاة متطلبات العصر الحديث مع الحفاظ على التراث.

– محاولة الاقتراب من الحلول المثالية دون البعد عن الواقع وإلا جاءت حلولاً يتعذر تنفيذها.

جُدة القديمة .. النموذج الماثل

وكان لنا تجربة في تأصيل القيم الحضارية في مدينة جدة.

كانت جدة القديمة نموذجاً للمدينة الإسلامية ذات الطابع الخاص وذلك بحكم موقعها كبوابة بحرية لمكة المكرمة.

كانت تعيش داخل سور يحميها مثلها مثل معظم مدن العصور الوسطى وكانت مبانيها من أحجار الكاشور الجيرية والطين المأخوذ من بحر الأربعين في الشمال وكانت بيوتها بيضاء فيما عدا نوافذها المغطاة بالرواشين الخشبية.

ونظراً لضيق مساحة المدينة داخل السور امتدت المنازل رأسياً وتعددت أدوارها لتفي احتياجات سكانها، فكان الدور الأرضي يخصص للاستقبال يعلوه الدور الأول وبه المضيفة، ثم يأتي أهل المنزل في الدورين الثاني والثالث ويخصص السطح للسمر والسهر وهو بذلك يحل محل الفناء في البيوت ذات الامتداد الأفقي.

وفي عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م تم هدم السور لمواجهة الضغط السكاني المتزايد، وبدأ العمران تعكس الثقافات والأفكار التي وردت إليها من الخارج وبدأت المدينة تفقد طابعها المميز مثلها مثل معظم المدن الإسلامية.

كان شاغلنا الأول – بالنسبة لأحياء جدة الجديدة – هو تطوير شبكات الطرق والمرافق والخدمات العامة والعمل على نشر اللمسات المعمارية والجمالية التي تحفظ للمدينة طابعها المميز.

أما بالنسبة للمدينة التاريخية فقد تمت دراسة مشروع متكامل روعي فيه الآتي:–

– المحافظة على النسيج المعماري القديم بطابعه التاريخي المميز وعدم اللجوء إلى الهدم وتوسعة الشوارع إلا في حالة الضرورة القصوى.

– تخصيص معظم الطرق للمشاة وتحويل المرور خارج المنطقة ورصفها بما يتناسب مع استخدامها.

– المحافظة على المدينة القديمة بكامل مساكنها وإعادة ترميمها بكامل مساكنها وإعادة ترميمها وتشجيع أصحابها على إعادة استخدامها وتحويلها من أطلال قديمة إلى أسواق ومطاعم للأكلات الشعبية.

– تشجيع الحرف التقليدية التي أوشكت على الانقراض تحت زحف الإنتاج الآلي والتصنيع.

– تشجيع أصحاب المساكن التي تم بناؤها على النمط الغربي على كسوة شرفاتها بمشربيات خشبية لتتمشى مع المباني القديمة مع التركيز على اللون الأبيض في الواجهات.

– تجميل المدينة بأشكال مستوحاة من التراث الإسلامي مثل المآذن والأهلة والخط العربي.

– تحويل بعض الأراضي الفضاء والبراحات إلى حدائق صغيرة.

ولتنفيذ هذا المخطط تم إنشاء بلدية فرعية في المنطقة القديمة كان من مهامها حماية المنطقة والحرص على أشكال المباني المستجدة بحيث يتمشى تصميمها وشكلها وحجمها وموادها لتنسجم من الناحية المعمارية مع المباني الأثرية.

النمط المعمارى فى المدينة الإسلامية

المهندس : رائف نجم

إن هوية النمط المعمارى الاسلامى المعاصر تعتبر من المواضيع الشائكة التى تداولها المؤتمرات العالمية فى السنين الأخيرة ، لأنه ليس شيئاً ثابتاً بل يتطور مع تطور الزمن ، فالثبات من الجمود والجمود من الموت ، ولكن التجديدمن الحياة ، والاسلام يدعو الى التجديد ،كما أن العمارة هى صورة مجسمة من ثقافة الأمة .

إن العمارة الاسلامية فى العصور المتوسطة شرقاً وغرباً – سواء فى البلاد الاسلامية أو فى الشرق الأدنى ، أو فى المغرب العربى ، أو فى أسبانيا ، أو فى الهند ، أو فى أندونيسيا ، أو فى تركيا– قد اكتسبت مظاهر عديدة من العمارة قبل الإسلام ، ولكنها جمعتها فى نمط نموذجى يؤكد التناسق والنقاء الهندسى ودراسة الفراغ فى جميع الاتجاهات ، والشعور بالتوازن والتوحيد .

لنفهم النمط المعمارى الاسلامى المعاصر علينا ان نفهم التراث المعمارى الاسلامى ونربطه مع الحاضر والمستقبل لنستفيد من الماضى وفى نفس الوقت نقارنه بالعالم المتغير لنستفيد من العمارة الحديثة والتكنولوجيا الحديثة .

فالتراث عنصر قابل للتغيير مع مرور الزمن ويجب إخضاع الحديث لاحترام القديم ، وإيجاد الخيط الدقيق الذى يربط الماضى مع الحاضر والمتسقبل .

والمهم اذن كيف نصنع التراث الجديد ؟ شريطة ان يرتبط بإنسانية الإنسان ومبادئ الاسلام لان الاسلام فكر ولا يفرض الشكل .

وعليه يأتى النمط المعمارى الإسلامى ضمن الإطار الذى يفرضه علينا الإنتماء الى مجتمعاتنا وتقاليدنا ، كل ذلك فى ظل المبادئ الاسلامية الأساسية التى لا تتغير مع تغيير الزمن والتى يمكن استخلاص بعضها من القرآن الكريم واعتبارها قواعد ثابتة يستنير بها المعماريون فى التخطيط والتصميم المعمارى العربى كالبساطة والابتعاد عن البذخ والتبذير واتباع القاعدة الوسطية والمساواة بين الأفراد بالحقوق والمعاملات رغم اختلاف درجات المعيشة واحترام الشعائر الدينية.

من هذا المنطلق نستطيع أن نصل إلى تعريف للعمارة الإسلامية ونقول : (أنها العمارة التى تنسجم مع المجتمع الإسلامى فى مختلف البيئات والأزمان ، ولا تتنافر مع المبادئ والقواعد الإسلامية ، وتطبق فيها الأسس الفنية والهندسية الواجب توفرها فى العمارة الجيدة).

عن طريق فن العمارة يمكن إيجاد علاقة مع المجتمع الذى يعيش فى المدينة ، يجب أن نستفيد من نموذج المدينة الإسلامية القديمة فى تصميم المدينة الإسلامية الحديثة دون أن نهمل الصبغات والمميزات الموجودة فى

التراث المعمارى الإسلامى ، مع الإبتعاد عن التقليد الأعمى وإيجاد أسلوب معدل متطور .

المدينة هى مجتمع إنسانى تمارس فيه العلاقات الشخصية بين الأفراد ، هناك أفراد يعرفون بعضهم البعض وهناك غرباء يعيشون بينهم ، والمدينة هى مكان يأتى إليه الغرباء من كل مكان ، وعلى ذلك فإن الأنماط المعمارية المختلفة إما ان تأخذ باعتبارها الغرباء أو أن تهملهم ، يجب الاهتمام بالناس الذين سيعيشون داخل الأبنية ، وإلا نهتم فقط بالمواد الإنشائية والشكل والنمط ، يجب أن نهتم بالعلاقات بين هؤلاء الناس .

إن التغييرات الإجتماعية وخصوصاً ما يؤثر منها فى وضع المرأة لا شك أنها تؤثر في شكل البيت وتصميمه.

إن تعديل القوانين والأنظمة الخاصة بالأبنية وحقوق المجتمع تؤثر فى شكل البيت ، إن التغييرات فى الميزان الاقتصادى يؤثر على الناحية المعمارية ، يجب علينا أن نضع هذه التغييرات أمام ناظرينا وأن نعتبرها عوامل مؤثرة فى حياة المجتمع الإسلامى الذى يعيش داخل المدينة الإسلامية ، هناك أمثلة كثيرة على نموذج المدن الإسلامية التى أنشئت فى العصور الإسلامية المتوسطة كمدينة فأس فى المغرب ومدينة القدس الشريف فى فلسطين ومدينة القيروان فى تونس حيث يتمثل التخطيط النموذجى للمدينة الإسلامية القديمة ، الذى يتميز بفصل القطاع العام

للمدينة عن القطاع الخاص ، ويوضح التفاعل بين المساحات والفراغ ويضمن التجانس فى نسيج المدينة.

المدينة الإسلامية هي المدينة التى نراعى فيها الله ، وهى المدينة الفاضلة وهي نموذج للمدينة المثالية التى تفخر بتراثها المعمارى الأصيل.

إن العمارة الإسلامية تؤدى وظيفة معينة وليس المقصود منها الشكل فقط ، ويجب أن تتطور أشكالها مع تطور التكنولوجيا والمواد الإنشائية ويجب أن نراعى فيها السرعة فى التنفيذ والناحية الاقتصادية .

إن النظر فى مجتمعات العالم الإسلامى كل على حدة ، ومن ثم إيجاد العوامل المشتركة فيما بينهما ضمن إطار التقدم المعاصر فى الفن والتكنولوجيا من شأنه ان يلقى ضوءاً مشعاً على توحيد الرمزية والشكل فى العمارة الإسلامية المعاصرة .

إن التحدى الذى يجابه المهندسين والمعماريين فى الوقت الحاضر يتمثل فى أهمية التنسيق بين الأشكال القديمة والمجتمع المعاصر دون اللجوء الى التضحية بالخصائص الأساسية المتوارثة .

إن المهندس المعمارى شخص يركز اهتمامه على المستقبل بعكس رجل التاريخ الذى يدرس الماضى ويوليه أكثر اهتمامه ، وتصميم العمارة الإسلامية المعاصرة يحتاج إلى هذا وذاك ، ويحتاج إلى هذا الرباط الوثيق بين الماضى والحاضر الذى هو بداية المستقبل .

على كل جيل أن يترك بصماته على البيئة التى يعيش فيها حتى تستطيع الأجيال القادمة تقويم الأجيال السابقة ، وحتى تكون هناك نقطة بداية واستمرارية لأجيال المستقبل ، وما ليس له ماض لا يمكن أن يكون له مستقبل، وعلينا تعلم أخطاء الماضى لتلافيها وعدم تكرارها .

إن البلديات اليوم تمنه إنشاء الأبنية بموجب مفاهيم وأسس التراث المعمارى الاسلامى وعليه فلا يوجد اليوم عمارة اسلامية تشيد فى مددنا الاسلامية ، ونحن نتعب فى ذلك على جامعاتنا الاسلامية والعربية التى لا تشمل براجمها التعليمية إحياء هذا الأسلوب من الفن المعمارى وإيجاد سبل التقارب بين التراث المعمارى الإسلامى وبين العمارة المعاصرة فى البلدان الإسلامية .

إن معظم البيئات الحضرية الحديثة فى العالم الإسلامى والعربى تعانى من أزمة معمارية تتسم فى أكثر الأحيان بقبحها إذا ما قورنت بصفاء وجمال المدن الإسلامية القديمة .

يقول المثل اللاتينى : " فساد الأفضل فى الأسوأ " وهذا يشبه إلى حد ما المثل العربى القائل " يبدأ فساد السمكة من رأسها " .

ينطبق هذا المثل على الأقلية المتفرنجة ، التى تملك التأثير الاقتصادى والاجتماعى الذى يفوق حجمها الصغير ، وكل ما أرجوه هو أن تخلو هذه الأقلية من المعماريين المسلمين .

يُعني الإسلام بالأخلاقيات فى الحياة –كالصدق والأمانة .

ويعلم الجميع أن اهتمام المعمارى ينصب على الشكل والرمز ولكن يجب أن يشمل اهتمامه الحياة ، والصدق مع المواد المستعملة ، والتوافق مع البيئة ، والاهتمام بالنسب الإنسانية ، واستعمال الأشكال الصادقة ، وهذه كلها أمثلة على مظهر الصدق والأمانة .

يجب أن ينسجم النمط المعمارى فى المدن الإسلامية مع المجتمع الاسلامى فى مختلف البيئات والأزمان ولا يتنافر مع الأسس المعمارية الفنية والهندسية الواجب توافرها فى العمارة الجيدة .

يجب أن يتفق النمط المعمارى الاسلامى المعاصر مع بيئتين الأولى خلقها الله تعالى ويجب المحافظة عليها والثانية صنعها الإنسان وعليه المحافظة عليها ، لقد شوهت مدننا الاسلامية بما نُقل إليها من عمارة غريبة عليها بعد أن كانت محافظة إلى حد ما على طابعها المميز ، وقد أضر هذا التشويه بجمال وتخطيط وشكل مدننا وسبب البلبة فى معيشة السكان ، ففى تخطيط المدن مثلا يجب أن يحسب حساب مواقف السيارات تحت الأرض وليس فوقها لن الله تعالى خلق الإنسان على الأرض ومن حقه أن يعيش فوقها والا يدع السيارة التى صنعها لكى تأخذ حيزاً كبيراً فوق الأرض يزيد على حيز الإنسان.

إن استعمال المواد الإنشائية المحلية يعتبر أمراً أساسياً فى العمارة الإسلامية المعاصرة بحيث يشكل المبنى جزءاً من البيئة التى تضمه ولا

يختلفعنها وعن طابعها ، ولهذا فإنه ليس هناك أية مواد إنشائية محددة النوعية تفرض على العمارة الإسلامية ، وتتميز أبنية كل بلد إسلامى عن غيره باختلاف المواد الإنشائية فى هذه البلدان ، علاوةً على الأمور الأخرى المتصلة بحياة الفرد والمجتمع .

يتسابق معظم المعماريين اليوم فى البلاد الإسلامية والعربية إلى نقل وتقليد ما يشاهدونه فى البلد الغربية من عمارة حديثة أنشئت فى بيئة تختلف عن البيئة الإسلامية ، والمجتمعات تتنافر مع مجتمعنا ، ولها فلسفة لا تتمشى مع مبادئنا وأفكارنا ، وباستعمال مواد لا تمت بصلة إلى موادنا المحلية ، وقد بهرتهم مقاييس الضخامة وعظمة التكنولوجيا فيها ، والصرعات المعمارية التى لا تنسجم مع الوظائف المطلوبة منها ، اهتموا بالمظهر وتركوا الجوهر ، واعتقد أصحاب هذا التقليد إن شهرتهم تتناسب طرديا مع حجم تأثرهم بالعمارة الحديثة ناسين أنهم يبنون للإنسان المسلم ، ولا يعيرون أدنى انتباه أو اعتبار إلى العلاقة بين البناء والفراغ الذى حوله أو بين البناء والبيئة ، أو بين البناء والإنسان الذى سيعيش فيه ، فتأتى أبينتهم مشوهة للمنطقة التى تبنى فيها ، غريبة عنها ، وبدون أية روابط بينها وبين الأبنية والطرقات المحيطة .

يحصل كل هذا فى بلادنا الغنية بتراثها المعمارى الإسلامىخذ الغرب يهتم به ويقتبس منه فالرجوع إلى الحق فضيلة ، وعلى المعماريين الذين يصممون للمجتمعات الإسلامية والعربية أن تكون تصاميمهم نابعة من مبادئ هذه المجتمعات ومفاهيمها وعاداتها وبيئتها ومناخها وتقاليدها . زإن

يستفيدوا من العمارة الحديثة العالمية بالقدر المفيد والتناسب والمتجانس مع مجتمعاتنا ، وأن يتركوا ما تبقى لأهله .

يجب إدخال مادة (نظريات العمارة الإسلامية) ومادة (تخطيط وتصميم العمارة الإسلامية المعاصرة) فى جامعاتنا الإسلامية والعربية ويجب تفرغ بعض الأساتذة فى الجامعات الإسلامية والعربية لتطوير هاتين المادتين ولترجمة الأحاسيس والمرئيات لنماذج العمارة الإسلامية التراثية إلى لغة معمارية تخطيطية حديثة لتستعمل من قبل المصممين ولتثقيف المهندس والمصمم والمخطط من أجل خلق المفاهيم والمعايير بصورة تدريجية .

كما أن واجب الجامعات ومؤسسات الدولة وجمعيات المهندسين و وضع ضوابط ومعايير تساعد المعماريين فى وضع تصاميم معمارية تتصف بالأصالة والمعاصرة إذ لا يوجد تناقض بين التقنيات والطرق الحديثة من جهة وبين الأصالة من جهة أخرى .

لقد احتاجت المدينة الإسلامية الى سنين عديدة حتى تطورت تدريجيا وحتى اكتييت نقاء وصفاء بيئتها .

لقد أصبح واضحاً أنه فى السنين القليلة القادمة سيتم تنفيذ الخطط التنموية للإنشاءات بشكل كمي مكثف يوازى التضخم السكانى ، وستكون صناعة الإنشاءات هذه مطابقة لما يجرى فى الغرب ، وسنحصل على بيئات لا تنتمى الى هذه المدن ولا تتميز بالحساسية المعمارية الاسلامية .

بدون شك ستكون هذه الإنشاءات ذات فعالية وقادرة على تغطية المتطلبات الحياتية ولكنها بالتأكيد ستكون بعيدة كل البعد عن الناحية الإنسانية .

إن معظم المدن الإسلامية والعربية اليوم تجد نفسها فى سباق كبير مع التخطيط والبناء وفى حالة من اليأس تجدها تنجذب نحو تطبيق التكنولوجيا الغربية لإيجاد حل سريع دون تفهم حقيقى للميزات الثقافية والاجتماعية والدينية لهذه المدن .

إن علماء الغرب دائماً يقترحون بقوة اتباع طريقة الغرب بالإنتاج الكمى ، وتطبيق هذا الاتجاه على التخطيط الشامل للمدن الجديدة ثم على اجزاء المدينة وهذا يخلق بيئة غربية كلياً لا يمكن أن تتجاوب مع الحاجات الثقافية أو احتياجات الفرد .

إن هذا افتجاه بدون شك يؤمن التوعية المطلوبة من الأبنية للناس وخلال المدة المقررة ولكن يبعدهم كل البعد عن عاداتهم وتقاليدهم ومثلهم وثقافتهم وبيئتهم .

لقد شوهت مدننا الإسلامية والعربية بما نقل إليها من عمارة غربية عليها بعد ان كانت محافظة إلى حد ما على طابعها الخاص كالقدس وتونس القديمة والقاهرة القديمة وبعض المدن فى تركيا مثل بوصا التى أنشئت فى القرن الثامن عشر .. وقد آن الآوان أن ينتبه المعماريون والمهندسون المسلمون إلى هذا التشويه الذى أضر بشكل وجمال مدننا العربية .

علينا أن نستفيد من المصير الذى آلت إليه المدن الغربية وإلا ننهل من العمارة الغربية إلا بعد الدراسة العميقة وذلك بعد أن ثبت عقم ما استوردناه منها إلى الآن .

علينا أن نحافظ على حضاتنا وتراثنا المعمارى الذى قلما نجد مثيلاً له عند غيرنا من الأمم وأن ننهل منه بالقدر الذى يتمشى مع مجتماعاتنا المتطورة فى العصر الحديث .

يجب أن نحافظ على هويتنا وأن نبتعد عن الفوضى المعمارية التى عمت الوطن الإسلامى والعربى .

هذا هو التحدى للمعماريين المسلمين ، وعليهم ان يقبلوا هذا التحدى ، ويحاولوا أن يستفيدوا من الماضى و يأخذوا من الحاضر ، ويعملوا للمستقبل .

بهذه الخطوات والجهود المجتمعة نستطيع أن نوفر بيئة معمارية تربطنا بتراثنا العريق لنستمد منه الخطوط العريضة للعمارة الإسلامية المعاصرة لتشهد لنا أجيالنا أننا قد حافظنا على هذا التراث الأصيل ليظل لهم قاعدة ومرتكزاً لأعمالهم فى المستقبل .

....

– نشر بمجلة : المنهل " – السعودية – أكتوبر – نوفمبر ١٩٩٤

وحدة الجوار بالمدينة المعاصرة

اعداد: مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية بالقاهرة

يرتبط علم تخطيط المن بشكل جوهري بالمجتمع بشقيه المادي والوجداني، ويرتبط بمدينته ومسكنه ومنشآته وشبكات مواصلاته، كما يرتبط بالإنسان وعاداته وتقاليده وتصرفاته الفردية. فالتخطيط يمس كافة جوانب المدينة ويتعامل مع هيكلها الاجتماعي والاقتصادي والعمراني. وبالتالي يجب أن يكون التخطيط – وبالضرورة النظريات المستعملة في إعداده – نابعاً وموافقا للظروف المحلية لا مستوردا في افكاره ونظرياته لمجتمع آخر، خصوصا مع اختلاف الين والقيم والجذور الاجتماعية

ونحن في مجال تخطيط المدن– شأننا في ذلك شأن العاملين في مجالات العلوم الأخرى – ما زلنا نقف موقف المقلدين والتابعين لما يجد في العالم الغربي. والسؤال الآن : الى متي نقف موقف المقلدين والتابعين؟ فقد نقلنا قواعد ونظريات ومعدلات تخطيط المدن في العالم الغربي وطبقناها وهي في قالبها المستورد الاجنبي، بحيث لم توضع في اطارها الاسلامي الصحيح الذي يناسب المجتمع الاسلامي الذي تقام من اجله المدينة.

ولعل من ابرز المفارقات ان نظرية المجاورة السكينة التي تستعمل كأساس لتخطيط الاحياء السكنية، ما زالت تدرس وتطبق وهي في قالبها الغربي المستورد، مع ملاحظة أن النظريات بشقيها الاجتماعي والمادي لم

تبحث من خلال قيم المجتمع الاسلامي علما بأن الدين الاسلامي الحنيف كان من أجل اهتماماته المجتمع.

ومن هنا تبرز اهمية وضع صياغة اسلامية لنظرية المجاورة السكنية لكي تكون اساسا لتخطيط المناطق السكنية بالعالم الاسلامي.

نظرية المجاورة السكنية في قالبها الغربي :

في سنة ١٩٢٩، وصف كلارنس بيري المجاورة السكنية على أنها تلك الماحة التي تشتمل مجموعة من الناس وخدماتهم التي توفي بمتطلبات العائلة العادية وتوفر لها الراحة والوسائل الكفيلة لضمان حياة حسنة. وقد تحدث عن الخدمات المطلوب توفيرها فقال انها على الاقل يجب ان تكون مدرسة ابتدائية ومحلات تجارية للبيع بالتجزئة وخدمات ترفيهية متنوعة . وقد عرفت الاهداف من المجاورة السكنية التي تبلورت الآن في .

(أ) تحقيق الوصول الى نمط تخطيطي طبيعي جديد للمدن.

(ب) إيجاد نمط معين لتوزيع مجتمع المدينة.

(ت) إيجاد نوع من الروابط الاجتماعية بين السكان

(ث) إيجاد نظام نمطي لتوزيع الخدمات على مستوي المدينة. وقد حددت معايير معينة للمجاورة السكنية تبين مكوناتها المختلفة، سواء كانت سكنية أو خدمات تجارية أو تعليمية أو طرقا، واختلفت معايير

التقسيم تلك بين دولة واخري، وبين مدينة واخري وبين موقع وآخر بالمدينة الواحدة تبعا للظروف المؤثرة ولكن عموما بلغت نسبة الجزء السكني ٦٠% والشوارع والممرات ٢٠% والمدارس ٦% والخدمات التجارية ٤% والمناطق المكشوفة والمنشآت الاجتماعية الأخرى ١٠% ودارت مناقشة حامية حول أي المنشآت أو الانشطة لها اولوية داخل المجاورة السكنية بحيث تعتبر نواتها؟ هل تكون المدرسة الابتدائية أو المركز التجاري؟ وانتصر لهذا الرأي جماعة وللرأي الأخر جماعة أخري. كما حددت الشروط الواجبة في المجاورة لكي تعتبر كذلك كأن تكون لها حدود معينة وألا يسمح فيها المرور العبور وكذلك مسافات مشي قصوي إلى المدرسة والسوق حددت ما لا يزيد عن ٤٠٠ متر، وحدد كذلك عدد السكان المجاورة بما يتراوح بين ٥٠٠٠ الى ١٢٠٠٠ بحيث لا يسمح إلا للمرور المحلي الخاص بالمجاورة بالدخول اليها.

وهذا اتجاه جيد، ويتفق كل الاتفاق مع ما كان عليه الحال بمدينة الامس العربية الاسلامية حيث كانت المدينة بالمثل تقسم الى احياء سكنية تتميز تلك الاحياء بوجود حدود واضحة المعالم، وتحتوي تلك الاحياء على الخدمات الضرورية الاساسية للسكان كما ان تلك الاحياء كانت تتصف شوارعها الداخلية بصفة المحلية بحيث ان المرور الغريب عن الحي كان لا يعبر من خلال الحي بل من اطرافه أو خارجه. كما عرفت منشآت الخدمات الاجتماعية العامة الأخرى على انها تلك المنشآت التي تقدم الخدمات العامة لعموم المواطنين مثل المكتبات العامة والكافيتريا والنادي

ومكاتب البريد والتلغراف والتليفون وغرف تجميع القمامة والتخلص منها ودورات المياه العمومية .. الخ

واحيانا يقسم هذا البند الى جزئيين يعرف واحد على انه منشآت الخدمة الاجتماعية والتي عرفت على أنها تلك المكان الضروري والمناسب لتنمية العلاقات الاجتماعية بين السكان، وبنيت على انها قد تكون ناديا رياضيا أو صالة اجتماعات أو صالة العاب و كافيتريا .. الخ .

وذلك حسب العادات والعلاقات الاجتماعية القائمة أما منشآت الخدمات العامة فهي المكتبات ومكاتب البريد والتلغراف والتليفون .. الخ.

ومما يلاحظ على تلك النظرية انها ذات شقين، اولهما يرتبط بأنماط توزيع السكان، وتوزيع الخدمات والنمط التخطيطي العام للمدينة .. وثانيهما يرتبط بتنمية الجانب الاجتماعي والمعنوي للسكان بإيجاد نوع من الترابط والالفة.

بشكل مباشر بين مجتمع المدينة ككل .

مناقشة نظرية المجاورة السكنية :

والآن نعود لمناقشة شقي النظرية ومعرفة سلبياتها وايجابياتها فالشق الأول يمكن ان يحدد ايجابياته في ايجاد انماط تخطيطية للمدينة ومجتمعها بحيث نقسم المدينة لمجاورات سكنية بها خدماتها الاجتماعية والاقتصادية الضرورية وتصمم المجاورة بشكل يسمح بن تكون الحياة فيها آمنه للسكان

وتبعدهم كل البعد عن اخطار الطريق والمرور السريع وتقسم المدينة الي احياء يمثل، نمط تخطيط متعرف عليه لتوزيع سكان المدينة وتقسم مساحتها، وكان هذا الحال عاما وشاملا في كافة المدن العربية الاسلامية بل ووصل الامر الى شكل ديمقراطي اكثر مما عليه الحال في نظريات التخطيط الحديثة حيث كان لكل حي رئيس او شيخ يتولي تصريف اموره ومشاكله اليومية الداخلية، وهو يعتبر همزة الوصل مع الحكم، وما زالت بعض هذه المظاهر قائمة في مدينة اليوم حيث نجد شيخ الحارة مثلا. اذن فالشق المادي من نظرية المجاورة السكنية له اصوله وجذوره العربية الاسلامية ولم يأت بجديد كان غائبا عن واقع مدينتنا بالأمس.

واذا انتقلنا الآن الي الشق الثاني من نظرية المجاورة السكنية الذي يرتبط بالجانب الاجتماعي والمعنوي للسكان، نجد ان النظرية اهتمت بوسائل ابراز العلاقات الاجتماعية للسكان وايجاد ترابط والفة بينهم وعددت وسائل ذلك سواء في المحلات التجارية او المدارس او الملاعب والنوادي او صالات الالعاب .. الخ وبالنظرة الموضوعية الشاملة لذلك الشق نجد انه وان كان الهدف سليما ونبيلا في حد ذاته الا ان منهاجه غير موفق فهذا المنهج المتبع لأحياء الروابط الاجتماعية بين السكان يرتبط بالجانب المادي من الانسان دونا عن الجانب المعنوي والروحي، فهل المدرسة او المتجر او النادي او صالة الاجتماعات او صالة الالعاب توجد روح الأخوة والتعاطف وحسن الجوار بين الاخ واخيه ؟ وهل تدعو الى احترام وتقديس حرمات الغير وحماية ماله وعرضه ودمه؟ وهل تدعو الى المساواة بين كافة الناس، وتحدد لهم المقياس الابدي الذي لا يتغير ولا

يتبدل للمفاضلة بين البشر ؟ وهل تنمي بذرة المحبة والالفة بين الناس تضع لهم اللبنة الأولي لا يجاد تلك الالفة في كلمة " السلام عليكم" كان من الاولى بالنظرية وهي تهتم بإيجاد مشاعر الجيرة والعلاقات الاجتماعية بين مجموعة السكان دون ان تنظر الى الناحية الروحانية من الانسان وان يؤدي الدين دوره الاجتماعية ولكن للأسف طبقنا تلك النظرية كما هي مستوردة.

نحو صياغة اسلامية لنظرية المجاورة :

ويبرز الآن اهمية وضع صياغة اسلامية لنظرية المجاورة السكينة بجانبها المادي والاجتماعي والروحي. ولكي يتم وضع هذه الصياغة يجب ان يكون عندنا سند من القرآن وصحيح السنة، بحيث يتم وضع الصياغة الاسلامية على أساسهما.

فبالنسبة الى جانب الاجتماعي للنظرية نجد ان الدين الاسلامي دعا الى ترابط المجتمع، فيقول الله عز وجل" واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا.." (آل عمران /١٠٣) كما دعا الرسول صلي الله عليه وسلم الى التواد والتراحم بين المسلمين " مثل المؤمنين في تواردهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكي منه عضو تداعي له سائر الاعضاء بالسهر والحمي".

واذا مررنا بآيات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نجد انها تدعو الى مكارم الاخلاق، واحترام الغير وصيانة الحرمات، والبعد عن الغيبة

والنميمة والتواضع، والتعاون، والتكافل والصدق في المعاملة والكرم .. الخ وهو اساس على الاجتماع الاسلامي.

ولما كان الفرد هو اللبنة الاولي في بناء المجتمع الاسلامي فان رعايته تأخذ من الاسلام المقام الاول، فلا غرو ان يهتم الاسلام بالأسرة بمعزل عن المجتمع، ومن هنا كانت التوصية بالجار وفي ذلك يقول الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم " ما زال جبريل يوصيني بالجار حتي ظننت انه سيورثه" (البخاري) .

وبالنسبة للجانب المادي من المجاورة السكنية وهو المرتبط بنمط توزيع السكان والخدمات والتخطيط العمراني لها، فأننا يلزم اولا ان نحدد وحدة الجوار وابعادها ومركز خدماتها وكثافاتها .. الخ.

وذلك من منطلق اسلامي بحت ويمكن أن نستنبط وحدة الجوار الاسلامي من حيث الرسول صلي الله عليه وسلم الذي عرف حدود الجار حيث قال

" الاربعون دارا جار ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه " (الطبراني) وعندما سئل الرسول عن (في أي اتجاه) قال في كل اتجاه .. ومن هذا المنطلق نجد ان حدود الجوار في الاسلام تمثل ٤٠ دارا× ٤= ١٦٠ دارا ولو قدرنا ان عدد سكان الدار الواحدة يتراوح بين ٨ الى ١٠ افراد لحصلنا على حجم وحدة الجوار الاسلامية التي تتراوح بين ***١٢٨٠ الى***

١٧٠٠ نسمة. ومن هذا المنطلق يمكن ان نبدأ في تقدير خدمات المجاورة السكنية، ومساحتها وكثافتها السكانية.

ولتحديد نمط التخطيط ونواة مركز المجاورة السكنية فانه يتم تحليل الحال بالمدينة الاسلامية الاولي والذي نخلص منه الى ان المسجد كان هو النواه ... والمسجد هنا كان يقوم بوظائفه الدينية والصحية والثقافية والتعليمية والاجتماعية.

وبدمج نتائج دراسة الشق الاجتماعي والشق المادي للمجاورة السكنية من منطلق المفهوم الاسلامي يمكننا ان نصل الي الصياغة الاسلامية لنظرية المجاورة السكنية.

المدينة الإسلامية.. دراسة في المنظور الخلدوني

د. السعيد ريان

لقد خصص ابن خلدون الباب الرابع من المقدمة إلى درس أحوال «المدن والأمصار وسائر العمران» (١) ويدخل في الباب المذكور اثنان وعشرون فصلا.

وفي هذه الفصول يعمد ابن خلدون إلى دراسة الأمصار والمدن من جميع الجوانب والوجوه المتعددة والمتنوعة يظهر فيها شروط اختطاط المدن والأمصار وكيفية ازدهارها من ناحية وخرابها وانتفاضها من ناحية أخرى، وكذا علاقاتها بالقبائل ويستعرض خصائصها الاقتصادية والسياسية ولا يهمل أمر لغات أهلها أيضا.

يمكن تقسيم الشروط التي يضعها ابن خلدون في تحديد المجالات الحضرية الإسلامية إلى شرطين أساسيين.

– الشروط الطبيعية.

– الشروط السياسية.

فيما يخص الشروط الأولى يكتب ابن خلدون «أعلم ان المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة

والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك القرار والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها» (ص٣٤٧).

نستنتج من خلال هذه الفقرة أن ابن خلدون يقسم شروط بقاء المدن إلى قسمين: الشروط التي تضمن الحماية من المضار والشروط التي تكفل جلب المنافع.

بالنسبة للقسم الأول يحيله ابن خلدون إلى نوعين:

- تحصين المدن.
- الوقاية من الآفات.

وبهذا يرى ابن خلدون أنه لحماية المدن لا بد من مراعاة الأمور التالية:

«أن يدار على منازلها جميعا سياج من الأسوار وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة أما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر حتى لا يوصل إليها بعد العبور على جسر القنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها (ص ٤٣).

يلاحظ من خلال هذا النص أنه بالإضافة إلى شرط ويحافظ عليها من ضربات العدو، هناك شرط استراتيجي يتمثل في اختيار الموقع لأن هذا الاختيار يشكل عنصرا أساسيا لاستمرار الأمصار وبقائها.

أما الوقاية من الآفات، فلا تتم إلا إذا روعي طيب الهواء لسلامته من الأمراض «لأن الهواء إذا كان راكدا خبيثا أو مجاورا لمياه فاسدة أو قريبا من منافع متعفنة أو مروج خبيثة. أسرع إليها العفن وأسرع المرض للحيوان الكائن فيها كما تفشت الأمراض بين السكان» ويضيف «والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كانت كثيرة الأمراض».

يبين هذا النص أهمية العنصر الإيكولوجي في المنظور الخلدوني ذلك أن سلامة المدن وبقاءها واستمرارها مرتبط جدليا بسلامة البيئة ويدفع ابن خلدون بهذا الطرح الطبيعي إلى القول حول القسم الثاني المتعلق بجلب المنافع.

وأما جلب المنافع، والمرافق للبلد فيقتضي استكمال الوسائل اللازمة لضمان حاجة الناس من الماء والحطب والمزارع والمراعي.

ويضيف ابن خلدون في هذا المجال «يجب أن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون فإن وجود الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة»!!

ما نستنتجه من هذه الفقرات السابقة: أن المصر يجب ان يكون وسط مزروع خصب وأن يتوفر على الماء لأنه ضرورة استراتيجية للحفاظ على استقلالية المدن من جهة ولتوفيره للساكن بها. وفيما يخص علاقة المصر بمحيطه الريفي يكتب ابن خلدون «يجب أن يكون في جوار المدينة مراعي طيبة لسائمتهم إذ صاحب كل قرار من دواجن الحيوان للإنتاج والفرع والركوب لا بد لها من الرعي فإن كان قريبا طيبا كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة بعد».

أما الشروط التي يجب أن تتوفر في اختطاط المدن الساحلية فيحصيها ابن خلدون في العناصر التالية:

١) يجب أن تبنى المدن في جبل وعر المسالك.

٢) يجب أن تكون المدينة مجاورة القبائل تلبي نداءها إذا داهمها العدو.

يقول ابن خلدون في هذا المجال «يجب أن تكون في جبل وعر المسالك أو تكون مجاورة لقبائل قوية تستطيع أن تلبي صريخها وتساعدها على دفع العدوان الذي قد يأتيها من الخارج لأن أهل المدن يكونون عادة متعودين للدعة فيخرجون من حكم المقاتلة»

يتبين من خلال هذا النص أنه بالإضافة إلى عنصر الموقع الذي يشكل ضرورة استراتيجية للحفاظ على المدن هناك عنصر المجاورة لقبائل

قوية تساعد أهل الحضر في الدفاع عن أنفسهم وحمايتهم من الأخطار المحدقة بهم، ومن هنا تتضح العلاقة المتبادلة ما بين الحضريين والريفيين.

بعدما حددنا الشروط الطبيعية التي طرحها ابن خلدون في قيام الأمصار التي رأى ابن خلدون أن عدم مراعاتها أدى إلى خراب بعض الحواضر التي أنشأها العرب يقول «كما فعله العرب أول الإسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وإفريقيا. فإنهم لم يراعوا الماء والمزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة.. ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية».

ننتقل الآن إلى تحديد الشروط السياسية التي اعتبرها ابن خلدون أساسية وأولية في تشييد الأمصار ذلك أن بناء واختطاط المدن من مهام الدولة والملك يقول ابن خلدون «لا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك!". كما أن ابن خلدون يربط ازدهار المدن وخرابها بازدهار الدولة وانتفاضها وانحطاطها!! فعمران الدولة حينئذ عمر لها فإن كان عمر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت وإن كان أمد الدولة طويلا مدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وبتعدد نطاق الأسواق يتباعد ويفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح درع المساحة كما وقع في بغداد وأمثالها!! ويضيف ف «الدولة إذا اختلت وانتهت فإن المصر الذي يكون لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي انتفاضه إلى الخراب».

إذن فالنشاط الاقتصادي وتوسع العمران وازدهاره مرتبط جدليا بازدهار ودوام الدولة والملك فالسلطة السياسية هي التي تهب للوجود المدني الإسلامي كيانه ومعناه فغيابها يعني غيابه وازدهارها ورفاهيتها يعني ازدهاره ورفاهيته. وخلاصة لما سبق يمكن تجميع الشروط التي طرحها ابن خلدون في اختطاط وتشييد الأمصار في العناصر التالية:

- السلطة السياسية.
- الموقع الاستراتيجي.
- السور.
- المناخ.
- المصر كمركز مديني لمحيطها الريفي.
- النشاط الاقتصادي (تكاثر الأسواق).

يتضح من خلال ما سبق أن ابن خلدون يلتقي مع الماوردي في الشروط الطبيعية للمصر في الإسلام إلا أنهما يختلفان في المعنى السياسي للمدينة. فابن خلدون يرى أن الدولة والملك يهبان للوجود المديني الإسلامي وجوده ومعناه فالدولة هي أساس المصر وليس العكس. في حين نجد عدم الاهتمام بهذا المعنى من طرف الماوردي الذي يرى حين تقسيمه للأمصار أن دور السلطة السياسية دور أمني فقط. ولا يربط قيام الأمصار

بتواجد الدولة، عكس الحنفية التي تؤكد الماهية الدينية والسياسية للمجال الحضري الإسلامي.. يقول أبو يوسف «كل مصر فيه منبر وقاض ينفذ الأحكام ويقيم الحدود فهو مصر جامع يجب على أهله الجمعة»

وتختلف الرؤية الحنفية عن المنظورين السابقين في المعنى الذي يعطى للجانب السياسي؛ فإذا كان الماوردي يحصر دور السلطة السياسية في الأمن وابن خلدون يجعل منها أساس المدن والأمصار فباندثارها (الدولة) تندثر (المدن). وبهذا فإنه يلتقي مع المنظور الفلسفي الإسلامي خاصة عند الفارابي الذي يقول!!..

كذلك رئيس هذه المدينة وأجزاؤها (٢) فالمدرسة الحنفية ترى أن المعنى السياسي ليس تأسيسا في المصر، بمعنى أن الرئيس أو السلطات لا يهب الوجود المديني الإسلامي بمعناه كما عند الفارابي وابن خلدون، فالأصل عندهما ليس المصر أو السلطان بل الأمة أو جماعة المسلمين!! واجتماع الجماعة أو الأمة اجتماع سياسي بحد ذاته بغير ما حاجة إلى سلطة سياسية في القضايا التنظيمية الداخلية، وقضايا الجهاد!! (٣).

وبهذا تكون الرؤية الحنفية مرتبطة بالتجربة التاريخية الإسلامية مع المدينة، تلك التجربة التي بدأت بتحويل النبي ﷺ ليثرب إلى المدينة وفرض الهجرة إليها من البادية والريف (٤) ثم تمصير عمر بن الخطاب للتجمعات الحضرية المعروفة: المدينة، ومكة، والبحرين، ودمشق ومصر والبصرة والكوفة.

وفي الختام يمكن القول أن المنظورات الفقهية تبقى ضرورية لفحص مسألة التمدين الإسلامي عكس ما تدعيه بعض الكتابات الغربية (٥). الشريعة الإسلامية لم تميز ما بين هو حضري وما هو ريفي في أحكامها. وعدم وجود نظرية للمدينة في كتابات الفقهاء وقد حاول Ba- ber gohahsen في دراسة حديثة (٦) عن «المصر الجامع ومسجده الجامع» أن يفند الطروحات الغريبة بكشف أخطائها استنادا لكتابات الفقهاء الأحناف.

المراجع:

*أنظر مقالتي المدينة الإسلامية بين الموقفين: الأوروبي والإسلامي السنة ٣ العدد ٨١ العلم. ص٣

(١) اعتمد هنا على كتاب: أبو خلدون ساطع الحصري، «دراسات عن مقدمة ابن خلدون»، دار الكتاب العربي بيروت لبنان. الفصل الخاص بالمدن والأمصار.

(٢) رضوان السيد «المدينة والدولة في الإسلام، مجلة الاجتهاد العدد السابع، السنة الثانية ١٩٩٠، ص ٢٣٩.

(٣) رضوان السيد، مدينة الفقهاء ومدينة الفلاسفة، نفس المرجع، ص ١٣١

(٤) رضوان السيد: كتاب مفاهيم الجماعات في الإسلام ص ٤٢.

(5) William Marcais: I,islamisme et la vie Ur- baine. (Paris 1928)

(٦) بابريو هسن، «المصر الجامع ومسجد الجامع»، مجلة الاجتهاد العدد السابع، السنة الثانية ١٩٩٠، ص ص ٦٩ إلى ١٠١.

عواصم مصر الإسلامية

الفسطاط - العسكر - القطائع - القاهرة

د. عبد الرحمن زكي

اشتغل العرب قبل الإسلام بالتجارة بين الأقاليم المحيطة بشبه جزيرتهم، وكان العربي الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يكون وسيطًا بين الأقاليم لمعرفته طرق الصحراء ولمقدرة إبله على اختراقها لصبرها على الجوع والعطش، ولمَّا كان محتاجًا إلى محطات تستريح فيها القوافل التجارية ليتناول رجالها فيها ما يلزمهم من الماء والعتاد؛ فقد قامت مدن صغيرة نشأت حول عيون المياه مثل مكة ويثرب (المدينة) وهما على ما يظهر أقدم المدن العربية في شمالي شبه الجزيرة.

وبعد أن بزغ نجم الإسلام انتشرت الدعوة المحمدية، وتكوَّنت الدولة العربية، برزت ظاهرة إنشاء المدن أو تمصير الأمصار، وأهم ما كان يرمي إليه ولاة المسلمين في البلاد التي فتحوها تأسيس قاعدة لملكهم الجديد لتكون معسكرًا لجنودهم ولكي تضم بين جوانبها دواوين حكومتهم وفي قلبها مسجد يقيمون فيه شعائر دينهم، وعلى هذا النحو أنشئت البصرة (سنة ١٦ هـ) والكوفة (سنة ١٨ هـ) في العراق، والفسطاط في مصر (سنة ٢٠ هـ)، وسنرى هل مهر العرب في اختيار مواقع المدن الجديدة التي أسسوها، وإلى أي حد وصل نجاحهم في هذا المضمار.

ذلك هو النوع الأول من المدن الإسلامية الذي نشأ في عصر الحروب الإسلامية عندما قضت الحاجة إلى إنشاء مدن عسكرية يستقر فيها الجند المحاربون ولا يلبث أن يلحق بهم كثيرون من أفراد أسرهم، وبانتهاء عصر الفتح وإخلاد الخلفاء إلى الطمأنينة والاستقرار لم تتجاوز رغبتهم بناء قصر لهم ولحاشيتهم في مكان خاص سرعان ما تقوم حوله مدينة كما حدث في بغداد وسامرًّا والقاهرة.

ولقد انتقد ابن خلدون في مقدمته المشهورة مهندسي العرب الأوائل لأنهم لم يراعوا الشروط الأساسية التي يجب توافرها عند انتخاب موقع المدينة وتخطيطها، فذكر أنه يشترط في اختيار موقع المدينة أن تقع إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر حتى لا يوصل إليها إلّا بعد العبور، كما اشترط طيب الهواء للسلامة من الأمراض، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات، وضرب ابن خلدون مثلًا في سوء الإختيار لذلك مدن القيروان والكوفة والبصرة التي كانت أقرب إلى الخراب لأنها لم تراع فيها الأمور الطبيعية[1].

وإن كان ابن خلدون قد أصاب في بعض ملاحظاته فإن أقواله لا تنطبق على بعض المدن التي أسسها العرب في مصر كالفسطاط، وذلك إذا نظرنا إلى الأمور الجغرافية والسياسية التي أدت إلى تأسيسها لأن :

[1] – مقدمة ابن خلدون – الطبعة الثاثة بالمطبعة الأميرية عام ١٣٢٠ – ص ٣٢٩

١- رأس دلتا النيل موقع له من الوجهتين الحربية والإدارية ما يجعله في مأمن من هجمات العدو ويسهّل وصول المؤن والأقوات لقربها من الأراضي الزراعية، كما له من الوجهتين التجارية والصناعية مزايا ظاهرة كانت الباعث على إيجاد مدينة مهمة فيه منذ فكر مينا في نقل العاصمة من مصر العليا.

٢- من مزايا الموقع الذي شيدت فيه مدينة الفسطاط توفر الشرط الذي يجب أن يتوفر في بناء المدن وهو أن يكون لا جانب يمكن أن يطرد فيه اتساعها، وهذا الاتجاه بالقياس إلى الفسطاط هو الشمال، فلما أريد توسعتها بنيت العسكر فالقطائع، فالقاهرة، وفي العهد القريب بنيت العباسية ومصر الجديدة[١].

٣- الضفة الشرقية مجاورة للمقطم ومرتفعة ولا يغمرها النيل أثناء الفيضان، لذلك كان الامتداد على هذه الضفة ولم ينقل إلى الضفة الغربية إلَّا أخيرًا جدًّا.

من ذلك نرى أن عمرو بن العاص قد وفق في اختيار موقع العاصمة الأولى لمصر الإسلامية – الفسطاط – أكثر من توفيق زملائه القوّاد الآخرين في اختيار العواصم الأخرى التي أسسوها في العراق أو في شمال أفريقية كالبصرة والكوفة والقيروان.

---

١ – مذكرات للمرحوم حسن الهواري أحد أمناء دار الآثار العربية سابقًا، وكان قد قدمها لكتاب هذا المقال لما ألف كتاب القاهرة.

البصرة والكوفة

كانت البصرة من أقدم المدن التي بناها المسلمون، فقد مصرها عتبة بن غزوان عام ١٦هـ[١] في موقع تلتقي فيه الطرق الآتية من نجد والشام وهضبة إيران، وبذلك أصبحت مركزًا تجاريًّا عظيمًا، فبقيت مدينة معروفة إلى اليوم بينما اندثرت الكوفة لما زالت الأحوال السياسية التي قامت عليها، وقد اتخذها العرب الفاتحون في مكان لا يحول الماء بينه وبين مكة، وبنوها أولًا بالبوص ثم خافوا الحريق فبنوها باللبن، وقسموا المدينة إلى خطط بحسب القبائل وجعلوا عرض شارعها الرئيسي ستين ذراعًا، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعًا، وجعلوا عرض كل زقاق سبع أذرع ووسط كل خط رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم[٢] وقد بلغت مساحتها في إمارة خالد بن عبد الله القسري ٣٦ ميلًا مربعًا.

وبعد عام واحد أو بعد بضعة أشهر شيدت الكوفة بعد أن هزم سعد بن أبي وقاص الأمبراطورية الفارسية، وقد رأى أن يتخذ المدائن (قيطقون) عاصمة فارس قاعدة لجيشه ومركزًا لإدارة البلاد التي فتحها، فانتقل إليها واستوطنها، إلَّا أن هذا لم يعجب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأمر سعدًا بإنشاء مدينة أخرى للجيش العربي، اشترط في تأسيسها أن لا يفصلها عن دار الخلافة بالمدينة بحر أو جسر، فاختار سعد مكانًا على الجانب الغربي

[١] – ابن الفقيه ص ١٨٨.

[٢] – الماوردي ص ١٧١

من نهر الفرات وبنى معسكره من الغاب في أول الأمر وبنى مسجد الكوفة وبالقرب منه دارًا له، واختطت كل قبيلة خطتها وهكذا نشأت الكوفة.

الفسطاط

ولما فتح العرب مصر (سنة ١٨ هـ) كانت عاصمة البلاد – الإسكندرية – ففكر عمرو بن العاص في أن يتخذها قاعدة للإدارة والجيش، الّا أن عمر بن الخطاب لم يوافقه على ذلك بل أمره بإنشاء مدينة أخرى لا يفصله عن المسلمين فيها ماء في شتاء ولا في صيف.

وسواء أصحت أسطورة اليمامة[١] المشهورة التي أفرخت في مكان فسطاط عمرو، أم لم تصح فإنه بعودته من فتح الإسكندرية تحول إلى ذلك المكان الفسيح الذي يقع شمال حصن بابليون حيث عسكرت قوات العرب للمرة الأولى، وأمر بتأسيس الفسطاط ليجعلها قاعدة البلاد ودار الإمارة واختط عمرو الجامع العتيق، ثم اختطت القبائل العربية من حوله، وكان عمرو قد ولي على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل في تنظيم خطة كل منها، وهم: معاوية بن خديج التجيبي، وشريك بن سمي الغطيفي، وعمرو بن قحزم الخولاني، وجبريل بن ناشرة المعافري [٢] ويخالف بطلر Butler هذا الرأي فقد قال "والظاهر أن الذي قام بتنفيذ هذا الأمر إنما هم القبط لدرايتهم بفن العمارة التي كان يجهلها العرب [٣]، والواقع أن

---

١ – إن حادثة اليمامة قد تكون سببًا في التسمية، ولكن لا يصح قط أن تكون سببًا في اختيار

٢ – ابن دقماق – الانتصار = الجزء الأول ص ٣٢٢

٣ – بطلر – فتح العرب لمصر وترجمة محمَّد فريد أبو حديد – ٢٩٤

تخطيط الفسطاط في ذلك العهد لم يكن من التعقد بحيث يحتاج إلى معماريين مهرة من القبط.

وقد روى البلاذري أن الزبير هو الذي اختط الفسطاط واتخذ لنفسه دارًا وجعل فيها السلم الذي صعد عليه إلى سور حصن بابليون وبقي فيها ذلك السلم حتى احترق في حريق شاور، أما ياقوت فقد ذكر في معجم البلدان ما ذكرناه آنفًا منقولًا عن ابن دقماق.

ويصف ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر خطط الفسطاط الأولى ويبين كثيرًا من مواضع الدور والأمكنة التي بناها رؤساء الجند والزعماء، وقد أخذ المستشرقون مما كتبه وأخرجوا تخطيطات مهمة في غاية الدقة لطبوغرافية الفسطاط. وقد حدّد المقريزي موقع الفسطاط في خططه فقال:

"اعلم أن موقع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاءً ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقي الذي يُعرف بجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يُعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلّقة ينزل به شحنة الروم المتولي على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الإسكندرية ويقيم فيها ما يشاء ثم يعود إلى دار الإمارة".

وتاريخ إنشاء الفسطاط مختلف فيه فالبلاذري يقول أنه كان بعد فتح بابليون في حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الإسكندرية كما ذكرنا، ومن المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الإسكندرية وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة وعاصمة ذات شأن كبير ثم نمت نموًا

سريعًا بعد عام واحد من إنشائها، وقد قال أبو المحاسن أن "عمرًا بنى الفسطاط في سنة ٢١ هـ، بعد فتح الإسكندرية".

ومما زاد في مكانة الفسطاط أنه كانت تصل بابليون والبحر الأحمر عند القلزم (السويس) قناة قديمة اسمها أمينس تراجانوس (ترعة طرايانوس)، وكانت تمر بمدينة بلبيس وبحيرة التمساح لكنها أهملت في وقت ما فأعاد حفرها عمرو بن العاص وعادت لها أهميتها القديمة فكانت ترسل بواسطتها الغلال إلى بلاد العرب وسهلت بذلك المواصلات بين خليفة المؤمنين وواليه في مصر.

الجامع العتيق

وبانتهاء عمرو بن العاص من بناء عاصمته الجديدة أنشأ الجامع العتيق – أقدم المساجد في مصر وأول نواة للعمارة الإسلامية فيها – وقد اختار عمرو موضع بنائه في المكان الذي كان فيه لواؤه وقد عرف باسم مسجد أهل الراية، وهم نخبة من الجند الأنصار والمهاجرين كانوا يؤلفون نواة الجيش وتلتف حولهم كل قبيلة برايتها، وقد أورد ابن عبد الحكم في تاريخه خطبة عمرو التي قالها في يوم الجمعة وجاءَ فيها:

"حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لهم فيكم صهرًا وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فرجوكم وغضوا ابصاركم"، وحدثني عمر أمير

المؤمنين أنه سمع رسول الله (صلعم) يقول له أبو بكر: "ولم يا رسول الله؟" قال: "لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة..الخ".

ولقد مرت أدوار كثيرة على "تاج الجوامع" كما أطلق عليه، ووصفه الرحالة الأندلسي ابن سعيد الذي زار مصر في القرن الثالث عشر قال:

"ثم دخلت إليه فعاينت جامعًا كبيرًا قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه، وأبصرت العامة رجالًا ونساءً قد جعلوه معبرًا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والحلوى، والناس يأكلون منه في أمكنة عديدة غير محتشمين لجري العادة عندهم، والعنكبوت قد عظم نسجه في السقوف والأركان والحيطان والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة.."

ولما أقبل القرن الثامن عشر كتب الجبرتي في تاريخه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار":"وانتشر الموسيقيون في فنائه والقرداتية والراقصات فذهب بهاؤه القديم حتى هجره هؤلاء أيضًا ولولا إقدام مراد بك على إعادة تجديده لاندثر تاج الجوامع منذ قرنين".

وفي الجهة البحرية من الجامع بنى عمرو دارًا له وأخرى غربيها لابنه عبد الله عرفت بالدار الصغرى تمييزًا لها عن دار أبيه التي عرفت "بالدار الكبرى"، كذلك بنى الزبير بن العوام دارًا بجوار دار عبد الله [1]

[1] – مجلة الهندسة – العددان ١١،١٢ بتاريخ نوفمبر وديسمبر ١٩٣٣

ولما رسخت أقدام المسلمين في مصر اتسمت وزادت عمارة الفسطاط وفاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه [1]، وبلغ امتدادها على ضفة النيل ثلاثة أميال كما ذكر ابن حوقل [2]، وقال القضاعي عن مقدار عماراتها أنه كان في الفسطاط ٣٦٠٠٠ مسجدًا و ٨٠٠٠ شارعا مسلوكا و ١١٧٠٠ حماما، ونحن نقول وإن كان في هذا التقدير مبالغة ظاهرة فلا شك أن الفسطاط بلغت درجة كبيرة من العمران، وارتقت الفسطاط في عهد خلفاء بني أمية وصارت مقرًّا لولاتهم، وفيها شيَّد عبد العزيز بن مروان أمير مصر – من قبل أخيه الخليفة عبد الملك – دارًا للإمارة عُرفت بدار عبد العزيز كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعمائة راوية ماء كل يوم، وقد علت هذه الدار قبة مذهبة شأن الأمويين في تفخيم بناياتهم حتى تبز المباني البيزنطية التي خلَّفها الروم وراءهم في الأقطار التي انتزعها العرب منهم.

ولعل دار الإمارة هذه كانت أول بناية إسلامية كبيرة بمصر وصل إلينا نبأ زخرفتها، وقد مرت على الفسطاط بعد ذلك أدوار متعددة: "فكانت في زمن من الأزمان نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على

---

[1] – تاريخ التمدن الإسلامي – جورجي زيدان – الجزء الثاني ص ١٧٤

[2] – ابن حوقل رحالة بغدادي زار الفسطاط في النصف الأخير في القرن الرابع الهجري (أواخر القرن العاشر الميلادي – المسالك والممالك)

غاية العمارة والطيبة واللذة ذات رحاب في محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنتزهات خضرة"[1].

ولما زار الفسطاط ابن سعيد كانت قد تغيَّرت أحوالها وانقلبت محاسنها إلى أضدادها فقال في وصفه:"ولما أقبلت الفسطاط أدبرت عني المسرة وتأملت أسوارًا مثلمة سوداء وآفاقًا مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق مفض إلى خراب معمور بمبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الطريف"[2]

ومنذ تأسست الفسطاط إلى أن بنى العسكر وليها تسعة وعشرون أميرًا مدة مائة وثلاثة عشر عامًا وسبعة أشهر أولها يوم الجمعة مستهل محرّم سنة عشرين من الهجرة لما وليها القائد عمرو، وكان آخر أمرائها صالح بن علي بن عبد الله من قبل أمير المؤمنين أبي العباس بن مُحَمَّد السفاح، ومن بعده سكن أمراء مصر العسكر، وكان أولهم أبو عون عبد الملك.

خاتم الفسطاط

كان قد وقع للفسطاط أثناء حياتها انقلابان عظيمان هما قيام "العسكر" ثم "القطائع" فإن الدور النهائي للفسطاط جاء عقب ذلك في

---

[1] – ابن حوقل – المسالك والممالك

[2] – ابن سعيد – الاغتباط في حلى مدينة الفسطاط

مناسبتين كانت الأولى في أيام الشدة العظمى اثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمي، وكانت الثانية حريق مصر في وزارة شاور أثناء خلافة العاضد، أما المناسبة الأولى فكانت لما تمرد الجند وساد الاضطراب وحلت بالبلاد المسبغة والمجاعة ولجأ المستنصر بالله إلى حاكم الشام بدر الجمالي، فكتب إليه سرًّا يستقدمه إلى مصر لتحسين الأحوال، فلما قدم بدر اهتم بتحسين القاهرة وعمل بدر على تخريب الفسطاط، فقد أباح للجند وللقادرين على البناء أن يعمروا ما شاءوا في القاهرة وغيرها، فعمرت وسكنها الناس ولم يبقوا شيئًا في الفسطاط أو العسكر أو القطائع وتركوا موقعها موحشَا مقفرًا.

أما المناسبة الثانية فهي حريق الفسطاط الهائل، الذي أمر بإضرامه شاور سنة (٥٦٥هـ) لما غزا ملك بيت المقدس عموري (أملريك) الديار المصرية عندما عجز عن الدفاع عنها وأراد أن يتجنب وقوعها في أيدي الصليبيين.

أمر شاور بإخلاء الفسطاط وحرقها ويقول المقريزي "بعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرقت فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظرًا مهولًا، واستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يومًا، ومن ثم تحولت الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان

مصر" فلما حدث الحريق رحل عموري من بركة الحبش [1] ونزل بظاهر القاهرة مما يلي باب البرقية وقاتل أهلها قتالًا عنيفًا"

ولما جاء صلاح الدين الأيوبي لمصر أراد أن يجمع بين القاهرة وما بقي من الفسطاط بسور واحد، فانتقلت الحركة التجارية إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو السفن وتكثر المخازن والمصانع، وقد قال ابن سعيد إذ ذاك: "وقد نفخ روح الاعتناء والنمو في مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة"

ولقد ترك لنا ابن دقماق والمقريزي والقلقشندي عن مدينة الفسطاط في القرن التاسع الهجري معلومات دقيقة تتفق في أن تدهور المدينة كان يزداد قرنًا بعد قرن، وفي العبارة الآتية لخّص القلقشندي المحن التي نزلت بالفسطاط فقال:"ولم يزل الفسطاط زاهي البنيان نامي السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية وعمرت القاهرة فتقهقر حاله وتناقص، وأخذ سكانه في الانتقال إلى القاهرة وما حولها فخلا من أكثر سكانه، وتتابع الخراب في بنيانه إلى أن بلغ الفرنج على أطراف الديار المصرية في أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين".

وقال القلقشندي في مكان آخر:"وبعد حريق شاور تزايد الخراب فيه وكثر الخلو ولم يزل الأمر على ذلك في تقهقر أمره إلى أن كانت دولة

[1] – هذه البركة كانت واقعة جنوب مدينة مصر فيما بين النيل والجبل، وكانت تطلق على حوض من الأراضي الزراعية التي يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنويًا، وكانت تشغل من الأرض مساحة قدرها ١٥٠٠ فدانا – تعليق محمد بك رمزي – النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٨١،٣٨٢.

الظاهر بيبرس فصرف الناس همتهم إلى هدم ما خلا من أخطاطه وعفا رسمها واضمحل ما بقي منها وتغيرت معالمه"

وعلى هذه الحال تحولت الميناء النهرية والعاصمة الإسلامية الأولى إلى كيمان من التراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله للفسطاط العالم الأثري الجليل المرحوم علي بك بهجت؛ فكشف فيما بين عامي ١٩١٢و١٩١٣ أجزاء كبيرة من تلك المدينة البائدة التي لم يتخلف من بقاياها إلَّا جامع عمرو وأبراج قصر الشمع، ولا تزال دار الآثار العربية تزاول أعمال الحفر في تلك الأطلال تنقيبًا عن آثار العصر الإسلامي.

العسكر(١)

وبينما كانت الفسطاط عاصمة مصر الإسلامية (١٣٣هـ – ٧٥٠م) فرَّ مروان بن مُحَمَّد آخر خلفاء الأمويين إلى مصر لينجو بنفسه أمام منازعه أبو العباس الهاشمي أول خلفاء العباسيين فلما وصل إلى مصر أشعل رجاله النار في الفسطاط وفي القنطرة التي تصلها بجزيرة الروضة، واتجه إلى شاطئ

١ – في الأصل المعسكر كما جاء في فتوح مصر لابن عبد الحكم، وكان يمتد العسكر على شاطئ النيل وهو وقتئذ أقرب إلى الشرق من موضعه الحالي لأنه كان يجري بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ثم ابتعد عنه على توالي الزمن نحو خمسمائة مترا، وكان العسكر يحده جنوبًا كوم الجارح حيث تمتد الآن قناطر العيون (المجرى) وشمالاً شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزيني وغربًا بين شارعي السد والدبورة وشرقًا خط تصوري يمتد من مسطبة فرعون بجوار مسجد الجاولي بشارع مراسينا إلى السيدة نفيسة المعروف قديمًا بباب المقدم، وعلى عهد المقريزي لم يبق للعسكر ذكر بل كان اسم القطائع هو المعروف – من تعليقات مُحَمَّد بك رمزي.

النيل الغربي، لكن ذهبت تدابيره عبثًا لأن القائد العباسي ورجال خوراسان وقفوا على وسائل عبوره وأدركوه بسرعة في قرية بوصير وقتلوه[١] ثم حملوا رأسه وطافوا في المدن ليتأكد الناس أن الخلافة قد انتقلت من البيت الأموي إلى البيت العباسي.

وكأن رجال العباسيين لم يرضوا أن يسكنوا بيوت الفسطاط إما لرغبة في التجديد واتخاذ عاصمة جديدة كما جرت العادة في الشرق منذ قديم الزمان، وإما لأن مروان بن مُحَّد كان قبل قتله قد أضرم نارًا في الفسطاط دمرت جزءًا كبيرًا منها فأنشأوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم الناشئة في مصر في مكان عُرف في صدر الإسلام باسم "الحمراء القصوى" ويمتد إلى جبل يشكر الذي بنى ابن طولون على قمته مسجده الجامع [٢].

في ذلك المكان أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم، وبنى صالح بن علي دار الإمارة وثكنات الجند، ثم شيَّد الفضل بن صالح مسجد العسكر، وبمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة خطت فيها الشوارع وشيدت المساجد والدور والبساتين والأسواق، وفي القطائع بنى فيما بعد الأمير أحمد بن طولون بيمارستانه بالقرب من بركة قارون التي رُدمت وشَيَّد عليها كافور الأخشيدي دارًا صرف عليها مائة ألف دينارا ليسكنها.

---

١ – راجع Quatremere, Mem. Sur l'Egypte. II. P. 452. Ravaisse, Essai I.P.419.; Lane – Poole. History of Egypt P. 31-36 – Cairo 32 – 33.

٢ – Dr. Zaki Moh. Hassan Les Tulunides. P. 48

وازدهرت العسكر لكثرة ما شُيِّد فيه من الأحياء العامرة، وقد سكنها الخمسة والستون واليًا الذين حكموا مصر نائبين عن الخلفاء العباسيين مدة ١١٨ سنة، وصار حيًّا زاهرًا لم يقلل من شأن الفسطاط كمركز مهم للتجارة أو كعاصمة ثانية لمصر.

وبتوالي السنين عظمت العمارة في العسكر إلى أن قدم أحمد بن طولون من العراق إلى مصر فنزل بدار الإمارة في العسكر، وكان لها باب إلى جامع العسكر ينزلها الأمراء منذ بناها صالح بن علي وما زال بها حتى شيّد ابن طولون قصره بالقطائع وترك العسكر.

واليوم ليس هناك أثر لهذه الضاحية، كما أن المؤرخين لم يحتفظوا بتاريخ وافٍ لحكامها فقد ساد عصرهم نوع من سوء الإدارة وفساد الحكم، ولقوا صعابًا كثيرة عرقلت أعمالهم أشد مما عاناه ولاة بني أمية في مصر، وكان لزامًا عليهم أن يخمدوا الفتن التي أثارها الخارجون عن الإسلام أصحاب بعض المذاهب، أو يقاوموا الثورات التي شبّت بين القبائل العربية أو سكان البلاد الأصليين من الأقباط.

وقد ظل أمراء مصر يقيمون في دار الإمارة في المعسكر حتى بنى جوهر قائد جيوش المعز مدينة القاهرة، وتخربت العسكر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر الشدة العظمى كما ذكرنا لما تكلمنا عن خراب الفسطاط.

ولسنا نظن أننا في حاجة إلى أن نصف تلك الفترة من حكم العرب في الفسطاط أو العسكر فإن ولاة العسكر لم يتركوا أثرًا لهم نستدل منه على أعمال الإصلاح التي قاموا بها وليس أمامنا اليوم نموذج واحد من مبانيهم يرشدنا إلى طرازهم العماري، لكننا نقول أن العسكر عمّرت كقاعدة رسمية لمصر الإسلامية أكثر من قرن (١٣٣ – ٣٥٦هـ)، وتناول المقريزي وصف ما آلت إليه العسكر وذكر بإسهاب ما كان فيها من الدور والبساتين والمساجد والأسواق والحمامات... إلخ.

وبادوا فلا مخبر عنهم	وماتوا جميعًا وهذا الخبر
ومن كان ذا عبرة فليكن	فطينًا ففي من مضى معتبر
وكان لهم أثر صالح	فأين هم ثم أين الأثر

القطائع

فإذا انتقلنا إلى العصر الذي زاد فيه نفوذ الجند الأتراك في خدمة البلاط العباسي رأينا مقاليد الأمور أصبحت في أيديهم وأنهم استولوا على أكبر مناصب الدولة وصار منهم أكثر الولاة والعمال وقدم إلى وادي النيل والٍ تركي الأصل سنة ٨٤٦ ميلادية ثم بدأ الخلفاء في إقطاع مصر أولياء عهودهم أو كبار القواد من الترك وكان هؤلاء القواد لا يميلون إلى الابتعاد عن العاصمة العباسية خشية الدسائس فكانوا يرسلون إلى مصر عمالًا من قبلهم.

كانت مصر من نصيب أحد كبار الأتراك واسمه "باكباك" ولّاه الخليفة المعتز بن المتوكل، ونظرًا لما كان الشاب أحمد بن طولون من المكانة الطيبة انتخبهُ "باكباك" ليكون قائدًا للحامية العسكرية في الفسطاط، وكانت نفسيته تطمح إلى المجد فلم يمض على ولايته في مصر عامان حتى استقل بملكها.

رأى ابن طولون أن العسكر أصبحت لا تسع حاشيته وتضيق بمطامعه فأخذ يبحث عن موقع آخر قريب من الفسطاط، فصعد إلى المقطم ونظر إلى ما حوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الأرض مساحتها نحو ميل مربع لا شيء فيه من العمارة إلّا بعض مدافن المسيحيين واليهود فأمر بهدمها ليقيم عليها عاصمته واختط في موضعها مدينته الجديدة "القطائع" ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الجديدة في شعبان عام ٢٥٦هـ (٨٧٠م).

ويمكن القول بأن حدود العاصمة الجديدة كانت تمتد بين حد الفسطاط الشمالي حيث جبل يشكر وبين سفح المقطم في مكان عرف وقتئذ بقبة الهواء، وفيما بين الرميلة تحت القلعة إلى مشهد الرأس الذي عُرف فيما بعد بمشهد زين العابدين.

واختط الأمير ابن طولون قصره وأمر اصحابه ورجاله وأتباعه بأن يشيدوا بيوتهم فاتصل البناء بعمارة الفسطاط، واقتطعت كل جماعة من الأتباع والجنود منطقة خاصة سميت كل قطعة بمن سكنها، ثم عمّرت

القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة، وبنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران...الخ.

ولما كثر أتباع ابن طولون حتى ضاق بهم جامع العسكر التمسوا أن يشيّد لهم جامعا آخر أوسع من الجامع الأول فأجابهم إلى التماسهم، واحتفل بوضع أساسه على جبل يشكر عام (٢٦٣هـ – ٨٧٦م) وانتهى تشييده بعد عامين، وقد غالى في زخرفته الداخلية وعلّق في سقفه القناديل بسلاسل نحاسية طويلة ونقش على أفاريزه آيات من القرآن لا يزال بعضها ظاهرًا إلى اليوم... وهذا الجامع هو الأثر الوحيد الذي خلّد اسم ابن طولون على مر العصور حتى اليوم، وهو طليعة أجمل الآثار في مصر ويعتبر علمًا ظاهرًا في تاريخ العمارة الإسلامية.

وتولى "خمارويه" بعد وفاة أبيه؛ فنقل قاعدة حكمه إلى القطائع وأقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه كثيرًا وأخذ الميدان المجاور للجامع وحوّله إلى بستان فتان وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، وكسا أجسام النخل نحاسًا مذهبًا أو مفضضًا، وأنشأ في وسط قصره بركة ملأها بالزئبق وجعل في أركان البركة سككًا من فضة وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من فضة، وعمل فرشًا من آدم يمشي بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذٍ شده ويلقي على تلك البركة الزئبق ويشد بالزنانير التي في حلق الفضة المقدم ذكرها، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش، فلا يزال يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه بينما يحرسه أسده أزرق العينين.

وبوفاة خمارويه هوى نجم الأسرة الطولونية وأخذت في الانحلال، أقبل مُحَمَّد بن سليمان القائد العباسي للاستيلاء على البلاد، فبلغ الحدود المصرية وهزم الأسطول المصري ثم انقضّ على القطائع (٢٩٢هـ – ٩٠٤م) وألقى النار فيها فالتهمت الدور والمساجد والحمَّامات، ونهب أصحابه الفسطاط ودمرت الضاحية الجميلة، ثم عادت الفسطاط مرة ثانية مقرًّا للحكومة، ولما أصيبت مصر بالمجاعة في أيام المستنصر قضت على البقية الباقية من مخلفاتها الخربة وأصبحت القطائع أثرًا بعد عين ولم يبق منها فيها غير الجامع.

كانت القطائع أول مدينة ملوكية بمعنى الكلمة أنشئت في وادي النيل في العهد الإسلامي، روعي في إنشائها وتخطيطها وتطورها القواعد الفنية التي اتبعت عند تأسيس مدينة سامرا، فإن كان الخليفة المعتصم قد أمر قائده أشناس ببناء سامرا عام ٨٣٦م بعد قدومه من بلاد الجزيرة رأى أن يتلافى نفس الخطر، فاستدرك الأمر وأنشأ تلك الضاحية ليبتعد عن الفسطاط وجعلها عاصمة لملكه الساطع واتخذها بعده خلفاؤه من أسرته.

كانت أوجه الشبه متقاربة جدًّا بين مدينة ابن طولون وبين سامرا، فقد كانت كل منهما مقسمة إلى خطط أو قطائع تضم كل قطيعة منها السكان الذين تجمعهم رابطة جنسية أو رابطة العمل، وأصبح اسم القطائع علمًا على مدينة ابن طولون، وقد كان هذا الاسم يطلق في سامرا على كل أحياء المدينة إلّا القصور الملكية[1] وأمامه ميدان للعب الكرة وحدائق غناء

[1] – الدكتور زكي مُحَمَّد حسن : الفن الإسلامي في مصر جـ ١ ص ٥٧و٥٨

وطرق متقاطعة، وطراز العمارة والزخرفة الذي اتبع في إنشاء الدور الخاصة والعامة في سامرا كان قد انتقل مع ابن طولون إلى مصر قبل أن يكون قد مضى على إنشاء سامرا نفسها أكثر من أربع وثلاثين سنة، ومما يؤيد ذلك تأييدًا ماديًا الزخارف الجصية التي عُثر عليها في جدران دار طولونية كشفتها دار الآثار العربية عام **١٩٣٢** [١].

والأثر الوحيد الذي خلَّفته القطائع وهو – الجامع الطولوني – يثبت لنا بجلاء أثر فنون سامرّا على تلك الضاحية المصرية التي لم تعمر وتزهر طويلًا.

القاهرة

والآن ننتقل إلى العاصمة الرابعة لمصر الإسلامية فنرى أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بعد أن نجح في تأسيس دولته الأفريقية وأوصل حدودها إلى ساحل المحيط الأطلنطي عزم على فتح مصر، وكان جده وأبوه قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا، فلما تولى الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما.

كانت مصر في ذلك الوقت عرضة للغزاة الفاتحين، فقد سادتها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التي سببها انخفاض النيل والطاعون، وكان

---

[١] – راجع الفصل الخاص بالفن الطولوني من كتاب الدكتور زكي محمد حسن:
Les Tulunides, Paris, 1933

المعز يعلم حالة البلاد بعد أن اتصل بهِ "يعقوب بن كلّس" اليهودي الذي هاجر من مصر، وكان مقربًا من كافور الأخشيدي. طلب إلى جوهر القائد أن يضع الخطط العسكرية ويجهز حملته المصرية فحشد مائة ألف رجل مجهزين بالمعدات الكافية وأرسل معهم المؤونة وآلات القتال وكل ما يحتاجه هذا الجيش الجرار(١).

وبدأت الحملة تحركها من القيروان في ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ (٥ فبراير ٩٦٩م) فوصل جوهر إلى الإسكندرية واستولى عليها بسهولة ثم واصل زحفه إلى الجيزة فوقعت في يده في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ (٦ يوليو ٩٦٩م) وعبر النيل من منية الشلقان وسحق الجيوش التي أعدت للدفاع على الشاطئ الشرقي للنيل.

وعقب ذلك دخلت القوات الفاطمية بقيادة جوهر مدينة الفسطاط عند مغيب الشمس، وعسكرت في السهل الرملي الواقع إلى الشمال، وكان يحد هذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج (٢) الذي يصل بين شمالي الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة وينتهي عند القلزم على البحر الأحمر، وكان السهل المذكور خاليًا من البناء إلّا بضعة مبان

---

[1] راجع للاستيفاء – Capt. K. A. C. Creswell, the Foundation of Cairo. Bulletin The Faculty of Arts Vol I. Part II. 1933 وترجمة السيد مُحَمَّد رجب بمجلة المقتطف.

[٢] – يسير ترام الخليج الآن من مسجد السيدة زينب إلى الظاهر في نفس المكان الذي كان يخترقه الخليج وقد ردم الخليج المذكور في أواخر القرن التاسع عشر، ويسمى هذا الشارع الآن شارع الخليج المصري.

تتعلق ببساتين كافور وديرًا مسيحيًا اسمه دير العظام، وكان يشغل مكان مسجد الأقمر وحصنًا صغيرًا يسمى قصر الشوك [1] .

تأسيس القاهرة

وفي مساء ذلك اليوم [2] اختط جوهر موقع القصر الذي قرر فيه المعز تنفيذًا لأوامر سيده وحينما أتى أعيان الفسطاط في الصباح التالي لتهنئته وجدوا أن أسس البناء الجديد كانت قد حفرت، وبنى جوهر سورًا خارجيًا من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة، وكانت مساحة الأرض التي حدّدها هذا المربع ٣٤٠ فدانًا منها نحو سبعين فدانًا بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فدانًا للبستان الكافوري ومثلها للميادين، والباقي وقدره مائتا فدان هو الذي توزع على الفرق العسكرية في نحو عشرين خطة بجانبي قصبة القاهرة [3].

---

[1] راجع للاستيفاء: – Ravaisse, Essai sur l'histoire et sur La Topographie du Caire
M. M. A. F.C. pp. 415 – 419.

[2] – نقل بعض المؤرخين كما ذكر المقريزي أن إنشاء القاهرة كان في ٦ جمادي الأولى سنة ٣٥٩ في نفس اليوم الذي اختط فيه جوهر الجامع الأزهر، ولكن معظم المؤرخين وفي مقدمتهم المقريزي نفسه يذكر التاريخ الذي شق فيه الفسطاط (١٧ شعبان ٣٥٧هـ) ووضع فيه أساس القصر الكبير، ويرى القارئ أن ما اتفق عليه المؤرخون في هذا الشأن بعيد الاحتمال فليس من المعقول أن يبدأ جوهر بناء القصر ليلة وصوله وليس من المعقول أن يجد اللبن الذي بنى به السور معدًا لاستخدامه.

[3] – الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك. جـ ٢ . ص ٨١

ولما كان جوهر قد أسرع في حفر أساس القصر بالليل فكانت فيه انحناءات غير معتدلة، فلما شاهدها في الصباح لم يعجبهُ، لكنه قال "قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة" وتركه على حاله، وفي اليوم الذي خط فيه جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التي تألف منها جيشه خطة فاتخذت زويلة الخطة المعروفة إلى اليوم، واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية، واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر [١]

وكان قصد جوهر من إنشاء القاهرة أن تكون معقلًا حصينًا لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاتلهم من دونها، فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعًا وقصرًا واحتفر خندقًا من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام جيش القرامطة إلى القاهرة ومصر من ورائها [٢]

أما القصر الذي بناه جوهر فقد أوضح ابن دقماق الغرض الذي رمى إليه جوهر فقال أنه بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه بمعزل عن عامة الشعب. ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية في أكثر أجزائه بكثير من الدقة بفضل المعلومات التي أمدنا بها المقريزي ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية فليس لدينا أي بيانات عنه [٣]، وقد

---

[١] – الخطط المقريزية – طبعة النيل – جـ ٢ ص ١٧٩

[٢] – الخطط المقريزية – طبعة النيل – جـ ٢ ص ١٧٩

[٣] – راجع K. A. C. Creswell – The Foundation of Cairo. P. 269

كانت القاهرة تُحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الممتد أمامه، ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالي المواجه للفسطاط، ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المواجهين للمقطم، ومن الجهة الغربية بموقع باب سعاده المطل أو المحاذي لخليج أمير المؤمنين بعيدًا عنه بنحو ثلاثين مترًا.

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور سمى المدينة في أول الأمر المنصورية تيمنًا باسم مدينة المنصورية التي أنشأها خارج القيروان المنصور بالله والد المعز، واستمر هذا الاسم حتى قدم المعز إلى مصر فأطلق عليها القاهرة [١] وذلك بعد مرور أربع سنوات على تأسيسها[٢]

ومن الواضح كما أشارت رايتماير Reitemeyer [٣] أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بأن ينشئ مدينة

---

١ – اتعاظ الحنفاء بأخبار بلاط الخلفاء للمقريزي – بيت المقدس – سنة ١٩٠٨

٢ – وقيل في سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين، وعرّفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقيم فيها الجند، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين جعل فيه أجراسًا، وقالوا للعمال إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة، فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق أن غرابًا وقع على حبل من الحبال التي فيها الأجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا، فصاح المنجمون القاهر في الطالع فمضى ذلك، وفاتهم ما قصدوه، وقيل ان المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة – الخطط المقريزية – جـ ٢ ص ٢٠٤

٣ – Reitemeyer, Beschreibung Agyptens in Mittelalter 185 – 193.

تكون للفسطاط بمثابة المنصورية للقيروان أو بمثابة فرساي لباريس أو وندسور للندن، ويلاحظ لهذه المناسبة ما ذكره البكري من أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدهما باب زويلة والثاني باب الفتوح، وقد أطلق هذان الاسمان على بابين من أبواب سور القاهرة المصرية.

وصول المعز

وفي يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢هـ (٩٧٣م) لما دخل المعز القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل الفسطاط فلم يشقها وكانت قد زينت ابتهاجًا لمقدمهِ، ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معه في توابيت، وفي آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه وخطب خطبة العيد.

وذكر ابن عبد الظاهر أن المعز بعد دخوله القاهرة عتب على جوهر لأنه لم يؤسس المدينة الجديدة في مكان المقس بالقرب من باب البحر أو جنوبي الفسطاط لتكون قريبة من شاطئ النيل، وقد أورد المقريزي [1] هذا العتاب بقوله: "ياجوهر فاتك عمارتها هنا" مريدًا المقس [2] فكأن القاهرة

---

[1] – اتعاظ الحنفاء بأخبار بلاط الخلفاء للمقريزي ص ٧٤

[2] – كان المقس (المقسم) ضيعة تعرف بأم دنين واقعة على ساحل النيل، وقد جعلها المعز مرفأً صناعيًا وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس، وكانت تسمى المكس لإقامة صاحب المكس والمشار فيها ثم قلبت فقيل المقس، وفي عهد دولة المماليك أصبح خط المقس يطلق على المنطقة الكبيرة التي تحد اليوم من الغرب بميدان باب الحديد وشارع الملكة نازلي وشارع عماد الدين، ومن الجنوب بشارع قنطرة الدكة ومن الشرق بشارع الخليج المصري ومن الشمال بشارع الطواشي والشمبكي، تعليق محمد بك رمزي – النجوم الزاهرة – جـ ٤ – ص ٥٣،٥٤.

المدينة المحصنة لم يقصد جوهر من إنشائها في بادئ الأمر ان تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك بل وضعها لتكون سكنًا للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلتجأ إليه [1] فنشأت القاهرة مدينة متواضعة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حينًا بعد قيامها مدينة ملوكية عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح، ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المعز وأسرته من المغرب واتخذ مصر موطنًا له (٣٦٢ هـ)

ولم يكن لقاطني مصر أن يدخلوا "المدينة الملوكية" إلَّا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة، وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجند على الطريقة البيزنطية، وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه.

ولكن بمرور بضعة أعوام اتسعت المدينة الناشئة ونمت نموًا محسوسًا وبدأت القاهرة حياتها في ظل الخلفاء الفاطميين، وتبوأت مكانتها العظيمة ذات الرونق والبهاء ثم اتصلت بمصر الفسطاط وصارتا كما سنرى تؤلفان معًا إحدى مدن الإسلام العظيمة في العصور الوسطى.

---

[1] – الخطط المقريزية – طبعة النيل – جـ ٢ – ص ١٨٤

أسوار القاهرة

ولنتكلم الآن عن أسوار القاهرة الأولى فقد بنيت من اللبن الكبير، وكان طول اللبنة الواحدة قدمين وعرضها خمس عشرة بوصة، وكان سمك جدران السور يسمح لفارسين بالمرور عليها معًا، وقد ذكر المقريزي أنه لم يبق من آثار هذا السور شيء في عام ١٤٠٠م، وذكر أيضًا أنه شاهد جزءًا طويلًا من السور الذي شيده جوهر قائمًا على بعد خمسين ذراعًا من السور الحالي (وهو من أعمال صلاح الدين) في المنطقة الواقعة بين باب البرقية ودرب بطوطة حتى دمرت عام (١٤٠٠ – ١٤٠١م)، ومن السهل أن نعرف امتداد المدينة التي شيدها جوهر القائد إذا تصوَّرنا نقطتين مهمتين، وهما أن باب الفتوح الحالي ومعه جامع الحاكم وباب زويلة ومعه جامع المؤيد يقعون خارج المربع الأصلي للقاهرة الأولى بمسافة قليلة، وكان عرضها ممتدًا من باب الغريّب خلف الجامع الأزهر من ناحية الشرق إلى الخليج من ناحية الغرب بالقرب من حي بين السورين (الموسكي)[1]

نرى أن موقع القاهرة قد اختير لغرض عاجل هو ستر الأماكن القريبة من المدينة الثلاثية: (الفسطاط والعسكر والقطائع) ووقايتها وحمايتها من غارات القرامطة الذين كانوا يهددون مصر؛ فتنفيذًا للخطة الدفاعية التي كلّف جوهر القيام بها أمر بحفر خندق كبير عمقه واتساعه عشرة أذرع، وقد حفظ لنا التاريخ خبر غارتين للقرامطة إحداهما في ربيع

١ – K. A. C. Creswell : The Foundation of Cairo

الأول ٣٦١ هـ والثانية في ٣٦٣ هـ، واستطاع القرامطة عبور الخندق في الغارة الثانية لكنهم لم يستولوا على القاهرة.

وبنى السور الثاني للقاهرة الوزير أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ٤٨٠ هـ خارج سور جوهر لا على أساسه، وكان مثله في أن مادة بنائه كانت من اللبن للجدران ومن حجر منحوت للأبواب والأبراج [١].

أما السور الثالث فقد ابتدأ في عمارته صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٦ هـ، وقد كان حينذاك وزيرًا للعاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين بمصر، فلما استولى على الملك عام ٥٦٩ هـ وصار سلطانًا ندب للعمل في السور الطواشي بهاء الدين قره قوش الأسدي، فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن، وبدلًا من أن يحيط به القاهرة وحدها قرر أن يطوِّق به قلعة الجبل والقاهرة والفسطاط [٢] ولكنه توفي قبل أن يتم ذلك.

أبواب القاهرة

وكان للقاهرة ثمانية أبواب لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان، ففي الجنوب باب زويلة، كان في الأصل بابين بنتهما قبيلة زويلة من قبائل البربر، كانا عند مسجد ابن البناء وعند الحجازين [٣]

---

[١] – محمود أحمد – مجلة الهندسة – أكتوبر ١٩٣٤ – الأعداد ٨ و ٩ و ١٠

[٢] – محمود أحمد – المصدر السابق.

[٣] – مسجد ابن البناء هو الذي يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل العقادين بشارع المناخلية وتسميها العامة زاوية سام بن نوح، وقد بني المسجد المذكور الحاكم بأمر الله ومات ابن

باب الفرج:

يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت في حارة الجداوي من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فحمام المؤيد فانثناء صغير به ضريح لمن يدعى "سيدي فرج" وهو ليس سوى باب الفرج، وفي الجهة البحرية التي يسلك منها إلى عين شمس.

باب النصر:

وموضعه الأول بالرحبة التي أمام جامع الحاكم قرب المكان الذي يشغله الباب الحالي، وقد ذكر المقريزي أنه رأى جزءًا من جانبه المواجه للركن الغربي للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرحبة المذكورة تفصل هذه المدرسة عن البابين الجنوبيين لجامع الحاكم[1].

باب الفتوح:

ذكر المقريزي أنه كان لا يزال يوجد في عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده، وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية، وأن

البناء سنة ٥٩١ هـ وقد أزيل بابا زويلة الأصليان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالي بدلهما باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم، وتسمية العامة بوابة المتولي حيث كان يجلس في مدخله متولي حسبة القاهرة – تعليق محمد بك رمزي – النجوم الزاهرة – جـ ٤ – ص ٣٣٢.

[1] – محمود أحمد – مجلة الهندسة – ١٩٣٤ ص ٣٣٢

هذه الأجزاء كانت على رأس حارة بهاء الدين من قبلها دون جدار الجامع الحاكمي[1].

وكان في الجهة الشرقية من القاهرة، وهى الجهة التي يسلك منها إلى الجبل بابان هما:

باب القرّاطين (المحروق):

يمكن تعيين موقع هذا الباب تعيينًا أقرب إلى الضبط نظرًا لأن موقع الباب الذي حل محله لا يزال معروفًا باسم الباب المحروق [2] ويرى كريسويل أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعًا من الباب المحروق الحالي [3].

باب البرقية:

ليس من السهل تحديد موقع باب البرقية لأن الفصل الذي بحث فيه المقريزي أبواب القاهرة وقف عند ذكر عنوان باب البرقية، ومن المحتمل

---

[1] – الخطط المقريزية – جـ ٢ ص ٢١٠،٢١١ – طبعة النيل.

[2] – أطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب ما فعله سبعمائة مملوك هربوا من القاهرة عند ما علموا بقتل الفارس الأمير أقطاي في ٢١ شعبان ٦٥٢هـ، ففي أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقًا كما كانت العادة في ذلك العصر إذ كانت تغلق أبواب مدينة القاهرة في الليل، فأوقدوا النار في الباب حتى سقط من ذلك الحريق، وخرجوا منه، ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق – المقريزي – طبعة جـ ٢ ، ص ٢١٣.

[3] – انظر K. A. C. Creswell, The Foundation of Cairo. P. 273

جدًّا أن موقعه كان شمالي الباب المحروق وبالقرب من الجامع الأزهر، وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف فيما بعد بباب الغريب..

أما في الجهة الغربية من القاهرة، وهي المطلة على الخليج الكبير فقد كان هناك:

باب السعادة:

وهو أول أبواب السور الغربي، وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام المعز لدين الله وأحد قواده، لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة دخلها من هذا الباب فعرف به وقيل له باب سعادة، ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبي للجانب الغربي من سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالي الشرقي لمحكمة الاستئناف.

باب القنطرة أو الجسر:

وقد عُرف بذلك الاسم لأن جوهرًا بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذي بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى المقس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجواني تجاه مدرسة باب الشعرية [1] وتسمي العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية في حين أن ذلك الباب كان قائمًا غربي الخليج بميدان العدوي بين

---

[1] – تعليق محمد رمزي بك بالنجوم الزاهرة – جـ ٤ – ص ٣٩

شارعي العدوي وسوق الجراية، وكان عند ذلك الباب قنطرة أخرى ذكرها المقريزي باسم قنطرة باب الشعرية، وتعرف في أيامنا باسم قنطرة الخروبي، والعدوي والخروبي مدفونان في مسجد واحد بجوار موقع الباب المذكور.

الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم إنشاء القاهرة فكانت أولى خطواته بناء الجامع الأزهر، وقد أكد المقريزي أن القائد جوهر بدأ عمارته في يوم السبب لست بقين من جمادي الأولى سنة ٣٥٩ هـ، ولما تم تشييده بعد عامين فتح للصلاة في شهر رمضان عام ٣٦١ هـ (يونيو – يوليو ٩٧٢م)، ويعد الأزهر أول عمل فني عماري أقامه الفاطميون في مصر لا يزال قائمًا لليوم.

بني الجامع في الجنوب الشرقي من المدينة على مقربة من القصر الكبير الذي كان موجودًا حينذاك بين حي الديلم وحي الترك في الجنوب، وكتب جوهر بدائرة القبة نقشًا تاريخه عام ٣٦٠ هـ تجد نصهُ في الخطط المقريزية، وقد زال هذا النقش.

ويعدُّ التخطيط الأصلي الذي أنشأ هذا الجامع عليه من الأمور الصعبة التي لا يمكن الاهتداء إليها، فقد زاد كثير من الولاة الفاطميين في بنائهِ وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه في خلال القرون الماضية كما أضيفت إليه زيادات عدة، واذا كان الجامع مازال يشتمل على بقية ضئيلة من الأفاريز الكوفية والعقود الفارسية التي تعد من مميزات العمارة الفاطمية

فإن جل أجزائه الحالية من عصر متأخر حيث قد زاد المستنصر والحافظ في بناء الجامع بعض زيادات، ثم قطع عنه الأيوبيون كثيرًا مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه، وكان قايتباي أكثر الناس رعاية للجامع في القرن التاسع.

وإنشاء الفاطميين لهذا المسجد يفسر الاسم الذي أطلق عليه، فقد قيل أن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب فاطمة التي سميت باسمها مقصورة في المسجد [١] وقال بعضهم أن هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التي بنيت حينما أُنشئت القاهرة، وقال آخرون إنما سمي كذلك تفاؤلًا بما سيكون له من الشأن والمكانة بازدهار العلوم فيه.

وكان الخليفة العزيز الفاطمي أول من حوَّل الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى جامعة للشيعة تدرس فيها العلوم ويروّج فيها للمذهب الفاطمي، كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه ممن وفدوا من جميع نواحي العالم الإسلامي، من ساحل الذهب إلى جزر الملايو، فقد تقابل في مقصوراته وفنائه المراكشي والجاوي والصيني والتونسي والجزائري والبولندي والزنجي تربطهم جميعًا رابطة الإسلام، وكان لكل طلاب أمة رواقهم الخاص حيث يتلقون دروس الفقه والشريعة والنحو والحديث والمنطق والجبر والفلك والعروض والبلاغة والتفسير[٢].

---

[١] – دائرة المعارف الإسلامية – المجلد الثاني – العدد الأول ص ٥٢

[٢] – راجع ثبت المصادر لمادة الأزهر في دائرة المعارف الإسلامية – المجلد الثاني – العدد الأول ص ٧٠،٧١.

أخطاط القاهرة

وننتقل الآن إلى ذكر أهم الأحياء التي اشتملت عليها القاهرة المُعزية فنقول:

سبق القول إنه في اليوم الذي خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التي تألف منها الجيش الفاطمي خطة عرفت باسمها، وقد كان أهم تلك الخطط أو الحارات ما يأتي:

١- حارة الروم: كانت حارتين، وهى التي لم تزل معروفة إلى اليوم بنفس الاسم بقسم الدرب الأحمر، وحارة الروم الجوّانية بقرب باب النصر على يسار الداخل إلى القاهرة، وقد نسبت إلى الأشراف الجوّانيين.

٢- حارة برجوان: منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر في أيام العزيز بالله نزار العبيدي، وصار في أيام الحاكم بأمر الله مدبر مملكته حتى قتله في أحد قصوره.

٣- حارة زويلة: منسوبة إلى زويلة إحدى قبائل البربر الواصلين صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة.

٤- حارة الجدرية: وهى طائفة منسوبة إلى جودر خادم عبيد الله المهدي أبى الخلفاء الفاطميين، وقد سكنها اليهود بعدهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يهزأون بالمسلمين فسدّ عليهم أبوابها وحرقهم ليلًا.

٥- حارة الأمراء: بالقرب من باب الزهومة [1] وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس الدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين، وبها كانت دار الوزير عباس.

٦- حارة الديلم: منسوبة إلى الديلم الذين أتوا برفقة "أفتكين" غلام المعز ابن بويه الديلمي الذي تغلب على الشام في عهد المعز، وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة، لكنه وقع في أسر العزيز بالله في مدينة الرملة وساقُه إلى القاهرة، فعامله بالحسنى وأنزله مع أصحابه بهذه الخطة وبها كانت دار الصالح طلائع بن رزيك.

٧- حارة الباطلية: وتعرف بقوم أتوا مع المعز، ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئًا، فقالوا: "رحنا في الباطل" فسموا الباطلية [2]

٨- حارة الكافوري: كانت بستانًا للأستاذ الملك كافور الأخشيدي ثم من بعده صار للخلفاء المصريين.

٩- حارة قائد القواد: (درب ملوخية) سكنهُ في بادئ الأمر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة إلى ملوخية

---

[1] – باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة في أول شارع خان الخليلي على يسار داخله من جهة شارع القمصانجية من شارع بين القصرين – تعليق محمد بك رمزي – النجوم الزاهرة. جـ ٤ – ص ٣٦

[2] – يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطنية في الجنوب الشرقي لجامع الأزهر.

أحد فراشي القصر، ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة قصر الشوك

١٠- حارة العطوف: منسوبة إلى الخادم عطوف أحد خدام القصر الفاطمي وتدل على موقعها المنطقة التي يتوسطها اليوم حارة العطوف بالقرب من باب النصر

١١- الوزيرية: منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة

١٢- حارة المحمودية: أو المصامدة، منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية التي قدمت أيام العزيز بالله الفاطمي إلى مصر

ولقد زاد عدد الخطط وتطورت كثيرًا في أيام الأيوبيين والمماليك، مما لا يتسع هذا البحث لشرحِه ووصفه مفصلًا [١] .

القصور الزاهرة

وصف المقريزي قصور الفاطميين فيما لا يقل عن مائتي صفحة، وقد ذكرنا أن جوهر وضع أساس القصر الكبير في نفس الليلة التي اختط فيها القاهرة، واستمر العمل في أقسامه المتعددة عدة سنين، وقد اشتمل هذا القصر في داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها بهو

---

[١] – تبحث المراجع المفصلة – كالمقريزي وعلي باشا مبارك و Ravaisse

الذهب الأفيال والظفر والشجرة وقصر الشوك والزمرد والنسيم والبحر والحريم.

ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير، وكان للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها: باب الذهب، ثم باب البحر، فباب الريح، وباب الزمرد، باب العيد، وباب قصر الشوك، وباب الدليم، وباب تربة الزعفران، ثم باب الزهومة، وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجمع أهل الدولة في يومي الإثنين والخميس لقاعة الذهب، وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود في يومي العيدين.

أما القصر الصغير فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ، وقد قال المسّبحي عنهُ "لم يبن مثله في شرق ولا في غرب"، وكانت له عدة أبواب أهمها باب الساباط وباب النبّانين وباب الزمرد وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض، كان ينزل منه الخليفة ممتطيًا ظهر بغلة تحيط بهِ فتيات القصر.

ولم يتم بناء القصر إلّا في عام ٤٥٧ هـ في خلافة المستنصر، وقد شغل موقعه فيما بعد المارستان الكبير المنصوري إلى جوار حارة برجوان.

وشيد الفاطميون دورًا كثيرة ومناظر جميلة منها: دار الضيافة، ودار الوزارة الكبرى، ودار الضرب، ودار الذهب، وقد بنى دار الوزارة أو (الدار الافضلية) أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي ثم سكنها أرباب السيوف

أمراء الجيوش المصرية بالتوالي إلى أن تولى الأيوبيون الحكم في مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده [1]

وفي أيام الحاكم بأمر الله شيدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربي، وقد افتتحت في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة **٣٩٥** هـ واستمرت تؤدي رسالتها حتى أبطلها الأفضل ابن بدر الجمالي.

وكان العزيز ميالًا إلى اقتناء الكتب فجمع جانبًا كبيرًا منها خصص لها قاعات في قصره سماها "خزانة الكتب" وبذل الأموال في الإكثار من المؤلفات النادرة والمخطوطات النفيسة في شتى العلوم والآداب، وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين أنفسهم كالخليل بن أحمد والطبري [2].

جوامع الفاطميين

بين منشآت الفاطميين في القاهرة لم يبق إلّا الأبواب الثلاثة وجزء من سور المدينة وبقايا أربعة مساجد من ستة أقامها الفاطميون، هي الجامع الأزهر وقد تحدثنا عنهُ والجامع الحاكمي والجامع الأقمر وجامع المقس والجامع الظافري المعروف بجامع الفكاهين وجامع الصالح طلائع ابن رزيك، أما القصور فقد اندثرت.

[1] – الخطط المقريزية نقلًا عن ابن عبد الظاهر جـ ٢ ص ٣٠١ و ٣٠٢ – طبعة النيل

[2] – الدكتور زكي محمد حسن – كنوز الفاطميين – ١٩٣٧

ومن الآثار الفاطمية الباقية إلى اليوم: جامع الحاكم وهو لأن الأزهر لم يحتفظ إلّا بشيء قليل جدًّا من عمارته القديمة وزخارفه الأصلية، وكان العزيز هو الذي شيّد جامع الحاكم عام (٣٨٠ هـ) بمعاونة وزيره "ابن كلس" ثم أتمه الحاكم بأمر الله وأكمل زخرفته وشيد مئذنته (٤٠٣ هـ)، ولما استولى الصليبيون على القاهرة (١١٦٧ م) حوَّلوا جزءًا منه إلى كنيسة، فلما قدم صلاح الدين إلى مصر هدمها، وأبطل استعمال الأزهر وجعل مسجد الحاكم المسجد الرسمي للدولة..

وشيَّد الخليفة الآمر جامع الأقمر في ما بين القصرين، وكل أول مسجد من الحجارة المنحوتة، وكانت عقوده الداخلية من اللبن أقيمت على أعمدة من الرخام، وقد نقش على إفريز المسجد بالكوفية اسم الآمر وتاريخ بنائه عام ٥١٩ هـ.

أما مسجد الصالح طلائع فقد أنشأهُ الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بنصر الله عام ٥٥٥ هـ، كما يستدل على ذلك من الكتابة المنقوشة على وجهته البحرية، ويواجه هذا المسجد باب زويلة، وعُنيت بهِ في السنين الأخيرة لجنة حفظ الآثار العربية.

خاتمة الفاطميين

لقد بلغت القاهرة في نهاية أيام الفاطميين شأنًا كبيرًا من التقدم والرقي، وكانت قد أصبحت كالمدن الكبيرة، تكتنفها الطرقات والأسواق وتتوسطها البساتين الغنَّاء، وتشتمل على الحمامات الجميلة والوكالات

والمدارس، وتاريخ هذه العمائر ووصفها قد أفاضت فيه صفات الخطط المقريزية، وقد تناولها المقريزي في فصول بليغة ساحرة اقتبسها مما أَلَّفهُ عنها كتَّاب معاصرون للقاهرة المعزية أمثال: ابن زولاق، والمسِّبحي، والقضاعي، فقد أمدونا بتاريخ مناحيها الشاسعة التي تضيء بعظمة القاهرة من أعوامها الأولى إلى القرون الوسطى.

ليس من السهل أن يتصور الإنسان كيف آلت مخلفات الفاطميين النفيسة إلى الخراب فإنها لم تكن شيئًا قليلًا بل كانت في مجموعها مدينة كاملة.

لما قُضِي الأمر بوفاة العاضد لدين الله آخر الفاطميين (٥٦٧ هـ) أبعد الوزير قراقوش جميع الفاطميين عن قصورهم وأخلاها منهم، واستولى عليها صلاح الدين وتسلم ما كان فيها من خزائن ودواوين وأموال وتحف، واستمر بيع نفائسها وكنوزها عدة سنوات، ثم أغلق أبوابها وملكها لأمرائه، وأسكن أباه نجم الدين في قصر اللؤلؤة المطل على الخليج، ووضع صلاح الدين يده على المكتبة النفيسة التي بلغت محتوياتها ١٢٠.٠٠٠ كتابا من أنفس الكتب استطاع القاضي الفاضل أن يحصل على طائفة كبيرة منها، وأقام صلاح الدين في دار الوزارة الكبرى حتى شيدت قلعة الجبل لكنهُ لم يسكنها، ولم تمض أعوام أخرى على تلك القصور الزاهرة حتى درست وشغلتها العامة.

قاهرة الأيوبيين

وباستيلاء السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب على مصر (٥٦٧ هـ) سمح للمصريين بسكنى القاهرة بعد أن كانت سكنًا للخلفاء الفاطميين وأتباعهم وحصنًا يلتجئون إليه وقت الحاجة، وإن كنا نعرف أن القائد بدر الجمالي قد أذن لمن يستطيع البناء أن يعمر ما شاء من القاهرة مستخدمًا في ذلك أنقاض الفسطاط، وبالتدريج اتصلت عمائر مصر والقاهرة فصارتا مدينة واحدة تشتمل على البساتين والقصور والدور والرباع والأسواق والفنادق والقيسريات والحمامات والأزقة والجوامع والمدارس.. الخ

كان صلاح الدين أول من جعل القاهرة عاصمة للديار المصرية يسكنها الخاصة والعامة ولم ينسج على منوال من سبقهُ من الخلفاء أو الحكام فأقام ضاحية ملكية على مثال القطائع وفرساي وبوتسدام، بل إنه عمل شيئًا جديدًا، فقد رأى أن يجمع تلك الضواحي ببناء سور حولها ويتوجها معًا بقلعته المشهورة فوق جبل المقطم ويضم تلك النواحي المبعثرة وميناء المقس ثم يلف حولها سورًا من الحجارة الكبيرة ويمد سور بدر الجبالي إلى المقس من الغرب وإلى سفح المقطم من الجنوب ثم يلتف به عند بقايا الفسطاط ليمس النيل، إلّا أن هذا المشروع الكبير لم يتم لاشتغال صلاح الدين بحملاته العسكرية في الشام، ولم ينته إلّا جانب يسير منهُ.

وأهم المميزات التي امتازت بها قاهرة صلاح الدين، قلعة الجبل التي شيَّدها في عام (٥٧٢هـ – ١١٧٦م)، فأتم تشييدها بعد ست سنوات (٥٧٢ هـ ١١٨٣م)، ومن أجل القلعة هدم عددًا كبيرًا من الأهرامات الصغيرة التي كانت بالجيزة، كما أزال ما وجده في موقع بنائها من المساجد في المعارك التي دارت بينهُ وبين المسيحيين، ولقد شاهدهم الرحَّالة الأندلسي ابن جبير لما زار القاهرة عام (٥٨٧ هـ – ١١٩١م) ووصف بعض آثارها ومشاهدها في رحلته المسماة "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، ومات صلاح الدين قبل انتهاء بناء القلعة فأهمل العمل مدة إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل مُحَمَّد بن الملك العادل، فاهتم بعمارتها وأكملها ثم جعلها مقر سلطته.

وفي خاتمة القرن السادس الهجري زار القاهرة الرحالة عبد اللطيف البغدادي، ثم ياقوت الحموي الذي قال عن القاهرة في معجمهِ "هى أطيب وأجل مدينة رأيتها" وكان قد وفد إليها في فاتحة القرن السابع.

واهتم السلاطين المماليك فيما يعد بأمر القلعة، فشيَّد السلطان الملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون ثلاثة أماكن أحدها القصر الأبلق الذي "كان يجلس فيهِ السلطان في عامة أيامه ويدخل عليه فيه أمراؤه وخواصه"، وثانيها الإيوان الكبير الذي يجلس فيه السلطان في أيام المواكب للخدمة

العامة وإقامة العدل في الرعية، وثالثهما جامع الخطبة الذي يصلي فيه السلطان الجمعة [1]

وبدأ في عصر صلاح الدين نظام المدارس للقضاء على المذهب الشيعي، وكان لهذا تأثير خاص في العمارة الإسلامية في مصر، وعلى كل حال فقد أنشئت في القاهرة الكلية الشافعية بجانب المشهد الحسيني، وحوّل دار عباس الوزير الفاطمي إلى مدرسة سيف الدين لتدريس مذهب الحنفية كما أنشأ مدرسة أخرى لمذهب مالك عرفت بالقمحية، وكانت النتيجة أن زخرت مصر بالأدباء والمفكرين، وهُم رمز الحضارة الإسلامية الذين حملتهم مصر بعد ان أن تخلت بغداد عنهم، تلك الحضارة التي وإن كانت قد استقرت في آسيا طوال عصر الأمويين والعباسيين فقد كانت في مصر الأيوبية زاهرة يانعة، ولا سيما أن وادي النيل كانت له في ذلك العصر أكثر القيادة الإسلامية ضد الصليبيين.

وحسبنا الآن أن نسجل هنا بعض الأعلام المصريين، فمن الشعراء بهاء الدين زهير (٦٥٦ هـ) وأبو الحسين الجزار (٦٧٩ هـ) والسعيد بن هناء (٦٥٨ هـ) وأبو الحسن المشد (٦٥٦ هـ) وابن مطروح (٦٤٩ هـ)، ومن اللغويين ابن الحاجب الشهير (٦٤٦ هـ)، ومن الحكماء مُحَمَّد الخونجي الفيلسوف (٦٤٢ هـ)، ومن الأصوليين أبو الحسن الأمدي (٦٣٢ هـ)،

[1] – صبح الأعشى – الجزء الثالث . ٣٧٢

ومن الشعراء الصوفيين ابن الفارض (٦٣٢ هـ)، وغير هؤلاء كثيرون في جميع نواحي التفكير من أدب وعلم وسياسة وتصوف [١].

قاهرة المماليك

فإذا انتقلنا إلى المماليك، هؤلاء السلاطين البواسل الذين استطاعوا أن يجعلوا بحر الروم الشرقي بحيرة مصرية وصدوا هجمات الصليبيين الذين حاولوا مرارًا التغلب على فلسطين مفتاح مصر، وجدناها قد تحوَّلت إلى مدينة من أجمل مدن الشرق بما أدخلوه عليها من جديد.

ظفرت القاهرة أثناء حكم المماليك بطائفة من السلاطين الذين دوَّنوا في التاريخ المصري صفحات مجيدة من الأعمال النادرة في الفتح والسياسة والإنشاء، وكان في مقدمة هؤلاء السلاطين الأمجاد الظاهر بيبرس البندقداري ومنقذ الإسلام وهازم المغول والصليبيين ثم السلطان الناصر حليف التتار وصديق المؤرخ العلامة أبي الفداء..

ويُعد عصر الناصر من أزهر عصور مصر والقاهرة فلم يسبق أن كان للعمارة عصر ذهبي كعصر الناصر، امتاز عهده بالإنتاج الفني، وتشهد النفقات الكثيرة التي أنفقها السلطان وأمراؤه على المنشآت بما كانت عليه مصر وقتذاك من الغنى والرفاهية، وأهم مبانيه في القاهرة:

---

[١] – في ميدان الأدب المصري – بقلم مُحَمَّد ضياء الدين الريس – ملحق العدد ٢٩٧٥ من السياسة الأسبوعية

مدرسة بين القصرين، والجامع العتيق بالقلعة، وبهو الأعمدة أحد أجزاء القصر الأبلق بالقلعة.

ولقد شاهد الرحالة ابن بطوطة الذي وفد على مصر عام (٧٢٦ هـ – ١٣٢٦م) في عهد السلطان الناصر ابن قلاون كيف كان تنافس الأمراء المصريين على تخليد أسمائهم، فشيّدوا الخانقات والتكايا وغيرها، فقال أنه ليتعذر على الإنسان أن يحصي المدارس أو يصف عظمة بيمارستان قلاوون بآلاته العجيبة وصيدليته المجهزة بالعقاقير الوفيرة، أو يتصور المبالغ الوفيرة التي تُصرف يوميًّا عليه..

وقد وصف ابن بطوطة، القاهرة في تلك العبارات الطريفة:

"ثم وصلت إلى مدينة مصر أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة، المتناهية في كثرة العمارة، المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها من شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها، شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد، قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم"

ولقد بلغ عدد المساجد والمدارس التي شُيِّدت في القاهرة بين عامي (٧٢٠ و٧٦١ هـ) أربعين، وهذا العدد أكثر من ربع ما شُيِّد منذ فتح

العرب مصر إلى أيام المقريزي في أوائل القرن الخامس عشر، ومجموعها عنوان لما كان عليهِ عصر المماليك من مجد ورفاهية ورخاء.

ومما يؤسف أن القاهرة في عهد الناصر لم تنج من بعض الحرائق التي دبرها أفراد من القبط انتقامًا لما أصاب كنائسهم من التخريب (٧٢١ هـ – ١٣٢١م) فدمَّرت أحياء كاملة وشغل الأمراء والشعب بإطفائها عدة أسابيع وبسببها فقدت القاهرة كثيرًا من خططها الفخمة ودورها وآثارها.

قاهرة المقريزي

فإذا وصلنا إلى القاهرة التي عرفها المقريزي وعاش تحت سمائها (٧٦٦ هـ – ٨٤٥ هـ) وجدناها صارت قلب الديار ومركز تجارتها ومبعث ثقافتها ومنارة دينها، ولم تكن ذلك المعقل المحدود الذي اشتمل على القصور الفاطمية، وتكونت ضاحية جديدة عرفت بالحسينية كثرت فيها المساجد والزوايا والدور، وانتشرت مبانيها إلى الغرب حيث كان الفضاء بين سور القاهرة الفاطمية والنيل وانحسر النهر عن سور القاهرة فسمح لقطعة من الأرض بالظهور فنشأت ميناء جديدة عرفت باسم "بولاق"، وشُيِّدت مجموعة من المنازل مكان بحري النيل القديم.

عاش المقريزي في عصر امتد في أواخر القرن الثامن إلى أواسط القرن التاسع، وعاصر من سلاطين مصر اثنى عشر [1] سلطانًا متعاقبين، وشاهد

[1] – كانت للعلامة المقريزي حظوة عند الظاهر برقوق (١٣٨٢ – ١٣٩٩م) وابنه الناصر فرج فالسلاطين المنصور عبد العزيز بن برقوق ففرج فالمنصور فالمؤيد شيخ فالظفر أحمد فالظاهر تتار

مرحلتين مهمتين في تطور القاهرة، كانت المرحلة الأولى لما ارتدت القاهرة ثوب حياتها الجديدة عقب ما أصابها من وباء عاث فيها في عهد الملك الناصر فكانت من أروع محن مصر، والمرحلة الثانية في أوائل القرن التاسع بعدما منيت به من المصائب الثلاث: الوباء والغلاء وهبوط النيل، ثم عادت تسترد مكانتها [1]

وعلى الرغم من تلك الكوارث التي فجعت بها القاهرة وعوامل الفناء التي كانت تذبل مجتماعتها كلما اجتاحتها تلك المحن كانت تعود القاهرة دائمًا وتخرج من غمار تلك المصائب قوية باسمة وسرعان ما تسترد حسنها وعظمتها [2]

وفي عصر قايتباي امتلأت القاهرة بمجموعة رائعة من منشآته السامية، وهى مجموعة تترك أثرًا جميلاً في النفس المهذبة لما تحتوي عليه من عناصر الذوق الجميل، وهذه المخلفات تجتذب إليها حتى الآن محبي الفنون التي تمثل خير تمثيل فن العمارة المملوكية، ونذكر من تلك المخلفات: جامع

فالصالح محمد ابنه فالاشرف برسباي فالعزيز يوسف ابن برسباي والظاهر جقمق وكلهم من المماليك الجراكسة .

[1] – راجع الخطط المقريزية . الجزء الثاني

[2] – من آثار عصر المقريزي التي زانت القاهرة وزادتها بهاء ورونقًا مدرسة ايطمش وبرقوق ومسجد زين العابدين ومدرسة اينال والمحمودية ومسجد ابن عبد العزيز ومدرسة سودون وتكية برقوق وضريحه وكلية فرج وضريحه ومساجد بركة الرطلي والباسطي والحنفي والزاهد وبيمارستان المؤيد ومسجده وجامع الفخري ومدرسة تغري بردي، وغيرها من المنشئات الرائعة الجمال التي تدل على ما كانت عليه حالة الفنون والعمارة من رقي وازدهار.

تمرز، وجامع إزبك، وقصر يشبك، ومدرسة قايتباي وضريحه ووكالته بالأزهر وسبيله ووكالته بباب النصر والثانية بالسروجية، وقبة الفداوية، ومدرسة الروضة، ومسجد غانم، ومدرسة أبو بكر مزهر، ومسجد جقمز، ومدرسة إزبك اليوسفي.

وفي أيام أولئك المماليك لم تقف عظمة مصر السلطان الحربي بل كان لها أكثر منهُ سلطان علمي وأدبي، وكانت القاهرة مركز ثقافة الشرق، وكمثل من سلطان مصر الأدبي أنقل إلى القارئ الفقرة الآتية من كتاب الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي "تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر" قال:

"ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجية والشراكسة حافظة مكانتها التي كانت لها من قبل، وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ آداب العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق، فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا وخوراسان، وبقيت لغة حكومتها عربية في عهد تينك الدولتين واستظلت العلوم والآداب العربية بحماية الملوك والسلاطين في مصر ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء، كالبوصيري صاحب البردة والسراج الوراق وابن نباتة المصري، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى، والأبشيهي صاحب المستطرف، وابن منظور صاحب لسان العرب، وابن هشام النحوي العظيم، وابن عبد الظاهر والقسطلاني المحدث المشهور، وشمس الدين السخاوي صاحب

الضوء اللامع، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان، والصفدي صاحب الوافي، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين في زمانه، والعيني المؤرخ والمحدث، وابن وصيف شاه، وابن دقماق والمقريزي صاحب الخطط والمكين ابن العميد، وأبو الفداء صاحب تقويم البلدان والذهبي والنويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب، وابن فضل الله العمري صاحب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، وابن عقيل، وابن تغري بردي صاحب "النجوم الزاهرة"، وجلال الدين السيوطي، والدميري صاحب "حياة الحيوان" وابن إياس المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني، وقد استضافت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلوم والفلسفة في الشرق كالإمام ابن تيمية، وابن القيم الجوزية، وابن خلدون"

وفي خلال القرن الخامس عشر لما فتح الترك مصر فقدت القاهرة أهم عنصرين في حياتها: مكانتها وسكانها، فقد نزلت عن عرشها مضطرة للأستانة متنازلة عن مقامها الروحي، وفقدت أيضًا شأنها التجاري، ولم تعد في أيام الأتراك أكثر من مدينة قديمة ذات آثار وذكريات، واستمر مركز القاهرة ثانويًّا حتى ولي الأمر في مصر "مُحَمَّد علي"، فأعاد لها مكانًا خليقًا لها بين المدن الكبيرة وأعاد إلى القاهرة المجد القديم.

تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها(*)

حسن عبد الوهاب

عنيت الشعوب الإسلامية بتخطيط المدن التي أنشأتها عقب الفتوحات الإسلامية، وراعوا في تخطيطها القواعد الصحية من شق شوارع، وعمل ميادين ورحاب، وتقسيمها إلى شوارع وسكك وحارات وأزقة. وقد تضمنت قوانين تخطيط المدن الخروج بالمدافن والمصانع المقلقة إلى أطراف المدينة، كالحدادة، ومصانع الزجاج، وقماين الجير والطوب، والبعد بالأسواق عن مقر الحكم. وكذلك خصصت لكل صناعة سوقاً خاصة بها، كما خصت التجارات بأسواق لاحقت بعضها عرفت بها الأخطاط الواقعة فيها.

وعندما كانت تنشأ مدن جديدة، امتداداً لمدن أخرى سبقتها، كانت تخصص المدينة الجديدة أولاً لسكنى الوالي، أو الخليفة وحاشيته، والمقربين منه، وهذا ما فعله القائد جوهر حينما أنشأ مدينة القاهرة سنة ٣٥٨هـ – ٩٦٩ م امتداداً للفسطاط والعسكر والقطائع، فإنه أعدها لتكون دار خلافة ينزلها الخليفة وعساكره وخواصه، وهكذا كانت الحالة في أطراف المدينة حينما كان يسكنها الخلفاء أو الملوك، فإنها تكون سبباً في عمران ما حولها.

(*) محاضرة ألقيت بالمجمع العلمي المصري في جلسة ٤ إبريل سنة ١٩٥٥.

شرع جوهر في بناء سور حول المدينة، وأذن للقبائل بأن تختط كل قبيلة خطة عرفت بها، ثم أنشأ جامع القاهرة (الأزهر)، والقصر الشرقي الكبير، واحتفر الخندق في الجهة الشمالية، وقد لوحظ أن الحارات التي اختطتها القبائل كانت قريبة من الأسوار والحارات كحارات: الروم، وزويلة، والبرقية.

ومن دراسة القاهرة على ضوء ما كتب عنها، تبين أنها خططت وقسمت إلى ميادين ورحاب أمام القصور وفيما بينهما، وأمام مبانيها الرئيسية ومساجدها.

وكان أمام القصر الكبير وفيما بين القصرين الكبير والصغير في الدولة الفاطمية، ميدان فسيح كانت تقام فيه حفلات استعراض الجيش، حيث كان يقف فيه عشرة آلاف ما بين فارس وراجل. وعلى الجانب الغربي لهذا الميدان، أقيم القصر الصغير الغربي، وعلى جزء من أرضه الآن منشآت المنصور قلاوون. فعرف هذا الميدان ثم الشارع فيما بعد (بين القصرين). وكان يوجد بجوار القصر الغربي ميدان آخر، موضعه المنطقة المعروفة بالخرنفش، وبجواره البستان الكافوري المطل على الخليج.

وباستقصاء مواقع ملحقات القصرين الفاطميين، وعرفنا أنه كان يتوصل إليها من شوارع متسعة، وحولهما الميادين والرحاب، وهذا ما نراه بصورة مقربة على الخريطة التي وضعها مسيو رافيس استناداً إلى المراجع

التاريخية، وأخالفه في وضعه باب الفرج على الخليج، فقد كان في شارع تحت الربع.

وقد وصف القاهرة الطبيب أبو الحسن علي بن رضوان "بأن ارتفاع الأبنية[1] فيها دون أبنية الفسطاط، وأن أزفتها وشوارعها أنظف منها، وإذا تأملنا حال القاهرة كانت بالإضافة إلى الفسطاط أعدل وأجود هواء وأصلح حالاً".

وقال ناصر خسرو الرحالة الفارسي وقد زارها سنة ٤٤١ هـ- ١٠٤٩م يصف تخطيطها: "ويقع قصر السلطان في وسط القاهرة، وهو طلق من جميع الجهات، ولا يتصل به أي بناء، وكل ما حوله فضاء، ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة..."[2].

واستطرد في الوصف إلى أن قال: "وليس للمدينة قلعة، ولكن أبنتيها أقوى وأكثر ارتفاعاً من القلعة. وكل قصر حصين. ومعظم العمارات يتألف من خمس أو ست طبقات.

غير أن المعز لدين الله حينما قدم إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ- ٩٧٣م لم يرق في نظره موقعها لأنها غير ساحل، ووجه اللوم إلى جوهر وقال له: "فاتك بناء القاهرة على النيل عند المقس (ميدان المحطة)، فهلا كنت بنيتها

---

(١) ٣٦٥ – ٦٦ جـ١ مقريزي (المواعظ والاعتبار).

(٢) سفر نامه ص ٤٨ تعريب الدكتور الخشاب.

على الجرف؟ (منطقة الرصد)[1]" وله كل الحق في نقده، فإن منطقة الرصد التي أشار إليها منطقة جميلة تشرف على النيل والجبل وبركة الحبش، وجمعت بين السهل والجبل، وبين الخضرة والماء، وقد وصفها الشاعر الأشبيلي أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بقوله:

يا نزهة الرصد المصري قد جمعت   من كل شيء حلا في جانب الوادي

فـذا غـدير وذا روض وذا جبـل   والضـب والنـون والمـلاح والحـادي

وخير وصف لها، ذلك الذي وصفها به أمير مصر موسى بن عيسى، إذا خرج يوماً إليها فقال لمن حوله:

"أتتأملون الذي[2] أرى؟ قالوا وما الذي يرى الأمير؟ قال: أرى ميدان رهان، وجنان نخل، وبستان شجر، ومنازل سكنى، وذروة جبل، وجبانة أموات، ونهراً عجاجاً، وأرض زرع، ومراعي ماشية، ومرتع خيل، وساحل بحر، وصائد نهر، وقانص وحش، وملاح سفينة، وحادى إبل، ومفازة رمل، وسهلا وجبلا، فهذه ثمانية عشر متنزهاً في أقل من ميل في ميل".

وإذا كان فات جوهر ما أشار به المعز لدين الله واختار موقع القاهرة بنظرته العسكرية، فإن الخلفاء الفاطميين لم تفتهم مواطن الجمال في أطراف

(1) ص ١٢٨ جـ١ المواعظ والاعتبار للمقريزي، ٣٧١ جـ٣ صبح الأعشى، اتعاظ الحنفا ص٧٤، وهذا المرتفع الصخري على يسار الذاهب إلى المعادي، تجاه منطقة أثر النبي.

(2) المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ١٥٣.

القاهرة والفسطاط والجزيرة، فانتفعوا بها وبشاطئ النيل، وحافتي الخليج، وشبرا، حيث كانت الخضرة والماء، فأنشأوا المناظر والحدائق، وكانوا يقضون فيها أوقاتاً سعيدة. وكان لانتفاعهم بتلك المناطق أثر كبير في تعميرها بخاصتهم والمقربين منهم، فامتد العمران إلى خارج أسوار القاهرة.

وفي سنة ٤٨٠هـ- ١٠٨٧م وسَّع القاهرة الوزير بدر الجمالي من حديها الشمالي والجنوبي وأجاز السكنى فيها، فامتد عمرانها إلى أطرافها وخارج أسوارها، فصار يقال لأبنية مدينة القاهرة "داخل السور". ولما خرج عن أسوارها "ظاهر القاهرة"، وأنشئت فيها أخطاط جديدة بعد أن كانت فضاءً تشغله البساتين، هذا عدا حدها الشرقي فيما بين السور والجبل، فإن الحاكم بأمر الله أمر أن تلقى أتربة القاهرة خلف السور لمنع السيول من دخول القاهرة، فصار منها تلك الكيمان التي تعرف بكيمان البرقية بنهاية شارع الدراسة، وهي الجاري رفعها الآن بهمة مشكورة.

وفي دولة السلطان صلاح الدين، ثم في دولة المماليك، امتد العمران، وخاصة في دولة الناصر مُحَّمد بن قلاوون، حيث زادت القاهرة بمقدار النصف، وصارت القاهرة والفسطاط مدينة واحدة تمتد من العباسية إلى بركة الحبش (أثر النبي) ومن النيل إلى المقطم[1].

وكان لتحولات النيل فضل كبير في توسيع رقعة مصر والقاهرة.

---

(1) المقريزي المواعظ الاعتبار جـ ١ ص ٣٦٥.

ويصفها ابن فضل الله العمري المؤرخ الجغرافي في القرن الرابع عشر الميلادي بقوله:

"ولم تزل القاهرة في كل وقت تتزايد عمارتها، وتتجدد معالمها، خصوصاً بعد خراب الفسطاط[١] سنة ٥٦٤هـ- ١١٦٨م وانتقال أهلها إليها حتى صارت على ما هي عليه في زماننا من القصور العليّة، والدور الضخمة، والمنازل الرحيبة، والأسواق الممتدة، والمناظر النزهة، والجوامع البهجة، والمدارس الرائعة، والخوانق الفاخرة، مما لم يسمع بمثله في قطر من الأقطار، ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار".

هذه لمحة عن نشأة القاهرة، وتطورها الذي ساير الزمن فامتدت شمالاً وجنوباً وغرباً، وها هي ستمتد شرقاً بفضل إزالة كيمانها، تلك النقطة السوداء وسط صحيفتها البيضاء. وإنشاء مدينة المقطم، ومدينة النصر بالعباسية الشرقية.

هذه المدينة الزاهرة كانت موضع رعاية الحكومات المتعاقبة عليها، والإشراف على جميع مرافقها حتى نمت وتدرجت مع الزمن، كما توضحها المصورات الجغرافية.

---

(١) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٧٠.

تنظيم القاهرة

لم يكن تخطيط المدن جزافاً ولا ارتجالاً، فقد وضعت القوانين للتخطيط منذ الفتح الإسلامي، وعنيت الشريعة الإسلامية بتنظيم تخطيط المدن، ففي سنن أبي داود: أن النبي ﷺ أمر بأن ينادى في معسكره، بأن من ضيق منزلاً أو قطع طريقاً فلا جهاد له، وذلك حينما لاحظ تضييق صفوف الأخبية في ميادين القتال[١].

وقال شارح السنن: إنه لا يجوز تضييق الطريق التي يمر فيها الناس ونفى جهاد من فعل ذلك على طريقة المبالغة في الزجر والتنفير.

وقد وضع عمر بن الخطاب دستوراً لإنشاء المدن، أذاعه على فاتحي الأمصار ومنشئيها في صدر الإسلام، فجعل محور المدينة المسجد بحيث تتفرع الشوارع حوله، وأن تكون المناهج أربعين ذراعاً. وما يليها ثلاثين، وما بين ذلك عشرين، والأزقة سبعة أذرع والقطائع ستين[٢].

وكذلك تناول المشرع الإسلامي قوانين سعة الشوارع والطرق، وتناولها في أحكامه. واتفقوا على أن الطريق النافذ مباح المرور فيه لكل إنسان لأنه حق للمسلمين، فليس لأحد أن يبني فيه أو يخالف خط جاره (خط التنظيم فلا[٣] يبرز عنه، كما وضعوا قوانين لإقامة الأسبطة[١]،

---

(١) التراتيب الإدارية ص ٢٨٢ جـ ١.

(٢) نفسه.

(٣) الفوائد الباهرة في حكم شوارع القاهرة (خط).

واشترطوا أن تكون مرتفعة بحيث يمر المحمل، أو الفارس على جواده ورمحه قائم، وحرموا بناء المصاطب وغرس الأشجار أمام الدور، ما دام يترتب على غرسها تضييق الطريق).

ووضعوا في حكم المنافع العامة الشوارع الخاصة التي أبيح استعمالها، ومثلها الشوارع التي اصطلح الملاك على تركها من أملاكهم، والطرق التي تشقها الدولة، فلا يجوز شغلها، ولا تضييقها صوناً لنقوش الجدران في وجهات المساجد والدور، وتيسيراً للمرور، ولتوفر الهواء والنور، شددوا على سعة الشوارع. وقد تركوا الحرية لمن ينشئ شارعاً خاصاً، ولكنهم فضلوا أن يكون متسعاً على أن لا يقل عن سبعة أذرع.

وفي مشروع نزع الملكية، لتوسيع الشوارع والحارات، ولتوسيع المساجد، ابتعت طريقة المفاوضة مع المالك، فإذا لم يتم الاتفاق يودع الثمن المقدر في بيت المال، ويستولى على العقار[٢] وهو ما نتبعه الآن.

على ضوء هذه القوانين، وما استجد بعدها تبعاً لتدرج العمران، وضعت القوانين الخاصة بتنظيم الطرق، وإزالة ما يعترضها، وحددت سلطة المحتسب الذي يقوم بتنفيذها.

والحسبة قانون مدني، فيدخل في اختصاص المحتسب وأعوانه حمل الناس على المصالح العامة في المدينة، وقد جمع اختصاصه بين الشرطة

---

(١) الساباط: ممر بين منزلين من أعلى.

(٢) ٤٦ فتوح البلدان طبع أوروبا.

والصحة والبلدية، فيدخل فيه إصلاح الشوارع، والإشراف على نظافتها وإضاءتها وتوسيعها، والتشديد على أن يكون البناء على خط التنظيم، فلا يخرج في الشارع عن سمت جارة. ويمنع الجلوس في الأفاريز والخروج بالميازيب أعلى الجدران والبروز بسقائف أو مصاطب أمام الحوانيت والحكم[1] على الملاك بإزالة المباني المتداعية وهدم ما يتوقع منه ضرر على السابلة[2]، وقفل الطريق عند إزالة الخلل صوناً للأرواح[3]، وهذا ما حصل عندما هدمت منارة جامع المؤيد سنة ٨٢١هـ ١٤١٨م فإن باب زويلة أغلق ثلاثين يوماً.

ومن سلطة المحتسب، أن لا يرخص بإقامة مصانع للصناعات الثقيلة أو مدابغ أو مصانع زجاج أو قماين طوب أو جير إلا خارج المدينة.

وقد بلغ من التشديد في تنفيذ تلك القوانين، النص على إزالة المباني المعترضة للطريق، أو التي تقفله وهدمها، ولو كان المبنى مسجداً[4].

ومن اختصاص المحتسب منع شغل الطريق بتشوين المون[5] وأدوات البناء، إلا لفترات قصيرة مدة نقلها، وله حرية إباحة الخروج بالمشربيات، وإقامة الأسبطة وميازيب المياه وآبار المجاري طبقاً لسعة الشوارع.

---

(١) ابن الأخوة (معالم القرية) ص ٧٨– ٨٩.

(٢) خطط الشام جـ ٥ ص ١٣٦.

(٣) ١٢٥ جـ ٥ علي باشا مبارك (الخطط الجديدة).

(٤) نهاية الأرب جـ ٦ ص ٣١٤.

(٥) نهاية الأرب جـ ٦ ص ٣١٤.

وفي مستهل القرن الرابع عشر الميلادي، كان من واجبات والي القاهرة، القيام بتحسين المدينة وتزيينها، فيأمر بعمارة ما في الدور من خلل، وتعمير ما فيها من خراب، والاهتمام بتوسعة رحابها، وتعلية ساباطاتها وسقائف أسواقها، ولا يمكن أحداً من تضييق الطريق أو إحداث ما يضر بالمارة. وأن ينظر في تنظيف الطرق والرحاب من الأوساخ إن كانت من بيت المال، وإلا فيأمر السكان بنظافة ما حولهم[1]. وكذلك الخروج بالصناعات المقلقة، وقماين حريق الجير، والمدابغ ومسابك الزجاج إلى خارج المدينة.

وكذلك وجدت وقفيات يصرف منها على تعديل الطرق ورصفها[2] ذكرها ابن بطوطة عند ذكر الأوقاف بدمشق بقوله:

"ومنها الأوقاف على تعديل الطرق ورصفها، لأن أزقة دمشق لكل واحد، منها رصيفان في جنبيه يمر عليها المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك.

النظافة

ويدخل في اختصاص المحتسب منذ إنشاء القاهرة، الإشراف على النظافة ومنع إلقاء القمامة في الشوارع، وعدم الإفراط في رش الماء مما يتسبب منه الزلق. كما يلزم الملاك بإزالة الأوحال من أمام دورهم ومحالهم. ويمنع هز المون وسط الطريق أو ترك مخلفات العمارة، ويشدد على

---

(1) آثار الأول في ترتيب الدول ص ١٦٥.

(2) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٦٠.

أصحاب الأسواق بكنسها ورشها[1] ومداومة نظافتها، ومنع طرح القمامة بجوار الطريق.

أما المساجد فقد رصد في وقفيتها مبالغ تصرف لمن يقوم بالنظافة والرش أمامها وحولها. وهذا ما تضمنته وقفية الغوري[2] فقد رصد فيها مرتب للكناس والرشاش للطرقات تجاه بابي المدرسة، وحول القبة والخانقاه.

كذلك يحتم على ناقلي السماد إحكام تغطيته عند نقله، حتى تنقطع رائحته فلا يتأذى الناس منها، ويأمر بمنع ربط الدواب في الطريق حتى لا تعوق السير.

وإلى سنة ١٢٢٩هـ- ١٨١٣م كان والي القاهرة وأعوانه من الشرطة يمرون في الشوارع والأسواق ملزمين السكان والتجار بنظافتها ورشها[3].

ظل المحتسب يشرف على تنفيذ أوامر النظافة إلى أن أنشئت أقسام البوليس في أوائل القرن التاسع عشر، وأذيع على أقسام البوليس ورؤسائها ومشايخ الأقسام التعليمات الواجب عليهم اتباعها والمنشورة في الوقائع المصرية الصادرة في ١٧ صفر سنة ١٢٤٦هـ- ١٨٣٠م وقد جاء فيها:

---

(1) معالم القربة ص ٧٩.

(2) الخطط الجديدة جـ ٥ ص ٦٣.

(3) الجبرتي جـ ٤ ص ٢٠٤.

"ينبغي عند صبيحة كل يوم أن يقوم أهل الأسواق بكنس ورش المنطقة أمام دكاكينهم وأن سكان المنازل يكنسون ويرشون أمام بيوتهم، فإذا ضبط مندوب أميرالاي المحروسة أناساً يلقون القاذورات، يضربهم ضرباً خفيفاً، ويحذرهم من العودة إلى ذلك، وعلى أقسام البوليس تأديب من يتأخر عن النظافة أمام بيته أو دكانه؛ ويجب المناداة بذلك والتنبيه على مشايخ الحارات بمراقبة التنفيذ.

أما المنشآت الحكومية، فينبه على نظارها بالإشراف على نظافة ما حولها وما يكون حول القلعة يكلف بنظافته سقا باشي القلعة. ويقوم بنظافة المحلات الخربة سقّا الحارة، وأجرته على الموسرين من السكان.

وفي سنة ١٨٣١م عينت الحكومة الموظفين لمراقبة النظافة ومراقبة تنفيذ[١] تلك التعليمات، كذلك حددت أماكن لإلقاء الأتربة (المقالب)، فلا يلقى فيها إلا بإذن. كما حددت أماكن لإيداع القمامة تودع فيها إلى أن تنقل وتلقى في البحر، وهذا ما حدده الأمر الصادر من مجلس الملكية في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٤٩هـ- ١٨٣٣م وقد أذن بخروج الأتربة المخلفة من عمارات قصور قنطرة الدكة، والأزبكية من أبواب القاهرة، المعتاد إخراج الزبالة وفضلات القاهرة منها، إلى خارج المدينة. وأن يأمر كذلك ناظر الترسانة بإتمام إنشاء القوارب اللازمة لنقلها إلى خارج المدينة، والتي

---

(١) تاريخ الإدارة الصحية ص ٣٦.

تجمع بشونة المسكنة بساحل البحر إلى البحر الأبيض المتوسط مراعاة للصحة العامة[١].

مكافحة التسول

لم يكن الاهتمام بالقاهرة قاصراً على نظافتها من القاذورات، بل شمل نظافتها من المناظر المنفرة، فقد كوفح أصحاب العاهات ومفتعلوها، ذلك أنه في سنة ٦٦٤هـ ١٢٦٥م، أمر السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بجمع أصحاب العاهات، فجمعوهم بخان السبيل بالحسينية[٢]، ثم نقلوهم إلى الفيوم، وأفردت لهم بلدة تغل للصرف عليهم بما يكفيهم، وأراحوا الناس من مضايقاتهم، غير أنهم لم يستقروا بها وتفرقوا، ورجع كثير منهم إلى القاهرة.

والعناية بالفقراء ووقايتهم شر السؤال موجودة في جميع أدوار التاريخ منذ فجر الإسلام، ومنذ الدولة الفاطمية أنشئت الربط لإيواء الفقراء من الرجال والنساء، وما خصص منها للنساء كان بمثابة دور كفالة للمرأة، وكان للنساء فضل إنشاء الكثير منها في دولتي المماليك، إلى القرن الثامن عشر، وكانت تلك الربط تؤوي النساء الفقيرات والعجائز والأرامل والبنات حتى يتزوجن، والمطلقات حتى يعدن إلى أزواجهن أو يتزوجن.

---

(١) وثيقة رقم ١٨ دفتر ٧٩٦ ديوان خديوي.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ قسم ٢، ص ٥٥٣ والتحفة الملوكية ص ١٩.

وكان يختار لرئاسة تلك الربط، سيدات اشتهرن بالعلم والحزم لتعليم المقيمات بها وصيانتهن، وإلى الآن مازالت بقايا تلك الربط موجودة "كرباط خوند زينب بالخرنفش".

وكثيراً ما كانت الحكومات تجمع المتسولين إذا لاحظت عليهم تمرداً دعاها ذلك إلى مكافحتهم بشتى الوسائل، ذلك أنه في سنة ٧٧١هـ-١٣٦٩م أمر السلطان شعبان بجمع المتسولين وتوزيعهم على الأمراء والتجار لإعالتهم، كل حسب مقدرته وثرائه، ونودي في القاهرة بعد ذلك أن لا يتصدق أحد على متسول(١).

وفي سنة ١١٠٦هـ- ١٦٩٤م وقع غلاء بمصر، فعزت الأقوات على الفقراء فاهتم بهم إسماعيل باشا والي مصر، فجمع الفقراء والمتسولين ووزعهم على الأمراء والتجار للإنفاق عليهم، وخص نفسه بجانب منهم، إلى أن انقضى الغلاء(٢).

وفي ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٢١٥هـ- ١٨٠٠م صدرت أوامر بجمع المتسولين وخصصوا أماكن لإقامتهم، وعهدوا إلى نظار الأوقاف بالصرف عليهم(٣).

---

(١) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعيني جـ ٢٤ قسم ٢ ص ١٨٣.
(٢) تقويم النيل جـ٢ ص ٦٥.
(٣) عجائب الآثار للجبرتي جـ ٣ ص ١٣٨.

وفي أوائل القرن التاسع عشر جمع الغلمان المشردون وألحقوا بالمصانع المنشأة وقتئذ.

مكافحة المناظر المحزنة والدجالين

وكذلك وجهت العناية إلى مكافحة المناظر المحزنة والدجالين التي تخالف تعاليم الدين فكان المحتسب منذ الدولة الفاطمية يمنع النساء من الخروج خلف الجنازات كاشفات وجوههن ورؤسهن، ويعاقب النائحات إلى حد النفي[١].

وفي سنة ٨٢٤هـ- ١٤٢١م منع المحتسب النساء من النياحة على الأموات[٢].

وفي شوال سنة ٩١٠هـ- ١٥٠٤م أمر السلطان الغوري بأن ينادى في القاهرة بأن لا يعمل عزاء بطارات، ولا نائحة تنوح على ميت. ثم أوعز إليه على نائحة عملت عزاء بطارات، فقبضوا عليها، ولطخوا وجهها بالسواد وعلقوا طاراً في عنقها وأركبوها حماراً، وشنعوا عليها في أنحاء القاهرة. وكان هذا سبباً في إقلاع النساء عن تلك العادات[٣].

---

(١) معالم القربة في أحكام الحسبة ص ٥١.

(٢) نزهة النفوس والأبدان ص ١٠٣ (خط).

(٣) ابن إياس جـ ٤ ص ٧٦.

وكذلك كافحوا الدجالين الذي ينصبون على النساء ويغررون بهن. فقد صدرت أوامر الناصر مُحَمَّد بن قلاوون سنة ٧٣٣هـ- ١٣٢٣م بالقبض على المنجمين وتسليمهم إلى والي القاهرة، فضربوا وحبسوا، ومات منهم تحت العقوبة أربعة[١].

ومن ذلك ما فعله الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٣هـ من ذبحه للعنزة التي كان يدجل بها الشيخ عبد اللطيف خادم السيدة نفيسة، وتوبيخه والتشهير به بوضع جلدها على عمامته وطوافه بالقاهرة وسط الطبول والأشاير[٢].

تمهيد الطرق

لم تقف العناية عند تنظيم الطرق وتوسعتها ونظافتها، بل شملت تمهيدها وتعبيدها حتى يمكن السير والجر عليها، فقد كان عمر بن الخطاب يعهد إلى أهل الذمة بإصلاح الجسور والطرق[٣] كما ثبت أن عبد العزيز بن مروان في ولايته على الفسطاط سنة ٦٥هـ- ٦١٤م اهتم بتعبيد الطرق، وأعدلها الأدوات اللازمة، ليمكن السير والجر عليها[٤] وكذلك تضمنت التعليمات التي كانت تصدر إلى والي الفسطاط عند تعيينه[٥]،

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٦١.

(٢) عجائب الآثار جـ ١ ص ٣٦٢.

(٣) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٢٨٣.

(٤) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٢٨٤.

(٥) صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٣٦.

التشديد على نظافة المسالك والساحات، ومنع توعير السبل والطرقات، وكانت الدول الإسلامية المتعاقبة على حكم مصر تقوم بين آونة وأخرى، بتمهيد الطرق وقطع ما ارتفع منها[١] باعتبار ذلك من الأعمال الرئيسية للدولة.

وقد بلغ من الاهتمام بتنظيم الطرق وإعدادها وتنسيقها، احتساب الاهتمام بها من حسنات الملك أو الوالي المهتم بها. كما ورد في ترجمتي الأمير منجك[٢] اليوسفي والملك[٣] الأشرف أينال؛ فقد عد من حسناته أنه وسع شارع بين القصرين.

وفي القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، اشترك والي الشرطة مع المحتسب في تنفيذ تلك الأوامر، فكان يلزم سكان الدور والحوانيت بتمهيد الطريق أمامهم[٤].

وممن لهم أثر مشكور في العناية بالطرق، الأمير يشبك بن مهدي دوادار الملك الأشرف قايتباي، فإنه في سنة ٨٨٢هـ- ١٤٧٨م شرع في توسعة الطرق والشوارع والأزقة، وخاصة الشارع الرئيسي للقاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة، وتبييض الدكاكين ووجهات الربوع، وعهد إلى القاضي فتح الله السوهاجي أحد نواب الشافعية، بأن يحكم بهدم ما وضع

---

(١) المقريزي جـ ٢ ص ١٠٧ (كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار).

(٢) المنهل الصافي لابن تغري بردي جـ ٣ قسم ٣ ص ٣٦٧.

(٣) الضوء اللامع السخاوي جـ ٢ ص ٣٢٩.

(٤) التبر المسبوك في ذيل السلوك السخاوي ص ٣٦.

في الشوارع والأسواق بغير طريق شرعي، من أبنية، وسقائف، ورواشن، ومساطب[1] واستمرت تلك العملية إلى سنة **٨٨٣هـ- ١٤٧٩م** حيث أمر أيضاً بإصلاح وجهات المساجد، وطلاء رخامها، فحصل بذلك نفع كبير.

وكان لتوسيع الطرق وتمهيدها أثر كبير في الكشف عن وجهات المساجد المطلة على الشارع الرئيسي (المعز لدين الله). وعين للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال، ملاحظاً للطرق[2]. كان يستحث الناس على سرعة إنجاز أعمال البياض والدهان، حتى صارت القاهرة كأنها مستجدة البناء والزخرف، وكذلك اهتم بتجميل شوارع القاهرة السلطان الناصر[3] أبو السعادات مُحَّد بن الأشرف قايتباي، فإنه أمر في سنة **٩٠٤هـ- ١٤٩٨م** بأن ينادى في القاهرة بأن جميع أصحاب الحوانيت التي بالأسواق والشوارع يبيضون وجوهها، ويزخرفونها بالدهان، ثم أمر بتبييض وجوه الرباع المطلة على الشوارع. وكذلك اهتم السلطان الغوري بتمهيد الطرق وتعبيدها، فألزم السكان بالقيام بهذا العمل في سنة **٩٠٩هـ- ١٥٠٣م**[4].

وإلى سنة **١٢٣٣هـ- ١٨١٧م** كانت الحكومة تلزم السكان بتمهيد الطرق، إذ في هذه السنة كلف بهذه المأمورية مصطفى أغا المحتسب، فنادى

---

(١) ابن إياس جـ ٢ ص ١٧١- ١٧٧، النزهة السنية في ذكر الخلفاء والملوك المصرية ص ١٣٥.

(٢) تاريخ مصر لابن إياس جـ ٢ ص ١٧٧.

(٣) تاريخ مصر لابن إياس جـ ١ ص ٣٤٦.

(٤) تاريخ مصر لابن إياس جـ ٤ ص ٥٩.

في المدينة وأمر الناس بقطع أرضية الطرقات والأزقة حتى العطف والحارات غير النافذة(١).

ولم تغفل كتب اللغة شؤون الطرق، فعالجت مسمياتها في معاجمها، وقد عكف على جمعها الباحث المدقق السيد سليم الجندي وسماها "رسالة الطرق" ونشرها تباعاً في تسع مقالات في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، بدأها في الجزأين السابع والثامن من المجلد الثامن عشر (جمادى الآخرة ورجب سنة ١٣٦٢هـ- ١٩٤٣م)، وانتهى منها في المقال التاسع المنشور في الجزأين السابع والثامن من المجلد العشرين سنة ١٩٤٥.

تجميل القاهرة

من تلك الأخبار نقف على أمر مهم، وهو أن العناية لم تقتصر على تعبيد الطرق وتمهيدها بالقاهرة، بل تعدتها إلى تجميلها، مما دعاهم أيضاً إلى ستر الخرائب عن العيون، كما نفعل الآن بوضع لوحات الإعلانات عليها.

ذلك أنه لما استولى الخراب في زمن المستنصر بالله أمر الوزير أبو مُحَمَّد اليازوري ببناء جدار يستر الخرائب عن نظر الخليفة الفاطمي حينما يتوجه من القاهرة إلى الفسطاط، وذلك فيما بين العسكر والقطائع، وكذلك أقام جداراً آخر عند جامع أحمد بن طولون(٢).

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي جـ ٤ ص ٢٩٠.

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ٢ ص ٢٠.

وفي خلافة الآمر بأحكام الله عهد إلى وزيره أبي عبد الله مُحَّد بن فاتك بتعمير الخرائب والقضاء فيما بين باب زويلة والسيدة نفيسة، فنادى في القاهرة وأمر بأن من كانت له دار في الخراب أو مكان يعمره، ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شيء من أنقاضه، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له في شيء منه، ولا حكر يلزمه. فعمرت الخرائب وأصبحت المنطقة عامرة، وأصبحت القاهرة لا تتخللها خرائب(١).

وكذلك نقلت أنقاض مدينة العسكر ومهدت، فصار الفضاء فيما بين السيدة نفسية إلى كوم الجارح (وهي المنطقة التي مهد جزء من كيمانها، والمعروفة بتلال زين العابدين).

ولأهمية بركة الفيل باعتبارها من أجمل منتزهات القاهرة، عنى الناصر مُحَّد بن قلاوون، بتجميلها والمحافظة على رونقها، فأمر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، بإقامة حائط بطولها(٢) ليحجب الأجزاء التي لم تعمر من جهة الجسر الأعظم.

فرش الرمل الأصفر

وعلى ذكر تجميل القاهرة أذكر أن مصر عرفت فرش الرمل الأصفر في حفلاتها الرسمية منذ ألف عام، فقد كان نظام حفلات الاستقبال في

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ٢ ص ٢٠.

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ٢ ص ١٦٥.

الدولة الفاطمية يقضي بفرش الرمل في الطريق المؤدي إلى القصر الفاطمي[1] وأمامه، وهذا ما كان متبعاً بمصر إلى وقت قريب جداً.

ظلت العناية بتعبيد الطرق، وإصلاحها وتجميلها موكولة إلى سكان القاهرة حتى عنيت بها الحكومة وأصدرت أوامر في سنة ١٨٤٨م، بتعيين أربع بلوكات من ديوان الجهادية للقيام بتسوية وتمهيد الطرقات والشوارع في كل من نواحي الموسكي، والأزبكية[2] وبولاق.

القضاء على الخرائب

وكذلك وجهت العناية إلى إزالة الدور المتخربة، والقضاء على الخرائب التي تشوه القاهرة، فصدرت الأوامر في سنة ١٨١٦م بإعداد تجريده من المهندسين للكشف على دور القاهرة، فإن وجدوا بها خللا أمروا بإصلاحه أو هدمه، وذلك على أثر[3] سقوط منزل.

وتعجيلا لعمرانها والقضاء على خرائبها، صدر قرار آخر بتعمير الخرائب، سواء أكانت مملوكة أم موقوفة، وذلك في سنة ١٨٣١م بعد إحصائها جاء فيه:

---

(1) المواعظ والاعتبار للمقريزي جـ ١ ص ٤٣٣.

(2) الوقائع المصرية العدد ١٠٦ الصادر في ٢٣ ربيع الأول سنة ١٢٦٤هـ.

(3) عجائب الآثار للجبرتي جـ ٤ ص ٢٥٣.

"يؤذن بالقرار الصادر بشأن خرائب القاهرة التي أحصتها اللجنة برئاسة أمين أفندي، وعضوية الباشمهندس الحاج مصطفى قوله، والشيخ حسن أبو صفيحة مندوب المحكمة الشرعية، والتي تبين من إحصائها أن عدد الخرائب بأقسام البوليس السبع[1] بالقاهرة بلغ ٢٥٨ خرابة ليس في مقدور مالكيها القيام بترميمها، فهذا القرار يعرض بأن تقسم هذه الخرائب إلى قسمين قسم تراه الحكومة لازماً لها فتأخذه وتعمره، والقسم الآخر تتخذ الإجراءات اللازمة لبيعه لمن حوله من الجيران الموسرين الذين يستطيعون بناءه وتشييده".

هذا ما يتعلق بالأعيان المملوكة، أما الأعيان الموقوفة فقد صدر بشأنها أمر في سنة ١٢٤٧هـ- ١٨٣١م نصه:

"يؤذن بقراره الصادر بشأن ٩٧٨ عيناً من عقارات الأوقاف كانت لجنة إحصاء خرائب القاهرة ذكرت في تقريرها أن نظار الأوقاف التابعة لهم أخذوا على عهدتهم أن يرمموها[2].

وبما أن معظم هذه المحال لم تمسها يد الإصلاح إلى الآن، فالمجلس يرى وجوب قيدها في الديوان الخديوي، مع إرغام نظارها على الوفاء بعهدهم، على أن لا يضن عليهم بتقديم المعونة اللازمة من قبل ناظر الأبنية الأميرية.

---

(١) وثيقة رقم ٨٦ (١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٤٧) دفتر تركي ٧٨٤.

(٢) وثيقة رقم ١٩١ (١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٤٧).

وفي سنة ١٨٣٧م صدر قانون بمعاينة المساكن الآيلة إلى السقوط وإزالتها هي والحيشان والدور المتخربة المستعملة كزرايب ومستودعات للقاذورات، والتنبيه على أصحابها ببنائها مساكن، وذلك في ظرف ثلاثين يوماً، وإلا عرض العقار للبيع، فإن لم يتقدم مشتر اشترته الحكومة، وإن كان تابعاً لوقف تنبه على ناظره بالبناء، فإن لم يستطع يصير استبداله[١].

إزالة الكيمان وغرس الأشجار

وفي سنة ١٨٢٩م أزيلت الكيمان المجاورة للقصر العالي (جاردن سيتي) والمعروفة بكوم العقارب، وكان مسطحها تسعة أفدنة، فأزيلت في ٣٩٣ يوماً. وكذلك أزيلت التلال فيما بين الناصرية وجاردن سيتي ومساحتها ٣٨ فداناً وغرست بأشجار الزيتون وغيرها[٢]. وكذلك أزيلت الأكمة، التي كانت تسد الطريق إلى شبرا، بجوار قنطرة الليمون وحولت إلى منتزه عام[٣].

وفي سنة ١٤٨٦ استعجل الأمر الصادر بتوسيع أزقة وفتح شوارع الموسكي وقطع كوم سلامة، وشوارع بولاق وفم الخليج والقلعة[٤].

(١) تاريخ الإدارة الصحية في مصر ص ٣٨ – ٣٩.
(٢) الوقائع المصرية رقم ١١٤ (٢ رمضان سنة ١٢٤٥).
(٣) تقويم النيل جـ ٢ ص ٥٣٢.
(٤) الوقائع المصرية.

وفي سنة ١٢٦٠هـ- ١٨٤٧م حولت المنطقة عند كوبري الليمون إلى متنزه عام غرست فيه أنواع الزهور والأشجار[١].

وفي سنة ١٢٦٣هـ- ١٨٤٧م شرع في توسعة الشارع من باب الحديد إلى الظاهر، والمتصل بطريق السويس[٢]، كما أجرى توسيع شوارع درب الجماميز، وباب الخلق، والمشهد الحسيني، ثم غرست الأشجار في الشوارع، ومهد طريق متسع بين مصر وشبرا غرست على جوانبه أشجار الجميز واللبخ، كان من أجمل متنزهات مصر. وكذلك ردمت بركة الأزبكية وحولت إلى متنزه عام[٣].

ثم غرست الأشجار على جانبي الشوارع الكبيرة. وحينما ظهرت آثارها من تجميل المدينة وتلطيف الجو، صدرت الأوامر بغرسها على حافتي طريق الرميلة وقره ميدان[٤].

التغييرات الجوية

وكانت تصدر نشرة عن الظواهر الجوية في الوقائع المصرية تحت عنوان (ميزان هواي مصر). ظهرت لأول مرة في الوقائع المصرية الصادرة في غاية ذي القعدة سنة ١٢٤٤هـ ١٨٢٩م.

---

(١) الوقائع المصرية.

(٢) الوقائع المصرية عدد ٧٥ (١٣ شعبان سنة ١٢٦٣).

(٣) الوقائع المصرية رقم ٨٩ في ٢٣ ذي القعدة سنة ١٢٦٤.

(٤) الوقائع المصرية عدد ٩٧ بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٢٦٤.

مجلس للإشراف على تجميل القاهرة

في ٨ ذي الحجة سنة ١٢٥٩– ديسمبر سنة ١٨٤٣م، صدر أمر بإنشاء مجلس للإشراف على تزيين وتجميل المحروسة، وتعديل طرقها، أسوة بما استحدث في الإسكندرية، وهذا المجلس مؤلف من[١]: رشيد أفندي مفتش الأبنية الأميرية، لينان أفندي مهندس القناطر، مصطفى بهجت رئيس قلم الهندسة بديوان المدارس.

مجلس تنظيم المحروسة

ورد ذكر هذا المجلس سنة ١٢٦٤هـ– ١٨٤٧م في الأمر الصادر بترقيم الدور وتسمية شوارع المحروسة. وفي ٥ شعبان سنة ١٢٨٤هـ– ٢ ديسمبر سنة ١٨٦٧م، صدر أمر بتشكيل مجلس بلدي وفصل إيراد مدينة القاهرة ومصرفها من نظارة المالية، وإسناد إدارتها إلى هذا المجلس ليعمل على تنظيم المدينة، وليكون له الحق في تنظيم ميزانيته، وصرف ما يراه مناسباً للأعمال النافعة، شأنه في ذلك شأن المجالس البلدية في سائر الممالك[٢]. من ذلك الوقت أخذت الحكومة في الإشراف بنفسها وعلى نفقتها القيام بأعباء كل تلك الأعمال.

(١) دفتر ٢٠٩١ ورقة ١٤ ديوان المدارس.

(٢) إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص ١١٦.

كورنيش النيل

وعلى ذكر العناية بالنيل، وتنفيذ عمل الكورنيش عليه من حلوان إلى القناطر الخيرية، ذلك العمل الخالد في تاريخ مصر الحديث وأنصع صفحة من صفحات حكومة الثورة العمرانية. أذكر أن النيل كان موضع الرعاية والاهتمام بترك شاطئه خالياً من البناء، ولكنهم قديماً صبغوا قوانين تخليته بصبغة دينية، فحذروا الناس من السكنى على شاطئه مباشرة، وقالوا: إن الجالس على النيل كالجالس على الطريق(١)، لأن البحر طريق للمرور فيه بالمراكب، وذلك منعاً لكشف عورات المسلمين، وللبعد عن سماع فحش الكلام من النوتية وغيرهم، صوناً للبنات والنساء.

ثم ذكروا أن العلماء نصوا على أن حرم العيون خمسمائة ذراع، وحرم الأنهار ألف ذراع.

وفي أخريات سنة ٧٠٨هـ- ١٣٠٨م أمر الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بإقامة جسر على النيل من القاهرة إلى دمياط، وذلك حينما وصلت إليه الأخبار بأن ملك قبرص تآمر مع غيره من ملوك الفرنج على غزو دمياط، فاجتمع الأمراء واتفقوا على تنفيذ الجسر من القاهرة إلى دمياط. خشية أن تكون حركة الفرنج في زيادة النيل فيتعذر الوصول إلى دمياط، وعهد إلى الأمير آقوش الرومي بتنفيذه. فكتب الأمراء إلى بلادهم

---

(١) المدخل لابن الحاج جـ ١ ص ٢٤٦- ٢٤٨.

بخروج الرجال مع الأبقار كل في منطقته، وصدرت الأوامر إلى الولاة بمساعدة الأمير آقوش بالرجال والأبقار.

فسارت الأعمال بهمة خارقة، حيث عمل في تنفيذه ٣٠٠ جرافة بستمائة رأس بقر، وثلاثين ألف رجل، إلى أن فرغ في نحو شهر واحد، فكانت المسافة من قليوب إلى دمياط تقطع في يومين. وعرض الطريق من أعلاه أربع قصبات ومن أسفله ست قصبات يسير فيه ستة رؤوس من الخيل صفاً واحداً. فعم النفع به. وسلكه المسافرون بعد ما كان يتعذر المرور فيه أيام فيضان النيل لغمره بالماء.

الإضاءة

كانت الإضاءة تعم الشوارع والحارات في الفسطاط ثم في القاهرة، ذلك أنه في سنة ٣٨٣هـ- ٩٩٣م أمر الخليفة العزيز بالله بإضاءة المصابيح على الدور وفي الأسواق[١]. وفي ذي الحجة سنة ٣٩١هـ- ١٠٠٠م أمر الحاكم بأمر الله أن توقد القناديل في سائر البلد على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال والسكك الشارعة وغير الشارعة، فنفذت أوامره. ولازم الحاكم بأمر الله الركوب في الليل، وكان ينزل كل ليلة إلى المدينة متفقداً شوارعها وأخطاطها وأزقتها، فتبارى السكان في الإضاءة، وزينت القياسر والأسواق بأنواع الزينة[٢].

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي جـ ٢ ص ١٠٨.

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي جـ ٢ ص ١٠٨.

ولم تكن الإضاءة قاصرة على الدور والشوارع والحوانيت، بل ألزم بها المشاة، فكل إنسان يحمل فانوساً يضيء له، ومنها الصغير للفرد والكبير يسير به الضوي أمام سادته، هذا عدا المشاعل التي تتقدم المواكب.

والطريف في أمر الإضاءة في المواكب ما اتخذ منها لمنع التصادم ومنع الخطر في الليل، وأول من حمل الشمع معه على البغال في الليل مُحَمَّد بن طفج الأخشيد منذ عشرة قرون ونصف. فكانت الشمعة تحمل على مؤخر البغل وفراش راكب أمامها يلتفت إليها بين آونة وأخرى يصلحها أو يضيئها، ولا شك في أنه كان يسير في مؤخر الركب، بل وفي مقدمته أيضاً[1].

ومنذ ذلك الوقت شاع استعمال الفوانيس التي تحمل على البغال مع الفانوسية أمام وخلف ركب الملوك في الليل. وظلت أوامر الإضاءة على الدور والأسواق منفذة على سكان مصر تصدر بشأنها الأوامر بين آونة وأخرى[2]، إلى أن كان عهد الحملة الفرنسية بمصر سنة ١٢١٣هـ-١٧٩٨م فإنهم أمروا بإبطال القناديل التي كانت توقد في الليل على الدور والدكاكين. وأن يوقدوا عوضاً عنها في وسط السوق مجامع في كل مجمع أربع قناديل، وبين كل مجمع ٣٠ ذراعاً، يقوم بذلك الأعيان دون الفقراء، ثم عادت الإضاءة إلى نظامها القديم.

---

(١) صبح الأعشى جـ ١ ص ٤١٦.

(٢) عجائب الآثار للجبرتي جـ ٣ ص ٤١.

مكافحة الحريق

كان في مدينة الفسطاط في عهد والي مصر عبد العزيز بن مروان، فرقة إطفاء مكونة من خمسمائة عامل لمكافحة حريق طارئ في البلد[1] أو هدم، ولقد شملت أوامر الإضاءة أمام الدور والدكاكين منذ الدولة الفاطمية ضرورة وضع زير مملوء بالماء أمام كل حانوت مخافة حدوث حريق في مكان فيطفأ بسرعة[2].

ولما كثرت الحرائق في سنة ٤٠٥هـ- ١٠١٤م أسر الحاكم بأمر الله باتخاذ القناديل على الحوانيت وأزيار الماء مملوءة، وإزالة السقائف التي على أبواب الحوانيت والرواشن التي تظلل الباعة فنفذت أوامره بالفسطاط والقاهرة[3].

وفي سنة ٥١٧هـ- ١١٢٣م أمر الوزير المأمون الواليين بمصر والقاهرة، بإحضار رؤساء السقائين وأخذ التعهدات عليهم باستعدادهم للحضور كلما دعت الحاجة إليهم ليلاً ونهاراً. ورتب عدداً من العتالين كي يبيتوا على باب كل معونة (مركز الشرطة) مع عشرة من الفعلة ومعهم الطوارق والقرب مملوءة بالماء. على أن تتكفل الحكومة بنفقاتهم[4].

---

(1) المقريزي المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٧٨.

(2) المقريزي المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٧.

(3) المقريزي المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٨.

(4) المقريزي المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٦٣.

وبمناسبة الحرائق التي حدثت بمصر والقاهرة سنة ٧٢٠هـ- ١٣٢٠م نودي في القاهرة بوضع زير أو دُن مملوء بالماء عند كل حانوت، وأن يقام مثل ذلك في الحارات[١] والأزقة.

وإلى القرن الخامس عشر كان والي الطوف (صاحب العسس) يجلس كل ليلة بعد العشاء في منطقة الغورية وأمامه مشعل وحوله عدة من الأعوان وكثير من السقائين، والنجارين، والقصارين، والهدادين بنوب مقررة لهم، خوفاً من أن يحدث في القاهرة حريق بالليل، فيتداركون إطفاءه، ومن حدث منه في الليلة خصومة، أو وجد سكراناً، أو قبض عليه من السراق، تولى أمره وإلى الطوف، وحكم عليه بما تقتضيه الحال[٢].

مصلحة الإطفاء

ظل الشعب بالاشتراك مع الحكومة يكافح الحرائق إلى حوالي سنة ١٨٤٥م حيث أنشئ قسم لطلمبات الحريق (مصلحة الإطفاء) وإلحاق تسعين جندياً به، وإيداع طلمبة في كل خط من أخطاطها، واستحضرت الأدوات اللازمة لصنع آلات الإطفاء بمصر.

ثم صدرت التعليمات إلى المشرفين على المطافئ بأن يرفعوا عقب كل حريق تقريراً عن أسباب الحريق، وبيان الخسائر، والمدة التي أخمد فيها

---

(١) المقريزي المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٥١٤.

(٢) المقريزي المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٣.

الحريق. وتحدثنا الوقائع المصرية عن نماذج لبعض الحوادث ووصفها، ننشرها بنصها:

"وفي ١٠ شوال سنة ١٢٦٣هـ- ١٨٤٧م وصل الخبر إلى الضبطية بظهور حريق في الساعة الرابعة من ليلة ٢٧ رمضان الماضي في منزل على الزيات بباب الشعرية، فأرسلت الضبطية ما لزم من الطلمبات والطلومبجية، وحصل تدارك الحريق بطلمبة الخط المذكور أيضاً، فحصل إخمادها سريعاً، ولكنه نفق بسببها بقرتان وثوران وحمار.

ونشرت في العدد الصادر في ١٧ شوال سنة ١٢٦٣هـ- ١٨٤٧م أن مخزن الليف ببولاق ملك الشيخ مُحَمَّد صقر، ظهرت به حريقة في الساعة الثانية من يوم الجمعة الموافق نهاية الشهر الماضي، ولما وصل خبره إلى الضابطخانة أرسلت من طرفها ومن طرف الطلومبخانة بعض الطلمبات مع مأموريها وبذلوا جهدهم الزائد مع الطلمبجية المختصين ببولاق، فأخمدوها، ولم يحترق سوى جانب من ليف كان موجوداً بالمخزن[١].

وفي فبراير سنة ١٨٧٥م تحرر من وزارة الخارجية إلى الحكومة الإنجليزية بطلب انتداب اليوزباشى شو رئيس فرقة المطافئ بلوندرة، لاستشارته في الإجراءات التي تتخذ ضد الحريق، وتنظيم فرقة المطافئ بالقاهرة، والإقامة لهذا الغرض بضعة أيام للإدلاء برأيه في هذا الشأن[٢].

---

(١) الوقائع المصرية عدد رقم ٨٣ سنة ١٢٦٣هـ- ١٨٧٤.

(٢) إسماعيل كما تصوره الوثائق ص ١١٧.

وكان الإطفاء بواسطة آلات تدار بالبخار، تجرها جياد دربت أحسن تدريب كانت تتحرك في أماكنها بمجرد سماعها جرس الحريق وتقف في مكانها من سيارة الإطفاء، وظلت مستعملة إلى أن استبدلت بسيارات الإطفاء في سنة ١٩٢٠.

تسمية الشوارع وترقيم الدور

عهدنا بالشوارع والحارات والرحاب في القاهرة أن تطلق عليها أسماء التجارات والصناعات التي تشغلها، كما أطلق عليها أسماء بعض القبائل والأفراد كما هو واضح ومدون في أول الجزء الثاني من خطط المقريزي، وما هو وارد في الحجج القديمة.

وفي سنة ١٨٤٧م وبعد أن نظمت القاهرة وشقت فيها الشوارع، وغرست بها الأشجار وأضيئت، رؤي تسمية الشوارع وترقيم الدور، فصدر الأمر بذلك في سنة ١٢٦٢هـ– ١٨٤٧م مستهلاً بتلك الديباجة:

"لما كانت كتابة أسماء الأزقة بمصر المحروسة على محل يناسبها فوق زواياها، وتنمير البيوت الكبيرة والصغيرة برقم نمرها بأعلى أبوابها أو بجانبها، كأسلوب أوروبا، مما يستوجب المنافع العظيمة للمملكة، ويورث السهولة لمن يقصد زقاقاً أو بيتاً، سواء كان من الأهالي أو من الأجانب، استقر الرأي بمجلس تنظيم المحروسة، على التدابير اللازمة لذلك، طبق الإدارة السنية، واندرج بيانها تفصيلاً في نسخ الوقائع المنمرة برقم ٦٤

وحصل في هذه الأيام الشروع في إجراء ذلك ابتداءً من باب الخلق بمقتضى الترتيب الآتي ذكره أدناه وهو خمسة عشر بنداً.

(البند الأول)

حيث إن خليج مصر المحروسة ماراً من وسطها تقريباً، وكان باب الخلق متصلاً بالخليج المذكور، ومركزاً لمصر المحروسة، استنسب أن تكون الجادة الممتدة من باب الخلق إلى القلعة، تسمى بشارع القلعة[1]، ويكتب على رأس زوايا تلك الطرق اسم شارع القلعة وتكتب نمر البيوت الكائنة هناك على أرضيات بيضاء بمداد أسود، يحيط بها برواز لونه كلون مداد الأحرف، وتنمر البيوت التي عن يمين المار بباب الخلق بنمرة الوتر، والتي عن يساره بنمرة الشفع، أي تكون التي في الجهة اليمنى غير مزدوجة، والتي في الجهة اليسرى مزدوجة إلى انتهائها بناحية القلعة.

(البند الثاني)

أن تسمى الطريق الممتدة من باب الخلق إلى مبرك النوق المعبر عنه الآن بباب اللوق بشارع باب اللوق، وابتدأ بالنمر من باب الخلق على الوجه المشروح بالنسق المذكور في الأحرف والبرواز والأرضية.

---

(1) كان الشارع الرئيسي الموصل إلى القلعة من باب الخلق هو تحت الربع، فالدرب الأحمر فالتبانة، فالتبانة، فباب الوزير حيث لم يكن شارع محمد علي موجوداً وقتئذ.

(البند الثالث)

إن الجادة الممتدة من باب السيدة زينب البراني، إلى غاية قرة قول باب الخلق تسمى بشارع السيدة زينب، ويكون لون أرض لوحتها أصفر، ولون أحرفها وبروازها أحمر.

(البند الرابع)

إن الطريق الممتدة من باب الخلق إلى زاوية الموسكي، تسمى بشارع باب الخلق ويكون لون أحرفها أحمر كذلك، وأرضية لوحتها صفراء.

(البند الخامس)

إن الجادة التي من زاوية الموسكي إلى غاية باب العدوي، تسمى بشارع الشعراني، وتكون أحرفها حمراء أيضاً، وأرض لوحتها صفراء.

(البند السادس)

إن الطريق الممتدة من قرة قول السيدة زينب إلى القلعة، تسمى بشارع الرميلة، وتكون أحرفها وبروازها بالمداد الأسود، وأرضيتها بيضاء.

(البند السابع)

إن الجادة الذاهبة من قرة قول الصليبة إلى باب زويلة، تسمى بشارع الصليبة، ويكون لون خطها أحمر على أرضية صفراء.

(البند الثامن)

إن الطريق الممتدة من السيدة نفيسة إلى قرة قول الصليبة، تسمى بشارع السيدة نفيسة، ويكون لون خطها وبروازها أحمر، وأرضيتها صفراء.

(البند التاسع)

إن الجادة الممتدة من باب زويلة إلى سبيل الجمالية، تسمى بشارع الغوري، ويكون لون خطها وبروازها أحمر، على أرضية صفراء.

(البند العاشر)

إن الطريق الممتدة من سبيل الجمالية إلى باب الفتوح، يعبر عنها بشارع باب الفتوح، ويكون لون خطها وبروازها أحمر، وأرضيتها صفراء.

(البند الحادي عشر)

إن الجادة التي من السبيل المذكور إلى باب النصر، تسمى باب النصر، ويكون لون خطها وبروازها أحمر، وأرضيتها صفراء.

(البند الثاني عشر)

إن الجادة الكائنة من قرة قول باب الشعرية إلى الباب الجديد، يعبر عنها بشارع الباب الجديد، ويكون لون خطها وبروازها أسود.

(البند الثالث عشر)

إن الطريق التي من القرة قول المذكور إلى باب الفتوح، تسمى بشارع مرجوش، ويكون خطها وبروازها أسود.

(البند الرابع عشر)

إن الطريق الممتدة من زاوية الموسكي إلى الاسبتالية[1]، الملكية الكائنة بالأزبكية تسمى بشارع الموسكي، ويكون لون خطها وبروازها أسود.

(البند الخامس عشر)

إن الطريق الممتد من شارع باب الخلق، إلى شارع الغوري، تسمى بشارع الحمزاوي، ويكون خطها وبروازها أسود.

وأعقب البند الخامس عشر هذا التعليق:

"لما كانت الشوارع المحررة أعلاه إذا كتبت أسماؤها على الحيطان يحصل فيها مشقة على من يكتبها ولا تتحصل بسرعة كما ينبغي، بل تطول مدتها ولا يمكن كتابتها على الراحة بسبب ذهاب الناس وإيابهم في الأزقة، ومرور الحيوانات ذوات الأحمال والعربات أيضاً، واستنسب أن تحرر أسماؤها على ألواح ثم تعلق عليها وتسمر بالمسامير.

([1]) هي دار الشفاء التي كانت بالعتبة الخضراء.

ومن حيث أن نمر البيوت ليست بالمثابة المذكورة لزم أن تكون كتابتها فوق الأبواب أو بجانبها حسب الاقتضاء. وإذا كانت النمر المذكورة ترتب على قدر طول الشوارع كما ذكر. ومن المعلوم أن كل شارع منها يشمل محلات كثيرة مسماة بأسماء مشهورة، استنسب أن تكون كتابة اسم الشارع المشتمل على النمر في ألواح الزوايا بخط جلي وأن يكتب اسم المحل تحته بخط رفيع بالنسبة إليه، حتى إن كل من نظر إلى اللوحة يعلم اسم المحل الذي هو فيه.

ولما كان من مقتضيات الإرادة السنية إتمام مأمورية تنمير البيوت التي في الأزقة الآتي ذكرها سبب ما حصل من اجتهاد المأمورين والعمال الذين عينوا لذلك وشرع في وضع نمر ما بقي من البيوت. وعند انتهائها يدرج ذكرها في الوقائع ليكون معلوماً للعامة.

(البند السادس عشر)

إن الجادة الممتدة من قنطرة السيدة زينب إلى باب حارة الزير المعلق بآخر شارع درب الحجر، تسمى بشارع الناصرية، تكتب نمرتها بالمداد الأحمر.

(البند السابع عشر)

إن الطريق الممتدة من قنطرة سنقر إلى باب الزير المعلق، تسمى بشارع درب الحجر، وتكون نمرتها سوداء.

(البند الثامن عشر)

إن الطريق التي من باب قرة قول سويقة السباعين، بشارع الناصرية إلى حارة السقايين، تسمى بشارع درب الحمام وتكتب نمرتها بالمداد الأسود.

(البند التاسع عشر)

إن الطريق التي من باب الزير المعلق الكائن بدرب الحجر إلى بيت شربتجي باشا، تسمى بسكة الزير المعلق، وتكون نمرتها بالمداد الأحمر.

(البند العشرون)

إن الطريق التي ابتدأوها من شارع درب الحجر المارة من عابدين المنتهية إلى جادة باب اللوق، تسمى عابدين، وتكون نمرتها حمراء.

(البند الحادي والعشرون)

إن الجادة الممتدة من شارع باب اللوق المارة تجاه بيت حضرة الباشا مدير المالية المنتهية إلى الجبانة، تسمى بشارع البيدق، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الثاني والعشرون)

إن الطريق التي تمتد من باب الخوخة إلى شارع باب اللوق، تسمى بشارع البلاقسة، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الثالث والعشرون)

إن الطريق الممتدة من باب درب أبي الليف إلى شارع الشيخ ريحان، تسمى بشارع حارة السقايين، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الرابع والعشرون)

إن الطريق الممتدة من درب باب أبي الليف بشارع الناصرية إلى باب حارة السقايين، تسمى بشارع أبي الليف، وتكون نمرتها حمراء.

(البند الخامس والعشرون)

إن الجادة الممتدة من شارع الأستاذ الحنفي إلى جادة الناصرية، تسمى بدرب القرودي، ونمرتها تكون حمراء.

(البند السادس والعشرون)

إن الطريق الممتدة من قنطرة السيدة زينب إلى عطفة عمر شاه؛ تسمى بشارع الدرب الجديد. والطريق الممتدة من باب عطفة عمر شاه الموصلة إلى شارع الهياتم ودرب القرودي، تسمى بشارع سويقة اللالة، والطريق الممتدة من الشارع المذكور إلى جادة الناصرية، تسمى بشارع الحنفي، وتكون نمر هذا الطريق بالمداد الأحمر، والطريق التي من جادة الحنفي إلى سبيل الخليج، تسمى بشارع الهياتم، وتكون نمرتها سوداء.

(البند السابع والعشرون)

إن الطريق الممتدة من قنطرة عمر شاه إلى شارع الدرب الجديد، تسمى بشارع عمر شاه، وتكون نمرتها سوداء.

(البند الثامن والعشرون)

إن الطريق الممتدة من جادة درب الجماميز إلى عطفة كور أغلى، تسمى بشق العرسة، ونمرتها تكون سوداء.

(البند التاسع والعشرون)

إن الطريق التي تمتد من جادة حضرة السيدة زينب إلى عطفة الشيخ السادات، تسمى بعطفة كور أغلى، ونمرتها تكون سوداء.

(البند الثلاثون)

إن الجادة التي تمتد من قنطرة درب الجماميز إلى شارع الحنفي، تسمى بشارع خليل طينة، وتكون نمرتها سوداء.

(البند الحادي والثلاثون)

إن الطريق الممتدة من شارع السيدة زينب المارة نحو بيت الشيخ السادات المنتهية إلى بركة الفيل، تسمى بشارع السادات، وتكون نمرتها سوداء.

(البند الثاني والثلاثون)

إن الجادة المبتدئة من أمام مسجد السيدة زينب الممتدة إلى الجهة الغربية من الخليج، تسمى بحارة السيدة زينب، ونمرتها تكون سوداء.

(البند الثالث والثلاثون)

إن الطريق الممتدة من جانب قنطرة سنقر إلى عطفة قرا على بجوار الخليج تسمى بشارع الخليج، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الرابع والثلاثون)

إن الطريق المبتدئة من الباب المحازي لقنطرة الذي كفر المنتهية إلى شارع عابدين، تسمى بشارع رحبة عابدين، وتكون نمرتها سوداء.

(البند الخامس والثلاثون)

إن الطريق المبتدئة من باب حارة النصارى المارة من سوق الجمعة الممتدة إلى سويقة السباعين بجادة الناصرية، تسمى بشارع سوق الجمعة، وتكتب نمرتها بالمداد الأسود.

(البند السادس والثلاثون)

إن الطريق الممتدة من باب حارة النصارى الكائن بشارع سوق الجمعة المتصل بقنطرة سنقر، تسمى حارة النصارى، ونمرتها تكون حمراء.

(البند السابع والثلاثون)

إن الطريق الممتدة من باب القريب من درب الجماميز إلى شارع سوق الجمعة، تسمى بسوق مسكة، وتكون نمرتها حمراء.

(البند الثامن والثلاثون)

إن الزقاق الممتدة من شارع الحنفي إلى سوق الجمعة، يسمى بعطفة الفقوسة، وتكون نمرتها سوداء.

(البند التاسع والثلاثون)

إن الطريق الممتدة من شارع السيدة نفيسة إلى سوق العصر المعادلة لجادة طولون، تسمى بشارع درب الحصر، ونمرتها تكون سوداء.

(البند الأربعون)

إن الطريق الممتدة من شارع طولون المنتهية إلى شارع الرميلة، تسمى بسكة بير الوطاويط، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الحادث والأربعون)

إن الطريق الممتدة من أمام بئر الوطاويط الواصلة إلى باب البركة، تسمى بسكة أزبك، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الثاني والأربعون)

إن الطريق الممتدة من عمارة حسني باشا المارة على الشيخ نور الظلام، الواصلة إلى جادة الصليبة قريباً من بيت محمود بك، تسمى بسكة الشيخ نور الظلام، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الثالث والأربعون)

إن الطريق الممتدة من المحجر أمام بيت المرحوم إبراهيم باشا يكن، الواصلة إلى شارع سوق السلاح، تسمى بسكة الكومي، ونمرتها تبدأ من جادة سوق السلاح، وتكتب بالمداد الأسود.

(البند الرابع والأربعون)

إن الطريق الممتدة من أمام قرة قول باب الوزير إلى سكة الكومي، تسمى بعطفة الكوم الوسخة، وتكون نمرتها سوداء.

(البند الخامس والأربعون)

إن الطريق المبتدئة من شارع القلعة الممتدة إلى سكة الكومي، تسمى بدرب القزازين، وتكون نمرتها حمراء.

(البند السادس والأربعون)

إن الطريق الممتدة من جامع إبراهيم أغا الكائن بشارع القلعة إلى جامع أصلان (أصلم) تسمى بدرب شغلان، وتنمر بالمداد الأحمر.

(البند السابع والأربعون)

إن الطريق الممتدة من قرة قول التبانة إلى الدرب المحروق، تسمى بشارع النبوية وتنمر بالمداد الأحمر.

(البند الثامن والأربعون)

إن الطريق الممتدة من الدرب المحروق إلى باب المحجر، تسمى بالدرب المحروق وتنمر بالمداد الأحمر.

(البند التاسع والأربعون)

إن الجادة الممتدة من جامع قجماس الكائن بالدرب الأحمر بشارع القلعة إلى الدرب المحروق، تسمى بير المش[1] وتنمر بالمداد الأسود.

---

(1) رأيت هذه اللافتة على منزل مسجد قجماس (أبو حريبة) من الجهة البحرية الشرقية وقد هدم وأعيد بناؤه.

(البند الخمسون)

إن الطريق المبتدئة من باب الخلق الممتدة إلى جادة الحمزاوي، تسمى درب سعادة، وتنمر بالمداد الأحمر[1].

ونشرت الوقائع المصرية في عددها رقم ٨٤ في ٧ شوال سنة ١٢٦٣هـ، أن الإرادة السنية تعلقت بتنمير المساكن والدكاكين والأزقة وجميع المحال بمصر والإسكندرية. كما صدر أمره العالي أن يتبع هذا النظام أيضاً في رشيد ودمياط، ثم باقي بنادر الوجه البحري، كالمنصورة، وسمنود، وفوه وطنتدا، وأسيوط، وغيرها من البنادر المماثلة لها ويكون ذلك بمعرفة الضابط الأربعة المكلفين بالتنمير بمصر المحروسة[2].

* * *

نخرج من هذا البيان بعدة فوائد: أولها تخطيط القاهرة في القرن التاسع عشر مع بيان مهم لأكبر شوارعها وبعض سككها المتفرعة منها، وبواباتها وتحديد بعض قره قولات البوليس بها، غير أنني أقرر أن لهذا البيان ملحقاً لم أقف عليه، لأنه لم يتناول أسماء الشوارع في مصر القديمة ولا بولاق؛ بالرغم من وجود لافتات بها، ومع أني عثرت على الكثير من لافتات الشوارع ونمر الدور في المناطق الواردة في هذا البيان وخاصة الشوارع الرئيسية، فإني وجدت الكثير منها في شوارع بولاق، ومصر

(١) الوقائع المصرية العدد ٨٣ في ٢٩ رجب سنة ١٢٦٣هـ وتقويم النيل جـ ٢ ص ٥٤٧– ٥٥٢

(٢) تقويم النيل جـ ٢ ص ٥٥٤ والعدد ٧٨ من الوقائع المصرية في ٤ رمضان سنة ١٢٦٣هـ.

القديمة، غير أنها لم ترد في هذا البيان، وهي مناطق أثرية آهلة بالسكان. كما أنه لم يتضمن مسميات الحارات في المناطق التي سمي شوارعها(١) بالرغم من وجود لافتات بها.

وقبل التحدث عنها، أناقش التعليق الملحق بالبند الخامس عشر، والمتضمن صعوبة كتابة أسماء الشوارع على الجدران، لما فيه من مشقة على كاتبها بسبب مرور الناس والعربات ذات الأحمال، واستحسان كتابتها على ألواح خشبية تعلق وتثبت.

والأمر الثاني تلوين بعض اللوحات في مختلف الأحياء. فأذكر أن جميع اللوحات التي عثرت عليها من الجص المثبت على الجدران. وأن مسمياتها وألوانها تتفق مع ما جاء في بنود البيان. كما أن الكثير من الكتابات بالمداد الأسود، ووجدت في أرضيات بعضها أثر التلوين، وهذا يجعلني أؤكد أنه حصل عدول عن كتابتها على ألواح خشبية وعن التلوين في بعضها واستعيض عنها بألواح جصية. صبت وكتبت ثم لونت وركبت أو عملت على (بيتها) حسب اصطلاح الصناع وهو سر بقائها للآن. وكانت ملونة وفقدت تلوينها حيث وصلت إلينا مع مضي الزمن بيضاء أو حروفها بيضاء.

---

(١) لعل البيان الذي ننشده هو المشار إليه في العدد ٦٤ من الوقائع، أو لعله السابق الوعد به في التعليق على البند الخامس عشر. والقائل فيه "عند انتهاء التسميات يدرج ذكرها في الوقائع ليكون معلوماً للعامة".

ومما يعزز أن تلك اللوحات عملت تنفيذاً للأمر الصادر سنة ١٨٤٧، مطابقة نصوصها للبيان كما أسلفت، وأن جميع ما عثرت عليه منها مثبت على منشآت أثرية تسبق عصر مُحَمَّد علي أو على منشآته أو منشآت عصره، وأذكر على سبيل المثال بعض الأماكن المثبتة عليها: باب الفتوح – باب زويلة – مسجد قجماس الإسحاقي بالدرب الأحمر – سبيل عمر أغا بشارع التبانة – مسجد إيتمش البجاسي برأس باب الوزير – سبيل العقادين (مُحَمَّد علي) بحارة الروم – مسجد الغوري منزل أوده باشى بالجمالية – بوابة السلحدار برأس حارة بيرجوان – دار المحفوظات بالقلعة، وسور القلعة – باب درب اللبانة بالمنشية – مسجد مرزا ببولاق – مسجد القاضي يحيى بشارع المحكمة ببولاق، سبيل حبيش تحت الربع – سبيل السلطان مصطفى بميدان السيدة زينب – سبيل السلطان محمود بدرب الجماميز – مسجد قراقجا الحسنى باللبودية – باب قايتباي بالسيدة عائشة – مدفن تمرباي الحسيني بشارع القادرية بالخليفة – سبيل القبرصلي بالفحامين – بوابة كنيسة أبي سرجة وحارة مارجرجس بمصر القديمة – وكالة المشنات ببولاق– سبيل مُحَمَّد كتخذ بالداودية.

وجميع الأماكن التي ذكرت تسبق سنة ١٨٤٧م ومنها ما هو من منشآت القرن التاسع عشر المنشأة قبل صدور الأمر بعمل اللوحات.

كما أنها لم توجد على منشآت معمارية بعد سنة ١٨٤٧ مما يجعلني أؤكد أن جميع ما عثرت عليه منها يرجع إلى أول القرن التاسع عشر،

وفقط استعيض عن اللوحات الخشبية بلوحات جصية كانت أيسر تثبيتاً وبقاءً.

وبدراسة الشوارع الرئيسية طبقاً لما ورد في بنود هذا البيان، وجدت لوحاتها الموجودة مطابقة لها. فقد نص البند الأول على تسمية الشارع الممتد من باب الخلق إلى القلعة، باسم شارع القلعة، فوجدت أن اللوحة المثبتة على البدنة الغربية لباب زويل مكتوب عليها (شارع القلعة) بحروف سوداء تحتها لوحة بيضاوية صغيرة كان بها اسم الشارع الفرعي– لعله الدرب الأحمر(١)– وهذا يطابق ما ورد في التعليق الملحق بالبند الخامس عشر من كتابة اسم الشارع بخط جلي وكتابة اسم المحل تحته بخط رفيع بالنسبة إليه، كما وجدت لوحة مثبتة على سبيل عمر أغا أمام مسجد آق سنقر (إبراهيم أغا مستحفظان) بشارع باب الوزير مكتوب عليها شارع القلعة وعلى اللوحة البيضاوية تحتها الخربكية بخط فارسي صغير، وقد اتفقت نصاً وتلويناً.

وجاء في البند التاسع أن الجادة الممتدة من باب زويلة إلى الجمالية، تسمى بشارع الغوري، ويكون لون خطها وبروازها أحمر وأرضيتها صفراء.

وبفحص اللوحة الموجودة على البدنة الشرقية لباب زويلة، وجدتها مكتوباً عليها (شارع الغوري) وقد بدت بقايا الحروف بيضاء وبالأرضية أثر

(١) هو فعلاً الدرب الأحمر لأن البند رقم ٤٩ اعتبر جامع قجماس الأسحاقي بشارع الدرب الأحمر.

تلوين يميل إلى الصفرة وعلى اللوحة البيضاوية تحتها كتب بخط فارسي (السكرية)، وتبدو الحروف بيضاء لزوال التلوين. وقد اتفقت نصاً وتلويناً.

وينص البند العاشر على أن تسمية الطريق من سبيل الجمالية إلى باب الفتوح، باب الفتوح تكتب باللون الأحمر، وبفحص اللوحة المثبتة على باب الفتوح تبين أنه كان مكتوباً عليها بالمداد الملون (باب الفتوح).

وينص البند الثالث على تسمية الشارع الممتد من باب السيدة البراني إلى قرة قول باب الخلق، شارع السيدة بحروف حمراء على أرضية صفراء وبرواز أحمر. وبفحص اللوحات التي عثرت عليها وجدت إحداها على مسجد قراقجا الحسني مكتوب على الرئيسية منها شارع السيدة والفرعية درب الجماميز، ويغلب على الحروف البياض مما يفيد فقدان اللون، وفي الأرضية اصفرار.

والثانية على سبيل السلطان محمود ومكتوب عليها شارع درب الجماميز، والفرعية ضلع[1] السمكة، ويغلب على الحروف البياض مما يفيد فقدان اللون، وفي الأرضية اصفرار.

وهذا يعزز ويؤكد اتفاق ما عثرت عليه في أهم الشوارع مع ما جاء في البنود نصاً وتلويناً.

---

(١) لم يرد في البنود ذكر التسمية الفرعية (ضلع السمكة) وقد ذكرها على باشا مبارك عند ذكره لمسجد كاتم السر الذي هدم في توسعة الخليج وعند ذكره لتكية السلطان محمود في الجزء الثالث ص٩ من الخطط التوفيقية.

وقد وجدت أثر التلوين في أرضية لوحة سكة باب الوزير على مسجد إيتمش البجاسي بشارع القلعة القديم، وجلياً في الإطار الأحمر حولها.

وقد اتفقت تلك اللوحات في الوصف والمقاس، فاللوحات الرئيسية مستطيلة مقاسها ٠.٨٧ × ٠.٤٧سم والفرعية تحتها بيضاوية، مقاس ٠.٤٩ × ٠.٤١سم.

أما نمر الدور فيوجد الكثير منها على الدور السابقة للقرن التاسع عشر ومنشآت أوائله، وهي مربع صغير من الجص أحيط بإطار من البوبة السوداء أو الحمراء يتوسطه الرقم باللون الأسود، أو الأحمر، ومنها ما هو مثبت على جانب الباب أو فوق عقده، وقد وجدت منها الكثير في مصر ورشيد والمنصورة.

ومن البلدان التي عثرت فيها على لافتات بأسماء الشوارع (أسيوط) حيث وجدت لوحة على مسجد الكاشف، ومدينة رشيد، حيث وجدت عدة لوحات، منها ما هو على مسجد الشيخ تقي، وعلى منزل الأمصيلي، وعلى منزل المناديلي والحاج يوسف بحارة الحاج يوسف، وكلها أماكن منشأة في القرنين الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادي وهي تطابق مثيلاتها في مصر، غير أنها خالية من اللوحات الفرعية. ولا شك في أن ما وجدته من لوحات أسماء الشوارع ونمر الدور في مصر والأقاليم باقية من وقت صدور الأمر بعملها.

بوابات الحارات

بعد أن امتد العمران خارج القاهرة وأحدثت في أسوارها أبواب جديدة لتعدد مسالكها، أقيمت على الدروب والحارات أبواب لمنع السرقات، ذلك أنه في سنة ٨٦٤ هـ- ١٤٥٩ م كثرت السرقات، فاهتم[١] الأغنياء بإقامة البوابات على الحارات والدروب، وعينوا لها البوابين فكانت تغلق عقب صلاة العشاء وبعضها كان يغلق عقب الغروب بقليل.

وقد نبهت الكتب المؤلفة في سياسة الدول الإسلامية على ضرورة يقظة حارس الدرب، وعدم السماح للغرباء بالدخول إلا بعد التحقق[٢] منهم، والتحري عنهم، وأن يقوم بالتبليغ عن الحرائق والسرقات، ولا يدلي بأسرار السكان لوالٍ أو لغيره.

وقد ورد ذكر أبواب الدروب والخوخات في عدة حوادث من تاريخ القاهرة نذكر فقرات منها.

في سنة ٩٠٣ هـ- ١٤٩٧ م أمر والي القاهرة، بأن ينادي باسم السلطان. بأن سكان الأسواق والحارات يعملون عليها دروباً، فامتثلوا لأمره، وبنيت بالقاهرة عدة دروب: منها ما هو على سوق تحت الربع

(١) حوادث الدهور لابن تغرى بردي قسم ٢ ص ٣٣٢.

(٢) معيد النعم وسبيد النقم ١٤٥.

وعلى سوق أحمد بن طولون، وعلى سوق أمير الجيوش وغير ذلك من الأسواق والحارات. لأن المناسر كانت كثرت في تلك الأيام، وصاروا يهجمون على الأسواق والحارات[١].

وفي سنة ٩٢٢ هـ- ١٥١٦ م أمر الأمير الماس والي الشرطة بالقاهرة بأن يعمر السكان على الحارات والأزقة دروباً في أماكن شتى، فعمروا دروباً في رأس سوق الدريسي، وفي الحسينية، وعلى قنطرة الحاجب، وعند المقيس[٢] وعدة دروب في أماكن شتى، أن يعلقوا على كل دكان قنديلاً، وأن لا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء، وذلك اتقاء لشر اللصوص وحدوث الحرائق المفتعلة.

وحينما كانت تقع اضطرابات سياسية أو غيرها كانت تغلق أبواب المدينة وأبواب الدروب والخوخات التي بالحارات. وهذا ما حدث في[٣] ٢٩ ذي القعدة سنة ٩٢٣هـ- ١٥١٧م.

وقد حدثنا عن تلك البوابات الجبرتي في عهد الاحتلال الفرنسي لمصر فقال:

في سنة ١٢١٣ هـ- ١٧٩٨ م شرع الفرنسيون في تكسير أبواب الدروب والبوابات النافذة، وخرج عدة من عساكرهم يخلعون أبواب

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس جـ ٢ ص ٣٣٦.
(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس جـ ٣ ص ٣٣.
(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس جـ ٣ ص ١٤٣.

الدروب والعطف والحارات. كما خلعوا أبواب الدروب غير النافذة أيضاً، ونقلوا الجميع إلى بركة الأزبكية عند رصيف الخشاب.

وفي جمادى الأول من تلك السنة خلعوا أبواب الدروب والحارات الصغيرة غير النافذة، وهي التي تركت وسومح أصحابها وبرطلوا عليها. وكذلك دروب الحسينية ونقلوها إلى ما جمعوه من البوابات بالأزبكية، ثم كسروها وباعوها للوقود[١].

ومن وصف الجبرتي نعلم أن البوابات استعملت بكثرة للحارات والدروب.

وفي أوائل القرن التاسع عشر وحينما استتب الأمن[٢] صدرت الأوامر بنزع البوابات التي على الدروب مبالغة في استقراره.

ورغم ما أصاب البوابات من التخريب فقد بقيت منها بقية صغيرة في أنحاء القاهرة كان الفضل في بقائها تسجيلها ضمن الآثار العربية مثل باب حارة زقاق المسك بالخيمية، وحارة الألايلى بالغورية وبوابة طرباي بباب الوزير وباب درب الميضة بالجمالية، وباب حارة برجوان بالنحاسين، وباب متصل بقبة تتر الحجازية بالقفاصين قسم الجمالية، وبوابة بيت القاضي بجوار قسم الجمالية.

---

(١) عجائب الآثار للجبرتي جـ ٣ ص ٢٩.

(٢) عبر البشر في القرن الثالث عشر ص ٤١ (خط).

هذا عدا ما هو موجود منها في سوق الفحامين ومصر القديمة على الدرب المؤدي إلى قاعة العرسان، وعلى الدرب المؤدي إلى كنيسة أبي سرجة، وباب حارة سعد الدين بالقرب من مسجد أصلم السلحدار بدرب شغلان، وباب حارة زعيتر بشارع بولاق الجديد، وباب درب البارودية لصق قبة الغوري بالغورية.

وكانت تلك البوابات تُغلق في الليل ويُعين لها الحراس، فيظلون طول الليل في موضع المراقبة وهم مسلحون، فيغلقونها عقب صلاة العشاء، ولا يفتحونها لطارق مجهول أو قادم إلا إذا أسر إليه بكلمة السر المتفق عليها مع السكان في تلك الليلة، أو قدم لهم بطاقته الشخصية.

البطاقات الشخصية

في ٢٣ ربيع الأول من سنة ١٢٤٥ هـ - ١٨٢٩ م قرر مجلس المشورة بالقاهرة أن يكون بيد كل إنسان تذكرة مختومة بختم مصر يقدمها عند خروجه[١] من أبواب مصر أو دخوله فيها وعند انتقاله من بلد إلى أخرى.

ونصت المادة ١٩٤ ضمن البنود المنتخبة من[٢] الجمعية الحقانية في ٩ شعبان سنة ١٢٦٠ هـ- ١٨٤٤ م على "أن كل من يوقف تذكرة مرور بالزور، أو يصنع حيلة في تذكرة مرور يكون أصلها صحيحاً، أو يستعمل

---

(١) الوقائع المصرية الصادرة في ١٩ ربيع الأول سنة ١٢٥٤هـ.

(٢) قانون منتخبات ص ١٠٣.

تزويرات مثل ذلك، أو تذكرة مرور ذات حيلة فإنه يجازى بإرساله إلى اللومان بمدة من ستة أشهر إلى سنتين".

وكان يعهد إلى (البصاصين) رجال البوليس الملكي بمراقبة مداخل القاهرة والاطلاع على البطاقات، حتى إذا تبين أن أحداً لا يحمل بطاقة عُذِّر وأُنذر، فقد ضبط سالم أحد عربان العبابدة داخلاً من باب القرافة وهو بزي امرأة، وبالتحقيق معه وسؤاله عن تذكرته اعتذر عن تركها، وقال إنه لم يتزيَّ بزي النساء، بل كان يحمل قميص والدته على كتفه، وبعد معاقبته أطلق سراحه (الوقائع المصرية عدد ١٩٣- ٩ ربيع آخر سنة ١٢٤٦).

والبطاقات الشخصية ليست وليدة القرن التاسع عشر؛ فقد كانت نواتها موجودة بمصر منذ القرن الرابع عشر الميلادي. فإن ابن بطوطة حينما زار مصر وذهب إلى دمياط قال "إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج إلا بطابع الوالي. فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به[1] وهذا بلا شك (جواز مرور أو بطاقة شخصية) للوافدين على مصر من الأغراب. ثم حدثنا عن جوازات الدخول إلى مصر والخارجين منها حينما وصل إلى بلدة قطعيا باعتبارها الحد الفاصل بين الشام ومصر وفيها الجمرك والدواوين فيها:

---

(1) رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأعصار وعجائب الأسفار جـ ١ ص ١٦.

"ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس العراقيين، وكان يعهد إلى العرب بحراسة الحدود عند هذه البلدة، وطريقها في ضمان العرب، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل فلا يبقى به أثر، ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل، فإن وجد به أثر طالب العرب بإحضار مؤثره(١)، فيذهبون في طلبه فلا يفتهم فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء".

وللصديق المحقق ميخائيل عواد بحث ممتع في جوازات السفر حوى معلومات جديدة طريفة نشرت في مجلة الكتاب ص ٤٠- ٥٠ عدد مايو سنة ١٩٤٦ يرجع إليه من رغب التوسع في هذا الموضوع، ويعتبر ما ذكرناه مكملاً لبحثه.

تقسيم القاهرة

مما سبق يتضح أن القاهرة قسمت إلى مناطق سكنية، ومناطق صناعية، كما قسمت أيضاً إلى مناطق لهو برئ، وغير برئ، ومتنزهات خلوية، فمن مواطن اللهو غير البرئ قنطرة الحاجب على الخليج المصري حيث كانت مقر أهل الطرب والخلاعة، وكانت العامة تقول في هزلها:

ستي، أين كنتي، وأين رحتي، وأين جيتي؛ قالت: من ربع الزيتي(٢).

---

(١) رحلة بن بطوطة جـ ١ ص ٣٠.

(٢) المقريزي (المواعظ والاعتبار) جـ ٢ ص ٧٨.

هذا عدا المناطق المخصصة لعصير الخمر وبيعه وغالبها أماكن نزهة أو يسكنها غير المسلمين مثل حارة السودان، وحارة الساشا، وكوم دينار، وبركة اليقطين، وحارة عكا، والجزيرة، والمريس، والباطلية، وشبرا، ومنية السيرج، وحارة زويلة، وحارة الروم الجوانية، وسويقة صفية، وقنطرة الفخر(١).

وكانت مواطن اللهو البرئ في رحبة باب اللوق، وكانت تجمع رحاباً خمس وبها كان يجتمع في القرن الخامس عشر الميلادي أرباب الملاعب المسلية كالمشعبذين ولاعبي خيال الظل والحواة والبهلوانية وغيرهم(٢).

وكانوا في القرن الرابع عشر يجتمعون في منطقة أخرى متاخمة لها عند جامع الطباخ القريب من ميدان (عابدين)، أما متنزهاتها فكثيرة على ضفاف النيل، وعلى حافتي الخليج، وحول برك الفيل والحبش والرطلي، والأزبكية، وشبرا وخارج الحسينية وجزيرة الروضة وغير هذا كثير.

وعلى الجزائر وضفاف البرك أقيمت السرادقات والأخصاص في فصل الصيف ففي سنة ٧٤٧ هـ - ١٣٤٦م ظهرت في النيل جزيرة حليمة فاتصلت بجزيرة الزمالك وأقبل سكان مصر على التصييف فيها فانشأوا بها عدة أخصاص (عشش) تفننوا في تشييدها حتى بلغت نفقات الخص نحو(٣) مائة وخمسين جنيهاً ما بين رخام ونقوش وحدائق حوله.

---

(١) حلبة الكميت ص ٤٠.

(٢) المقريزي (المواعظ والاعتبار) جـ ٢ ص ٥١.

(٣) المقريزي (المواعظ والاعتبار) جـ ٢ ص ١٨٦.

وكانت الإقامة في تلك الأخصاص وفي أخصاص جزيرة الطينة أمام أثر النبي بمصر القديمة يستغرق ستة شهور.

وبذلك انتفع سكان مصر والقاهرة بجزائر النيل ابتداء من بولاق وجزيرة الروضة وما يتصل بها من جزائر إلى مصر القديمة وهي مساحة تزيد عن مساحة رأس البر.

وفي نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وفي القرون الثلاثة التالية له، كانت منطقة الأزبكية حول بركتها من أجمل منتزهات مصر. حيث عنى بها الأمير أزبك بن ططح كبير أمراء السلطان قايتباي، فأزال كيمانها، وأعاد حفر البركة، وأجرى إليها الماء من الخليج الناصري، ثم أنشأ مناخاً لجماله، كما أنشأ قصراً له فعرفت بالأزبكية نسبة إليه.

وما أن تم عمرانها حتى أنشأ بها مسجداً كبيراً ألحق به مكتبة نفيسة، وأنشأ حوله حماماً ووكالة وقياسر للتجارة، وقد رقع الفراغ من تلك المنشآت حوالي سنة ١٤٧٧م. وكان من جراء حفر البركة وعمل رصيف حولها أن رغب سراة مصر في سكنى الأزبكية، فشادوا القصور وغرسوا الحدائق حتى صارت مدينة عامرة تبارى الشعراء والأدباء في وصف جمالها.

ومن طريف ما وقفت عليه في مدحها مقامة الشيخ شمس الدين مُحَمَّد بن أبي بكر القادري التي سماها "عرف الروضة الذكية في وصف محاسن الأزبكية[1]" اقتطف منها تلك الفقرات.

فهي أحسن ما عمر في عصرنا، وبها البركة التي ليس في القاهرة أعظم منها، ومن أيامها المعدودة ذلك اليوم الذي تنساب فيه إلى البركة مياه النيل، حيث تضاء البركة والدور حولها، وتدخل إليها المراكب مزدانة وتقام حولها حفلات الطرب.

أما في زمن الربيع فإن هذه البركة تزرع كلها قرطاً، وتضرب الخيام حولها وتتحول إلى ربيع في وسط المدينة يتمتع بها خلق كثير.

"ويعجبني وصفه للمباني بقدر ما يسمح له خياله فيصف المسجد بأن[2] أعمدته كشموع كبيرة ناصعة البياض، ورخامه المدبج قد استعار من البستان خضرة رياضه، ومن الليل والنهار لون سوداه وبياضه، وكأن شرفاته المرتفعات، حسان نساء في أزرهن متربعات، وكأنه في الليل والبدر غير محتجب، سرادق من الفضة قد ضرب".

---

(1) نزهة الأمم لابن إياس ص ٢٤٦ خط.

(2) هذا المسجد كان في ميدان العتبة الخضراء حيث مدخل شارع الأزهر وقد هدم سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م واهتم بتصويره تجران باشا.

ثم أخذ في وصف منشآت الأمير أزبك حول البركة بأسلوب بليغ تحايل فيه ببلاغته على وصف تفاصيل العمارة الإسلامية أبلغ وصف، فمن وصفه لقاعات القصر ورخامها:

"وافتخرت على البقاع بقاعاتها التي هي كجنات تجري من تحتها الأنهار، تطرد بها آناء الليل وأطراف النهار، من كل شاذروان تقر به العينان، إذا انكسر ماؤه وانسكب، تسلسل كالفضة على أرضٍ من ذهب، وقام بعد أن تكسر يجري في أخدود، يسر الوارد عند الورود، ينتهي من تلك الأخاديد إلى فساقي، تسع لسقيها عند الورود ألف ساقي[1].

وتلك القاعات بها رخام ملون، كأنه من بديع الزهر قد تكون؛ فكأن بستانها أهدى لرخامها من رياضه حللا؛ محكمة النسيج لا ترى خلالها خللا[2].

---

(1) نزهة الأمم لابن إياس ص ٢٥٥ (خط).

(2) الشاذروان هنا يفيد أن السلسبيل الذي تنساب عليه المياه متعرجة على نقوشه المموجة وعادة يكون في صدر السبيل أو الفسقية تنساب عليه المياه إلى الفساقي، وكذلك في قاعات القصور تنساب عليه المياه من أفواه الطيور فتسير في قنوات حفرت عليها أنواع الأسماك حتى تصل إلى الفسقية أو بركة. ولعلماء اللغة تفسيرات أخرى تغاير هذا. وهذا الأديب في وصفه البليغ أعطى للآثاريين مصطلحات معمارية دقيقة فيصف شرفات المسجد بحسان النساء في أزرهن متربعات، وفسر الشاذروان بأنه السلسبيل، ووصف الرخام الدقيق بأشكاله وألوانه ووصف القمريات (الشبابيك المستديرة ذات الزجاج الملون) أبدع وصف كما وصف جامات الحمام.

وكل مبيت يفضح الشموس والأقمار بقمرياته، ويدهش العيون إذا نظرت إليه بحسن دهاناته، إذا قابلت قمريانه الشمس إذا بزغت والقمر إذا طلع، يظنان أن قوس السحاب وقع عليها لحبه إياها وقطع يقابلها الدهانات البعلبكية، التي تدهش العيون برؤيتها السنية؛ وشي كالنقش الأخضر على ترائب الأتراب الحسان، وجسم جمال النقش يكاد أن يتحرك بروح حسنه وعروقه اللاعبة. وتظن رخامها الملون في حسنه من زهر الرياض، وأسوده في أبيضه كسواد العيون منها في البياض.

ثم وصف الحمامات بقوله: يا لها من حمامات يستوقف النواظر حسن رخامها الوسيم، ويستوقف الأسماع صوت مائها الرخيم؛ وتحير في حسن بهجتها النظار، إذا أشرفت أقمار جاماتها بالنهار".

ثم وصف البركة بقوله "إنها بركة محفوفة بالمفترجات والمناظر، ترتاح إليها، النفوس وتقر بها النواظر، فهي بركة أنيقة المنظر، صافية المخبر، أرضها كالعنبر وعرفها كالمسك الأذفر.

ثم تدرج إلى وصف الحدائق حولها، وما يقام بها من حفلات بوصف لا يدع مجالاً للشك في استعمال الألعاب النارية في هذا الوقت، فيقول:

كأني أراها حين سعى الناس إليها من كل مكان في ليلة أحرقت مردة الهموم، بشهب من نيران النفط كالنجوم الرجوم، فبينما الناس في لهو

ولا شك في أن هذه المقامة وصفت التفاصيل المعمارية أجمل وصف. وما أحوجنا إلى الكثير من وصف تلك التفاصيل.

وفرح، وبسط من الأنس ومرح إذ أطلع فلك سماء الماء فلكاً تحمل أشجاراً من نار، يقذف النفط منها أنواعاً من الأزهار، من مفضض ومذهب ومدبج من ألوان اللهب، وأسهم تنسب مع إصابتها إلى الخطأ، وضوء شمس يكشف عن وجه الظلام الغطاء في ليلة ينجاب عن وجهها الظلام، وشاهد الناس فيها العجب، لما اصطلح الماء مع اللهب، وطار على وجه الماء فراس من ذهب، ودارت بأكف اللاعبين دواليب من نار، ومن غير رياش تدور على قلب ولا زنار؛ فيالها من نار أثلجت الخواطر، وأقرت برؤيتها من الحاضرين كل ناظر.

ولا شك في أن هذا وصفاً صادقاً للألعاب النارية التي عرفتها مصر منذ أربعة قرون ونصف. ثم استطرد في وصف البركة فقال: "فيا لها من بركة ماؤها بتجعيد الرياح كالمبرد يجلو عن القلوب الصدأ، افتخرت سماء مائها، بكواكب أسماكها؛ وإن افتخرت بشموسها وبدورها، افتخرت بشموس حسانها وبدورها، فهي في زمن النيل بمناظرها كالمساء ذات البروج، وفي زمن الخريف ذات شطوط ومروج؛ فإذا نضب عنها الماء خرج من سجن طينها من زغب الحب ما كان من المحابيس، وبرزت في حلل من زهر الربيع كأذناب الطواويس؛ يا لها من بركة إذا رآها الناظر أعلن بالتهليل والتكبير، ودعا بطول البقاء لمنشئها الأمير الكبير.

وختم هذا الوصف بما كانت عليه حوانيت التجارة حولها من رواج يشبه رواجها الحالي.

ظلت بركة الأزبكية عامرة بالدور والقصور حولها يسكنها أعيان مصر وسراتها. وألحقوا بدورهم الحدائق وأباحوها للشعب ينعم بالتنزه فيها، فكانت فرحة لسكان القاهرة يهرعون إليها في الصيف والربيع ينعمون بالتنزه حول مياهها والتمتع بمباهجها. وعند جفافها ينعمون بخضرتها وزهورها وتقام حولها أهم الحفلات.

وحينما زار مصر الرحالة عبد الغني النابلسي سنة ١٦٩٣م نزل في دار[١] أسرة البكري المطلة على البركة وكانت وقتئذ مزروعة فتناقش في مساحتها، وهل هي أعرض من مرجة دمشق أم المرجة أعرض منها؟ مما دعاه إلى قياسها بالذراع الذي حدده بثلاثة أشبار؛ فكانت مساحتها ١٠٥٠ ذراعاً طولاً في ٤٤٢ ذراعاً عرضاً.

وفي سنة ١٧٧٦م وقع حريق كبير في أحد[٢] الأحياء حول البركة كان سبباً في تلف كثير من الدور الكبيرة، غير أن ولاة الأمور وقتئذ حتموا سرعة تعميرها بدرجة أنهم ألزموا غير القادرين على التعمير ببيع ما يملكون لمن يستطيع التعمير. وهكذا تم تعميرها في أقرب وقت، فلم يحل ميعاد الفيضان الثاني حتى كانت الأزبكية أبهج وأحسن مما كانت عليه، وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه.

---

(١) الحقيقة والمجاز رحلة النابلسي ص ٢٣٢ خط.

(٢) عجائب الآثار جـ ٢ ص ٢– ٣.

وعند احتلال الفرنسيين لمصر اغتصبوا كثيراً من قصورها وأقاموا فيها وأنشأوا في سنة ١٨٠٠[١] مسرحاً كوميديا كما أقاموا مطاعم وملاه خاصة بهم حولها.

وكان يشرف على البركة حي الأقباط المعروف الآن بحارة النصارى، وكانت دوره كبقية دور القاهرة حافلة بالمشربيات والشبابيك الخرط، وهو الطراز السائد لأحياء القاهرة.

ومن الدور التي كانت تشرف على البركة وأبيحت حدائقها للجمهور: دار السيد إبراهيم بن السيد سعودي. وكانت من الدور الكبيرة التي عني بتشييدها وصرف عليها مبالغ كبيرة. أباح حدائقها المتاخمة لبركة الأزبكية لعامة[٢] الناس يتنزهون فيها.

وهذه الدار هي التي آلت إلى الأمير مُحَمَّد بك الألفي سنة ١٧٩٦م فهدمها وتغالى في بنائها، ولم يسكن بها سوى أيام حتى وقع الاعتداء الفرنسي الممقوت فاغتصبها الفرنسيون وأقام بها ساري عسكر بونابرت ثم الجنرال كليبر، وبها قتل.

ومن تلك الدور دار الشرايبي، وكانت على الحافة الشرقية للبركة، وهي إحدى دور المجد، ألحقت بها مكتبة قيمة حفلت بكتب العلم في

---

(١) عجائب الآثار للجبرتي جـ ٣ ص ١٤٢.

(٢) عجائب الآثار للجبرتي جـ ٣ ص ٢٤٣.

مختلف الفنون عُرضت للجمهور على الطريقة الحديثة؛ فيدخل الطالب فيختار ما يحلو له ليطالعه في المكتبة أو يستعيره خارجها(١).

وقد تنقلت ملكية هذه الدار حتى آلت إلى الأمير رضوان كتخدا الجلفي فأدخل عليها تعديلات ووسع حدائقها وأباحها(٢) للنزهة وخاصة أيام فيضان النيل. ثم آلت إلى طاهر باشا ناظر الجمارك، ثم عباس باشا الأول فهدمها وأعاد بناءها، ومنذ ذلك الوقت أطلق على تلك المنطقة اسم العتبة الخضراء بدلاً من(٣) العتبة الزرقاء، ومحلها الآن الحديقة وسط ميدان العتبة الخضراء. وكانت مدرسة الألسن على البركة، ثم حولت إلى فندق للإنجليز عرف فيما بعد بفندق شبرد.

وفي منتصف القرن التاسع عشر ردم أكبر قسم من البركة، فأزيلت الكيمان التي كانت مجاورة لها وأقيمت المتنزهات وشُيِّدت المنتديات.

وفي سنة ١٨٦٤م ردمت البركة وضمت إلى الحديقة التي أعيد تنظيمها، وأقيمت بها البرك والأكشاك والجبلاية ووضعت بها(٤) الطيور المغردة، وأضيئت بغاز الاستصباح، وشقت بها الشوارع حسب تخطيطها الحالي. وأنشئ بجوارها ثاني مسرح كوميدي. ثم أنشئت دار الأوبرا سنة ١٨٦٩م.

---

(١) عجائب الآثار للجبرتي جـ ١ ص ٢٠٤.
(٢) عجائب الآثار للجبرتي جـ ١ ص ١٩٢.
(٣) عبر البشر في القرن الثالث عشر ص ٤٨ خط.
(٤) المحاسن البهية في حديقة الأزبكية ص ٥– ٧.

وفي سنة ١٨٩٩م تم إنشاء فندق الكونتننتال واحتفل بافتتاحه.

وفي ٢٧ أبريل سنة ١٩٥٤ شقها شارع ٢٦ يوليه ذلك الشارع العظيم مضرب الأمثال في سرعة التنفيذ، وفتحت أبوابها للشعب ينعم بها ففرَّجت كرب الفقراء المحيطين بها وتنفسوا هواء نقياً استخلص الحمد والدعاء الخالص بدوام التوفيق للقائمين بهذا العمل الجليل.

وكذلك أباح الكثير من أغنياء مصر حدائق دورهم لجيرانهم ينعمون بالتنزه فيها. وكانت حدائق الدور الكبيرة وسط أحياء القاهرة بمثابة حدائق عامة تنفس بسعتها عن سكان الحي.

وممن أباح حديقة قصره وعلى نطاق واسع، الأمير قاسم بك أبو سيف المتوفى سنة ١٢١٦هـ- ١٨٠١م، فقد كان قصره يشغل مساحة كبيرة من أراضي البركة الناصرية، يحيط به حديقة كبيرة تشقها قنوات الماء التي تصل إلى البركة أيام فيضان النيل، وأحكم جريان الماء في قنوات مرتفعة، وغرس فيها الزهور والفواكه والنخيل والأشجار[١]. ونسق بها جلسات مفروشة لخاصته ظللها بالزهور، وأباح للناس الدخول إليها، والتنزه في رياضها، ووضع لافتة على أحد الأشجار بمدخلها كتب عليها: (حديقة الصفصاف والآس، لمن يريد الحظ والائتناس).

([١]) عجائب الآثار للجبرتي جـ ٣ ص ٢١٩.

نماذج تطبيقية للفن المعماري

في مدينتي: الفسطاط والقاهرة، مع عناصر زخرفية

د. : مصطفى عبد الله شيحة

تُعد العمارة الإسلامية في مقدمة أنواع العمائر العالمية، ومفخرة للتراث الإسلامي في شتى بلاد العالم الإسلامي؛ بفضل ما قدَّمته عمارة الإسلام من تنوع في البناء وشمول في عناصر الإبداع الفني والجمالي وابتكار في الجوهر وفي التفاصيل، والعمائر الإسلامية على اختلاف تنوعها ووظائفها، إلا أنها تشكل وحدة معمارية ذات طابع واحد وأغراض متعددة وعناصر معمارية مبتكرة وقيمة جمالية رائعة، إنها قدرة مهندس وبنَّاء وصانع وفنان، قدرات ومهارات اجتمعت لتشكل معاً وحدة فنية في طابع مدرسة الفن الإسلامي.. حقيقة قد تختلف العمائر الإسلامية في تفاصيلها المعمارية والزخرفية من بلد لآخر ولكن عناصرها الأساسية واحدة، وجوهر نماذجها واحد، وهذا الاختلاف في التفاصيل يزيد من عناصرها وأصولها الواحدة، يزيدها جمالاً وفناً وقدرةً في المهارات والإبداع.

لقد ضمت المدينة الإسلامية كل نماذج العمارة الإسلامية، وكذلك طرز الزخرفة المتنوعة بحيث صارت العمارة والزخرفة وحدة فنية متحدة، لا يمكن الفصل بينهما، وهو الأمر الذي أكسب الفن الإسلامي مظهراً جمالياً رائعاً اتحدت فيه العمارة الدينية والمدنية والحربية بعناصرها ونماذجها المتنوعة مع الأساليب الزخرفية المتطورة والمتنوعة معاً.

جمعت المدينة الإسلامية بداخلها من نماذج العمارة الدينية والمدنية والحربية كل ما هو معروف تقريباً من تنوع نماذج البناء، فالعمارة الدينية تبدو واضحة في المساجد الجامعة والأخرى المنتشرة في المدينة ومع التطور الزمني ظهرت المدارس والخوانق والتكايا والزوايا والقباب وغيرها، ونماذج العمارة المدنية واضحة في تخطيط القصور والمنازل والحمامات والأسواق والربا ع والقناطر والوكالات والبيمارستانات وغيرها، والعمارة الحربية جلية واضحة في أسوار المدينة حيث يتخللها البوابات والأبراج التي تدعم أسوارها، وفي كل هذه الأنواع المعمارية الدينية والمدنية والحربية ظهرت النماذج التطبيقية لفن العمارة الإسلامية من خلال العناصر المعمارية الخاصة بالأبنية الدينية، حيث نجد في العمارة الدينية المصطلحات الخاصة بهذه العناصر كبيت الصلاة والرواق والبلاطة والفناء أو الصحن والبائكة والإيوان والمحراب والمنبر والمئذنة والمقصورة وبيت المال والميضأة والقبة والقبو، ثم الواجهات والمداخل التي ميزت العمارة الدينية الإسلامية من غيرها من المنشآت المعمارية الأخرى.

هذا فضلاً عن العقود بأنواعها وأشكالها المتباينة، وفي مجال العمارة المدنية تبدو القصور الإسلامية بروعتها في واجهتها وقاعاتها وأفنيتها وردهاتها ودهاليزها وأعمدتها وجواسقها وزخارفها، وفي مجال العمارة الحربية، تظهر الأبراج المتعددة الطوابق للدفاع والمراقبة وفي الربط بمشتملاتها من الوحدات المعمارية وفي فتحات السهام للدفاع، وفي فتحات صب المواد الكاوية على رؤوس المقتحمين وفي الدهاليز الداخلية والممرات داخل الأسوار.

والواقع أن هذا البحث الموجز يتناول عدة نقاط تتعلق بالمدينة الإسلامية في بعض مشتملاتها المعمارية كنماذج تطبيقية كانت من المنشآت التي حرص المعمار على توافرها في المدينة لأهميتها في استمرار الحياة فيها، حيث ستشير إلى الاكتشاف الأخير في مدينة الفسطاط الذي قمت بإنجازه (١)، ويختص بالكشف عن شبكة تزويد المدينة بالمياه العذبة من ساحل النيل المشرف عليها، وكذلك الإشارة إلى منازل الفسطاط القديمة، والبوابات الأثرية بمدينة القاهرة التي ترجع إلى فترة العصر الفاطمي بمصر، كما أننا سنتناول أيضاً بإيجاز الإشارة إلى بعض العناصر الزخرفية القديمة التي اقتبسها الفنان في العصر الإسلامي واستخدامها كنماذج تطبيقية على تحفه وعمائره.

تُعد مدينة الفسطاط التي شيدها عمرو بن العاص غداة فتحه مصر، من أهم عواصم المدن الإسلامية القديمة الباقية، رغم تقلص مساحتها اليوم، وتهدم مبانيها، وقد كشفت الحفائر العلمية التي أجريت فيها عن نماذج فريدة أوضحت تخطيط شوارعها ودروبها وحاراتها ومنازلها ووحداتها المتنوعة ووسائل إمدادها بالمياه والتخلص من مخلفات المياه، وأحمد الله سبحانه وتعالى بأن مكنني من الحفر العلمي في الفسطاط لمدة تقارب التسع سنوات، كشفت فيها عن بعض منازلها وقاعاتها الصيفية المحفورة في باطن الصخر ومستودعات المياه العذبة وقنواتها، التي أوضحت لنا تلك الأساليب العلمية عند مآخذ المياه ثم سيرها في شوارع المدينة ودروبها حتى تصب في مستودعاتها، ومنها قنوات أخرى تتفرع من هذه المستودعات لتصب في مستودعات أقل داخل المنازل الكبيرة، وقد أوضح هنا

الاكتشاف مدى حرص المعمار والمخطط معاً على سلامة استخدام المياه الصحية في هذه المدينة الكبيرة التي ظلت تنمو حتى نهاية العصر الفاطمي.

إمداد المدينة بالمياه:

تميزت مدينة الفسطاط منذ أن وضع عمرو بن العاص تخطيطها وتوزيع مناطقها بين القبائل العربية المختلفة التي صحبته في فتح مصر تميزت بقربها من نهر النيل، ومن الميناء القديم الذي كان قائماً بجوار حصن بابليون، فضلاً عن حماية المدينة من النواحي الشرقية والجنوبية الشرقية بتلال جبال المقطم (٢)، وقد بدأ إنشاء منازل الفسطاط بمجرد الانتهاء من الاستيلاء على حصن بابليون، حيث وضع أساس المنازل الأولى التي كانت بطبيعة الحال بسيطة في عمارتها، ولكنها موزعة على أساس هندسي في أخطاط متجاورة، وشيد الجامع العتيق وهو المسجد الجامع على مقربة من النيل بالمدينة (٣)، وظلت هذه المدينة في نمو واضطراد حتى اكتظت بالمباني المتنوعة ثم تلاحمت منشآت العسكر والقطائع معها، وبلغت ذروة ازدهارها في العصر الفاطمي، فكان بها الدور الضخمة المشيدة من عدة طوابق على أسس هندسية متينة، وقد كشفت الحفائر عن عدد لا بأس به منها.

لقد كان من الطبيعي بعد ازدهار المدينة ونمو الحياة فيها أن يتم التفكير في ربط هذه المدينة بشبكة من المياه العذبة لتمد المنازل والمنشآت الأخرى بالمياه بأسلوب علمي وهو الأمر الذي ترجمه المعمار بنموذج نادر

من شبكات المياه في المدن القديمة الباقية، وكان من حسن حظي أن وفقني الله سبحانه وتعالى في الكشف عنه لأول مرة، ففي آخر موسم من مواسم الحفر الأثري في عام ١٩٧٢م، إذا بمعول الحفار يصطدم بجدار سميك ليكشف لنا بعد ذلك عن قناة من أنابيب الفخار المتصلة في باطن الجدار يستمر سيرها في اتجاه عرضي يشق المدينة بغير انتظام، ويتفرع من هذا المجرى الرئيسي عدة قنوات من أنابيب الفخار المتصلة، حيث تنتهي لتصب في مستودعات أعدت بعناية فائقة لتخزين المياه بها في باطن الأرض وفق أسلوب عني به المعمار في بناء جدرانها سميكة وتغطيتها بطبقة قوية من البلاط لا تتفاعل مع المياه، فضلاً عن حرصه على تنظيف هذه المستودعات كلما لحقت بها الشوائب، وذلك بعمل أرضية المستودع مائلة جهة الوسط لتصب بقايا المياه عند التنظيف في حوض صغير وسط أرضية المستودع غائر قليلاً في أرضيته، وذلك لتجميع ما بقي من مخلفات التنظيف فيه حتى يمكن التقاطها، ونعتقد بأنه كان يغلب على تغطية مثل هذه المستودعات القباب، نظراً لبقاء حَنيَّه من على السطح، أغلب الاحتمال أنها كانت ضمن أربع حنايا استخدمت في مناطق الانتقال للقبة.

كشفت الحفائر التي قمت بها عن مستودعين كبيرين، كان موقعهما بين الدور الفخمة والمنازل الكبيرة المتعددة الطوابق بالمدينة وقد أكد لنا العثور على خط من الأنابيب الفخارية يخرج من سمك جدران المستودعين بقصد إعادة توصيل المياه العذبة إلى المنازل الكبيرة المحيطة بها، كما هو الحال في عصرنا الحاضر، بمعنى ربط هذه الدور الكبيرة بشبكة من المياه تسير وفق نظرية الأواني المستطرقة، أما عن تاريخها فيدل العثور على تحف

أثرية وإن كانت قليلة أثناء رفع مخلفات الأتربة بداخلها على نسبتها لفترة العصر الفاطمي وخاصة في القرن الخامس الهجري/ ١١م، وهو الأمر الذي يؤكد مدى ما كانت عليه عمارة مدينة الفسطاط في العصر الفاطمي من روعة في التخطيط وفي البناء المعماري.

وكشفت لنا الحفائر ذاتها في نفس الموسم عن المصدر الذي يتم الإمداد بالمياه منه وقد استغرق الحفر الأثري في الكشف عنه مدة عامين، حيث ثبت العثور على ساقية كبيرة أسفل أرضية فناء جامع عمرو بن العاص مغطاة بقبو كبير كان يتم رفع المياه منها إلى الخط الرئيسي الذي تتفرع منه القنوات الفرعية لتصب في المستودعين، وبطبيعة الحال نعتقد بوجود مستودعات أخرى لم يتم الكشف عنها حتى الآن، وإذا كان نهر النيل هو المصدر الأساسي الذي كان يمد مدينة الفسطاط في ذلك الزمن بالمياه فإن بركة الحبشي ذات المياه العذبة كانت هي الأخرى تمد مدينة الفسطاط بمياه عذبة من خلال قنوات أخرى ممتدة داخل شوارع المدينة ودروبها، إلا أنه لم يتم حتى الآن الكشف عن هذه القنوات.

هذا وتوضح لنا أساليب بناء هذه القنوات الموصلة للمياه ذلك النموذج التطبيقي الجيد الذي عالجه المعمار في هذه الفترة بقصد المحافظة على سلامة الأنابيب الفخارية المتصلة في جعلها في سمك بناء الجدران الموجودة بداخلها، إذ أنه لم يجعلها على سطح الجدران وإنما بداخلها حتى لا تتعرض المياه للتلوث أو أن تكون عرضة للتلف من جرَّاء عوامل التعرية، وقد زاد من قوة اندفاع المياه جعل الجدران لا تمتد مستقيمة بل

منكسرة في امتدادها مما يحقق للمياه قوة اندفاع كبيرة، تساعد في اندفاعها على التخلص من أي عوائق قد تترسب كالطمي أو غيره، لاسيما وأن المياه غير مكشوفة، كما أننا لا نستبعد أن يكون المعمار قد جعل له نقط ارتكاز في القناة الرئيسية من النيل وحتى المستودعات التي تصب فيها المياه كنقاط للكشف دوماً الفرع الرئيسي.

على أن وجود هذه القناة الرئيسية وفروعها الكثيرة في مدينة الفسطاط التي يتعدى طولها أكثر من ثلاثة كيلومترات، لا يتنافى مع ما ذكره بعض المؤرخين في إشارتهم التاريخية عن تزويد المنازل بروايات المياه العذبة بواسطة سقاة المياه في الفسطاط كان بها الدور الكبيرة والأخرى الصغيرة، وكان مستوى الحياة فيها متفاوتاً بين الطبقات وقد سكنها كثير من التجار وأصحاب المصانع وغيرهم.

أما عن أسلوب التخلص من مخلفات مياه المنازل فنماذجه واضحة جلية إلى الآن في منازل مدينة الفسطاط، إذ تدل ظاهرة الآبار الكثيرة المنتشرة والباقية بالمدينة على استخدامها لتلقي عوادم المياه من المنازل وبعضها صغير والآخر كبير، والحق أن ظاهرة الآبار الكثيرة بشكل لافت للنظر في هذه المدينة تجعلنا نعتقد بأن مساجد هذه المدينة الأولى التي اختارها عمرو بن العاص لتكون أول حاضرة في مصر في العصر الإسلامي، كان بها نوع من الحياة قبل العصر الإسلامي في العصر البيزنطي، إذ أنه من المستحيل حفر هذه الآبار الكثيرة في هذه المنطقة دون أن يكون لها دلالة على وجود نوع من المعيشة بها، فربما كان بهذه

المنطقة بعض ثكنات الجيش الروماني ثم البيزنطي لاسيما وأن موقعها خلف حصن بابليون الذي رابض عمرو بجيشه خلفه، أما عن وسيلة صرف المياه من المنازل إلى هذه الآبار فكان يتم خلال الأنابيب الفخارية المتصلة التي تنتهي عندها، وكثير من الآبار الصغيرة كان يتم تغطيتها، حتى لا يتعرض أحد من المارة إلى الوقوع فيها، كما كان يتم التعلية بحوائط صغيرة تحيط بالآبار الكبيرة.

لقد ساعد قُرب حواضر مصر الإسلامية من نهر النيل على إمدادها بالمياه العذبة كما كان في مدينة الفسطاط ومدينة القطائع التي أنشأها أحمد بن طولون، وإن تطور الأمر بإنشاء قناطر معقودة تجري أعلاها قناة تستمد مياهها من جهة البساتين حتى يتم توصيل المياه إلى مدينته الجديدة في قصره ومسجده الجامع، وكذلك أخطاط المدينة، كما كان لمنشآت مدينة القاهرة في العصر الفاطمي مستودعات مياه كثيرة وأحجامها مختلفة لتخزين المياه، لعل منها ما كشف أخيراً تحت أطلال المدرسة الصالحية بشارع المعز لدين الله الفاطمي الذي كان من المحتمل أن تمد مياهه القصر الشرقي الكبير، ولعل بقاء سور مجرى العيون بالقاهرة بدءاً من محاولات إنشائه منذ العصر الأيوبي وتكامله في العصر المملوكي ليعطي صورة واضحة عن إنجازات المعمار وفن هندسة البناء كنموذج تطبيقي للعمارة في العصر الإسلامي(٤).

نماذج تطبيقية من منازل الفسطاط:

بقيت في مدينة الفسطاط عدة منازل إسلامية قديمة أسفرت عنها أعمال الحفر الأثري في فترات مختلفة من هذا القرن (٥)، من أهمها ما كشف عنه الراحل الدكتور علي بهجت، وغيره من العلماء المصريين والعلماء الأجانب في البعثات الأجنبية التي عملت في مجال التنقيب عن الآثار في مصر، حيث تعود هذه المنازل في تاريخها إلى العصرين الطولوني والفاطمي، وهي على جانب كبير من الأهمية، سواء في فكرة التصميم المعماري أو تعدد الطوابق أو في استخدام مواد البناء المختلفة، أو غير ذلك من توافر العناصر المعمارية والزخرفية.

أما عن فكرة التصميم المعماري، فقد راعى فيها مهندس البناء جوانب مهمة كمراعاة حجب السكان عن المارة باستخدام المداخل المنكسرة التي لا تتيح لمن بالخارج رؤية من بالداخل وتحفظ للمنزل حرمته، وأيضاً روعي في التصميم المعماري حرارة الشمس وشدتها، وقد تغلب على ذلك ببناء الجدران السميكة واستخدام الأقبية والقباب في بعض الأحيان في التغطية وعمل فراغات داخلية تساعد على تلطيف درجة الحرارة داخل المنازل واستخدام ملاقف الهواء لزيادة سرعة حركة الهواء في تخفيف حدة الحرارة، هذا بالإضافة إلى هدف التصميم الرئيسي في توفير وسائل الراحة داخل المنزل مهما كان حجمه في احتوائه على فناء رئيسي تتوسطه عادة فسقية مياه على جانبيها أحواض للزرع (٦)، وفي احتواء هذه المساكن على إيوان رئيسي للاستقبال وبعضها احتوى على إيوانين متقابلين، بل أن تخطيط أو تصميم الإيوانات الأربعة ثبت وجوده بمنازل الفسطاط متعامدة على فناء رئيسي، فضلاً عن حجرات المعيشة المتعددة بالمنزل والوحدات

الأخرى اللازمة من مطابخ ودورات مياه وإسطبل للدواب وغير ذلك، وقد روعي في التصميم دقة التزام واجهات المنازل المطلة على الشوارع والدروب بشكل منظم – هذا ويتضح في تصميم منازل الفسطاط تأثير المنازل العراقية عليها (٧).

أما فكرة تعدد الطوابق في مدينة الفسطاط فقد جاءت وليدة عدة اعتبارات منها أن التصميم والبناء في مواضع مختلفة من المدينة كان يتبع إلى حد كبير طبيعة الأرض المشيد عليها البناء، فإذا كانت دكة الأرض صخرية بني الطابق الأرضي للسكن مباشرة، وإذا كانت رملية رفع الطابق الأول على دعامات وأعمدة من الآجر متين البناء واستخدم لغرض التخزين أو للأغراض المنزلية الأخرى، وهذا ما يمكن أن يتضح للمتجول في أطلال منازل الفسطاط ثم تتعدد الطوابق بعد ذلك وفقاً لثراء صاحب المنزل وحالته الإجتماعية، وقد أشار بعض الرحالة بل أشادوا بتعدد طوابق مدينة الفسطاط، ويبدو تصميم تعدد الطوابق واستمراره في مصر في أمثلة عديدة، وإن كانت منازل مدينة رشيد بمصر (٨)، تميزت بنفس فكرة التصميم في تعدد الطوابق في المنزل المصري، وإن استمرار هذا الأمر حتى العصر العثماني، إنما مرده إلى تأثير منازل ودور الفسطاط القديمة عليها، وقد تميَّزت هذه المنازل بتصميم المشربيات الخشبية الدقيقة الصنع في واجهاتها وبوجود تصميم الفراغات الكبيرة واستخدام الدواليب الخشبية في قاعاتها الرئيسية وحجرات المعيشة بداخلها.

ولقد كان من الطبيعي في تصميم وبناء دور الفسطاط القديمة استخدام مواد البناء المتوافرة في البيئة ذاتها لاسيما مادة الآجر من قوالب صغيرة الحجم تميزت بها هذه الدور بجانب استخدام قليل من الأحجار في الأدوار السفلى للتدعيم واستخدام ملاط قوي ناتج من مكونات متوفرة في البيئة ذاتها، وقد استطاع المعمار ببراعة مطلقة تكوين أشكال مختلفة من أنواع العقود المدببة والمستديرة ذات وظيفة معمارية وزخرفية في الوقت نفسه، مع استخدام ميدات خشبية بين مداميك البناء بقصد التقوية في بعض الأحيان، فضلاً عن استخدام عناصر الزخرفة الجصية في تحلية الجدران من الخارج والداخل على حد سواء، سواء أكانت هذه الزخارف متأثرة بطرز سامراء الثلاثة أم كانت بأسلوب الأوان المائية (الفرسكو)، وهو الأمر الذي عثر من خلاله على بعض الزخارف المائية في المنازل الطولونية المتاخمة لمدينة الفسطاط حالياً، حيث يحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ببعض منها، وبإيجاز فإن المعمار والمزخرف جمعا بين التصميم والزخرفة في المنزل الإسلامي القديم في آن واحد.

على أي حال فإن نماذج التصميم التطبيقي للعمارة الإسلامية تبقى واضحة في معالم الدور السكنية بمدينة الفسطاط كأحد المدن الإسلامية المبكرة التي تركت تأثيرها المتواصل على العمارة السكنية بعناصرها المعمارية والزخرفية التطبيقية.

وإذا كانت مدينة الفسطاط بنماذجها الباقية تعد غاية في الأهمية حالياً لقدم تاريخها، فإنه على الجانب الآخر تحظى مدينة القاهرة بنماذج

باقية من فن العمارة الإسلامية طوال عصورها المتتابعة منذ تأسيس جوهر الصقلي لهذه المدينة في عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، حيث ظلت هي الحاضرة الرابعة لمصر خلال العصر الأيوبي فالمملوكي فالعثماني وحتى وقتنا الحاضر.

نماذج تطبيقية من مدينة القاهرة:

كان جوهر الصقلي قائد جيش الفاطميين عند دخوله مصر، موفقاً في اختيار موقع المدينة الجديدة التي سميت بالقاهرة، على نفس الامتداد الشمالي الشرقي للمدن الثلاثة السابقة: القطائع فالعسكر فالفسطاط، في مساحة فسيحة خالية (٩) قريبة من نهر النيل، اختطها جوهر لتكون الحاضرة الرابعة لمصر وقصراً جديداً للدولة الفاطمية بعد أن ساءت أحوالها في بلاد المغرب، لذلك كان الاختيار في الموقع سهلاً على جوهر الصقلي، حيث اختط فيه مدينته الجديدة، فشرع في رمي الأساس، حيث كانت البداية بطبيعة الحال بعمل الأسوار، وفي ذلك يذكر المقريزي "فأدار السور اللبن على مناخه الذي نزل فيه بعساكره وأنشأ داخل السور جامعاً وقصراً وأعدها معقلاً يتحصن به وتنزل عساكره" (١٠).

نشطت حركة البناء والتعمير في هذه المدينة الجديدة فأخذت الأسوار ترتفع والأزهر يسطع نوره والقصور تكتمل، ومن حول ذلك منشآت تبنى وبساتين تحيط في مساحة لا تتعدى حوالي الأربعمائة فدان بغرض أن تكون مدينة خاصة للفاطميين، لا يسكنها إلا الخلفاء والوزراء

ورجال الدواوين وحاشيتهم، وقد ظلت مدينة القاهرة منذ أن أنشأها جوهر الصقلي هي حاضرة مصر خلال العصور الإسلامية المتتابعة.

لقد حفلت مدينة القاهرة بنماذج تطبيقية كثيرة من فن العمارة، تمثلت هذه النماذج في عمارة الأسوار والأبراج والمساجد والمشاهد والأضرحة وفي القصور، وهي تحمل بعناصرها المعمارية والزخرفية رياح التطور والتأثيرات المتبادلة الجديدة والممتزجة معاً، بعد أن أخذ الفن الإسلامي ثباته واستقراره وتشكيله من خلال مرحلة سابقة من التطور، بحيث يمكن القول بأن فترة العصر الفاطمي في مصر تؤلف وحدة معمارية مستقلة في الفن الإسلامي إذ امتزجت الأساليب الفنية والصناعية والزخرفية المحلية بأساليبها المتوارثة في مصر مع التأثيرات الوافدة من شمال أفريقيا والشام والعراق، بل أن الجذور القديمة لعناصر الزخارف الهيلينية لم تغب في أصول الزخارف في العصر الفاطمي في مصر، وإن كانت قد خفت وقل تأثيرها بل وأصبحت بعد ذلك ذات طابع إسلامي بحت.

والحق أن النماذج التطبيقية في مدينة القاهرة خلال العصر الفاطمي كثيرة ويصعب جمعها في هذا البحث الموجز، لذلك نشير بإيجاز إلى مثال واحد تمثل في عمارة بوابات القاهرة القديمة كنموذج لأعمال الدفاع عن مدينة القاهرة وتحصينها.

العمارة الحربية في مدينة القاهرة:

لقد كانت مدينة القاهرة بتخطيطها هي المدينة الأولى ضمن عواصم مصر السابقة التي حظيت منذ بداية تأسيسها بعناية فائقة في توافر الأمن والحماية، وهذا ما فعله جوهر الصقلي عند تخطيط المدينة في حفر أساس الأسوار، ثم رفعها وتزويدها بالأبراج والبوابات التي تسمح بالدخول إليها والخروج منها، ولعل هذا الدافع كان مرده متاخمة عواصم ثلاث سابقة على القاهرة كانت حدودها قد وصلت إلى القرب من المدينة الجديدة، فضلاً من الهدف الأساسي من إنشاء المدينة الجديدة في كونها مدينة رسمية وليست لعامة الناس، لذلك فقد كانت أسوار جوهر ترسم مستطيلاً غير منتظم الأضلاع طوله حوالي ألف ومائة متر من الشرق إلى الغرب وألف ومائتي متر من الشمال إلى الجنوب (١١)، تتخللها ثمان بوابات في الجهات الأصلية الأربعة في الشمال باب الفتوح وباب النصر، وفي الجنوب أبواب زويلة والفرج، وفي الشرق باب البرقية وباب القراطين، وفي الغرب باب القنطرة وباب سعادة، واستخدمت مادة الطوب اللبن للبناء من قوالب كبيرة الحجم، وبنيت جدران الأسوار سميكة، يزيد سمكها عن المترين (١٢).

ظلت أسوار القاهرة التي بناها جوهر الصقلي باقية إلا أن عوامل الزمن أصابتها مما دفع بالوزير بدر الجمالي أن يجددها، إلا أنه أضاف تعديلاً عليها بعد توسعته لمدينة القاهرة شمالاً وجنوباً، وقد بنى الأسوار الجديدة من الحجر المنحوت بدلاً من الطوب اللبن اعتباراً من عام

٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م، وظلت العمارة متصلة بها حتى فرغ من عمارة باب زويلة في الجنوب عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.

وقد بقي من عمارة الأسوار والأبراج التي ترجع إلى أعمال القائد بدر الجمالي بابا: النصر، والفتوح.. في شمال القاهرة، وباب زويلة في جنوب القاهرة، إضافة إلى الممر المدعم بأبراج الذي يصل بين بابي الفتوح والنصر وأجزاء أخرى قليلة، كما ظلت عمارة الأسوار التي بناها جوهر من الطوب اللبن قائمة وإن تهدمت حتى القرن التاسع الهجري/١٥م حين رآها المقريزي وذكرها في خططه (١٣).

تميزت أبراج القاهرة بكثير من العناصر المعمارية الحربية بل والزخرفية أيضاً، وحتى يمكن الإشارة إلى نماذجها القديمة وعناصرها (١٤)، فإن الأمر يتطلب إعطاء وصف معماري موجز عنها نظراً لما لها من أهمية.

في مجال عمارة المدن عامة والعمارة الحربية في مصر في العصر الفاطمي خاصة، فقد تجلت فيها دقة التصميم الهندسي ومتانة البناء وإحكامه، فهي أبواب ضخمة مشيدة من الحجر المصقول من أحجام كبيرة مدعمة بأعمدة حجرية تتخلل البناء مع استخدام مادة الآجر، خاصة في تغطية الأجزاء المعمارية بها، إضافة إلى الحرص على زخرفتها، مما يجعلها واحدة من أندر نماذج العمارة الحربية في العالم كله، مما حدا ببعض العلماء بنسبة تصميمها إلى مهندسين من خارج مصر (١٥)

باب النصر:

تشكل كتلة بناء هذا الباب مساحة مستطيلة الشكل ٢٤.٢٠م × ٢١.٦٣م، ويعتمد في تخطيطه على برجين كبيرين يبرزان خارج السور، تتوسطهما رحبة المدخل، مسقطها مربع الشكل ٨.٢٥م ويتحكم في الدخول والخروج باب خشبي كبير مصفح من مصراعين، البرجان مصمتان إلى ثلثيهما تقريباً ويشغل الثلث العلوي لكل برج حجرة دفاعية بها فتحات للسهام وتغطية قبة ضحلة من الحجر مناطق انتقالها من المثلثات الكروية، ويتم الوصول إلى هذا الطابق من خلال سلم تلتف درجاته على عمود حجري، مغطى بقبو، ويصل بين الحجرتين الدفاعيتين ممر فوق كتلة المدخل بأرضيته فتحات غائرة نافذة لصب المواد الكاوية إذا ما تمكن الأعداء من الوصول إلى البوابة.

يلاحظ وجود زخارف بارزة على هيئة درع حجري يكتنفه ترسان يتناسقان مع زخرفة أعلى كوشتي عقد فتحة المدخل، ويتوسط كل كوشة جامة بارزة لشكل ترس مزخرف بدوائر متداخلة يخترقه سيف، ويحصر واجهة المدخل من الخارج عقد كبير منفوخ داخل إطار زخرفي.

تبلغ سعة فتحة مدخل البوابة حوالي ٥م، ويعلوها عتب مزرر، هو المثل الأول من نوعه في تجميع الصنع المعشقة في العمارة الإسلامية في مصر، كذلك بالنسبة للعتب الآخر أعلاه ويعلوهما عقد عالق من نوع الصنجات المسلوبة، أعلاه نص تأسيسي بالخط الكوفي من ثلاثة سطور.

هذا ويزخرف كتلة المدخل ذاتها إطار بارز من الحجر، يستمر على واجهة البرجين من الخارج، مرتكزاً على حليات معمارية من الحجر، كما يتقدم المدخل من أعلى وعلى جانبي البرج سقاطتان للدفاع، باستخدام المواد الكاوية.

تؤدي فتحة مدخل البوابة إلى دركات داخل المدينة، يغطيها قبو حجري كبير ويغطي قبو شبه متقاطع الدخلة اليمنى والأخرى اليسرى، ويلاحظ وجود مشكولي بارز من الحجر في الضلع الجنوبي الشرقي من هذه الدركات (١٦).

باب الفتوح:

يختلف هذا الباب عن باب النصر في مسقط برجيه من الخارج إذ أنهما على شكل مستدير ويبلغ طول أطراف الواجهة حوالي ٢٣م ويشبه باب النصر في الثلثين المصمتين وفي الحجرتين الدفاعيتين مع بعض الاختلافات البسيطة، ويصلهما ممر أو دهليز جزء منه مغطى بقبو صغير على شكل نصف دائرة، يزين واجهة كل برج بارز من الخارج هيئة عقد نصف مستدير، يصل حتى قمة الطابق الثاني المصمت وكذلك على جانبيه، أما داخل البرجين فيلاحظ وجود عقد في كل ناحية ذي صنجة على شكل وسائد متماسة تظهر لأول مرة في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر ويحدد هيئة العقد من أعلى إطار مفصص.

يشاهد على فتحة المدخل من الخارج، عتب ذو صنجات مزررة، فوقه عقد نفيس، يعلوه عقد عاتق صنجاته مسلوبة، ويحدد هيئة هذا التكوين المعماري إطار حجري بارز على شكل عقد مفصص، ويتوج الكتلة المعمارية كلها عقد نصف دائري، زخرف باطنه بأشكال هندسية ونباتية على هيئة معينات متماسة، تحصر بداخلها أشكال من النجوم الخماسية، وورود متعددة البتلات والأشكال المحارية وأوراق اللوتس، ويعلو العقد الرئيسي السابق إفريز حجري محمول على ستة كوابيل حجرية كانت مزخرفة في الأصل برؤوس الكباش، إضافة إلى كابولين في الجانبين، يرتكزان على كتف حجري صغير بارز، ينتهي بحلية معمارية حجرية، ويعلو هذا الأفريز أيضاً عقد موتور صنجاته مزررة، ترتكز عليه الفتحات الخمس النافذة والمعدة لإلقاء المادة الكاوية على المقتحمين، ويتوج كتلة هذا الباب مشرفات معقودة.

يغلق على فتحة مدخل البوابة، باب خشبي سميك من مصراعين، مصفح بالحديد، وتفضي فتحة المدخل إلى دركات مغطاة بقبة حجرية ضحلة مناطق انتقالها من أشكال المثلثات الكروية، يكتنفها من الجانبين دخلتان عميقتان، يغطي كل منها قبو نصف دائري، وتشرف على داخل المدينة بواسطة عقد كبير نصف دائري.

يعلو كل برج حجرة دفاعية، الغربية منها مستطيلة الشكل ويغطيها قبو حجري متقاطع، وبصدر هذه الحجرة ثلاث فتحات للسهام، أما الحجرة الشرقية فيغطيها أيضاً قبو متقاطع وهي مماثلة للحجرة السابقة،

هذا ويصل بين البرجين رحبة أو ممر، أعلى مساحة فتحة المدخل تقريباً، مكشوفة في الناحية الجنوبية ومغطاة بقبو نصف دائري في الجزء الشمالي منها وتطل على خارج المدينة بوساطة خمس نوافذ معقودة نصف دائرية الشكل وبأرضيتها سقاطات صب المواد الكاوية.

باب زويلة:

أنجز بدر الجمالي هذه البوابة في نهاية تجديده للأسوار عام ٤٨٥ هـ/١٠٩٥م في جنوب المدينة، وتشغل مساحة مربعة الشكل، وتتكون من برجين مسقطهما على شكل نصف دائري، يشبه مسقط برجي باب الفتوح ويتوسط البرجين كتلة المدخل. والواقع أن هذه البوابة تشبه إلى حد كبير في كثير من تفاصيلها بوابة الفتوح، إلا أن تغييرات معمارية طرأت عليها نتيجة تعديل وإضافة من أعمال السلطان الملك المؤيد شيخ في عام ٨١٩ هـ/١٤١٧م، حتى فتح مجلساً (مقعداً) له في أعلى الضلع الشمالي الغربي من دركاة الدخول وذلك لمشاهدة المواكب والقوافل خلال دخولها وخروجها من وإلى المدينة، إضافة إلى استغلاله ارتفاع البرجين في بناء مئذنتيه الشهيرتين عليهما، مما ترتب عليه ضياع حجرتي الدفاع في الثلث العلوي لكل برج.

أما الممر الهام الذي يصل بين باب النصر وباب الفتوح، فيتمثل فيه روعة البناء الحربي ودقة الإحكام سواء في مساحته الكبيرة بين البرجين وطول امتداده أو في وسائل الأغطية باستخدام الأقبية المتنوعة أو في

فتحات السهام التي تؤمن هذا الممر في الدفاع عن المدينة من الناحية الشمالية، أو في تدرج المستويات بالنسبة للأرضيات بداخله، أو في غير ذلك من الأغراض الدفاعية التي نجح فيها المعمار إلى حد كبير.

والواقع أن نماذج العناصر التطبيقية التي نفذها المعمار في عمارته لهذه البوابات بأبراجها الباقية كثيرة ومتنوعة، فضلاً عما اندثر من الأبواب الأخرى التي كان بها على أغلب الظن عناصر أخرى ضاعت معالمها، وضاع معها الحديث عنها، ومن هذه العناصر استخدام الأشكال المربعة والمستديرة أو النصف الدائرية في عمارة الأبراج واستخدام تنوع أكبر في أشكال العقود نصف الدائرية، والعقود العاتقة والنفيسة والمزررة وظهور العقد ذي الوسائد واستخدام المقرنصات والمثلثات الكروية في مناطق الانتقال والعناصر الحربية الدفاعية والأعتاب المستقيمة والمزررة والأفاريز المحمولة على كوابيل وبعضها على شكل رؤوس الكباش والشرفات وفتحات السهام وفتحات صب المواد الكاوية والأبواب المصفحة بالحديد وغير ذلك من العناصر المعمارية.

أما في مجال العناصر الزخرفية فتبدو نماذج العناصر الزخرفية واضحة على هذه البوابات من زخارف على هيئة الدروع والتروس والسيوف، وهي عناصر توحي بطبيعة العمل الحربي الدفاعي لها، بجانب الزخارف الأخرى المعتاد استخدامها في المنشآت الدينية والمدنية ذات الطابع الهندسي والنباتي كالأشكال النجمية الخماسية والثمانية وأشكال الورود والزهور والأوراق النباتية المتنوعة، فضلاً عن الأشكال المحاربة ذات الأصول

الهيلينية القديمة وأوراق اللوتس النباتية القديمة وغيرها من الزخارف المتنوعة، التي حفرت بارزة وغائرة على هذه البوابات القديمة.

وقد كان لمثل هذه العناصر الزخرفية والأخرى المعمارية، أثرها المهم فيما حدث بعد ذلك من تطور لها واضح على عمائر مدينة القاهرة القديمة، وكذلك في مجال الفنون التطبيقية على مواد الفنون الزخرفية، خلال العصر نفسه وفي العصور المتتالية، بحيث يمكن القول بنشأة مدينة القاهرة، حدث تطور معماري وزخرفي، ظهر أثرهما بعد ذلك على المنشآت الدينية والمدنية والحربية في تطور أكثر.

نماذج تطبيقية من العناصر الزخرفية القديمة:

اعتمد الفن الإسلامي في نشأته الأولى على تأثيرات الفنون السابقة عليه، والواقع أن هذا الأمر لا يعيب الفن الإسلامي في شيء، فمن المعروف أن كل الفنون العالمية تأثرت بما سبقها من عناصر فنية حتى اكتمل لها أسلوبها وطرازها الخاص والمميز متخلصة بذلك من تأثير العناصر القديمة، ثم بدأت تؤثر وتتأثر بالفنون المعاصرة لها واللاحقة عليها.

والحق أن الفن الإسلامي قد اتبع هذا المنهج ولم يخرج عنه في بداية نشأته فقد اعتمد في بداياته على عناصر الزخرفة القديمة في الفنون السابقة عليه الساسانية والبيزنطية المتأثرة بالأسلوب الهيلنستي الأقدم، ساعد على ذلك تلك السياسة التي حدثت في البلاد المفتوحة، وهي سياسة التسامح الديني، حيث ترك لأهل الأمصار الاستمرار على ما كانوا عليه من

صناعات وحرف دون أن يتدخلوا تدخلاً ملحوظاً في منتجاتهم الفنية، فكانت الأساليب الفنية المحلية تتطور في كل إقليم تطوراً لا تفقد فيه كل صلتها بماضيها (١٦)، حتى بدأ الفن الإسلامي يشق طريقه في دور التكوين والنشأة.

لقد تفاوت الاقتباس من العناصر الزخرفية القديمة من بلد لآخر وفقاً لما كان سائداً فيها من طراز زخرفي، وإذا كنا عادة نجري في دراستنا الزخرفية للعناصر المختلفة التي اقتبسها الفن الإسلامي من الفنون البيزنطية والساسانية، بل وأصولها القديمة التي اعتمدت عليها، فإنه قد حان الوقت لدراسة جديدة نُضمنها للتأثيرات القديمة في الفن الإسلامي، في ضوء المكتشفات الحديثة في الجزيرة العربية بشمالها وجنوبها التي أسفرت عن حقائق جديدة، نعتبر من أهمها في هذا المجال وضوح طراز الحضارات السابقة على العصر الإسلامي في مجال الزخارف على اختلاف تنوعها (١٨)، ويزيد من هذا الأمر أهمية ذلك الإدراك الحضاري الذي صاحب المسلمين في فتوحاتهم في شرق وغرب العالم الإسلامي، فلم تكن حضارات شعوبها غريبة عليهم، كما يدعي بعض المستشرقين، أو لم يألفوها من قبل، وربما كان هذا الإدراك الفني الذي استوعبوه سريعاً هو السبب في تركهم لصناعاتهم وحرفهم تسير على ما كانت عليه من قبل دون تدخل منهم وحتى يتفرغوا لنشر الإسلام في بقاع الأرض.

لقد عاشت الجزيرة العربية في معظم فترات تاريخها في ظل حضارات متتابعة، شهد سكانها خلالها البناء والتعمير والكتابة والزخرفة والصناعات

والحرف والأمثلة على ذلك كثيرة، ومن ثم كان استيعابهم سريعاً كما سبقت الإشارة وحتى إذا ما بدأت ملامح الفن الإسلامي الجديد في التشكيل والبداية والنشأة، كان هناك أمر آخر صاحب طبيعة الفن الجديد من سمات خاصة تتطلبها العمائر الجديدة ومواد الفنون التطبيقية لتتوافق والغرض منها، متضمنة ملامح قديمة ظهرت بجانب الفنون الأخرى السابقة على الفن الإسلامي، وهذا موضوع قد نعود إليه في بحث آخر إذا شاء الله سبحانه وتعالى.

وإذا تتبعنا بعض العناصر الزخرفية القديمة التي انتقلت إلى الفن الإسلامي في تطوره، فسنجد أن هذه العناصر كثيرة ومتنوعة في مجالات مختلفة، فمن المعروف أن العناصر الآدمية والحيوانية وأشكال الطير لم تنل في الفن الإسلامي اهتماماً كبيراً بسبب النفور منها، رغم وجود أمثلة لها في القرن الأول والثاني للهجري/ ٧،٨م، إلا أن الإقبال عليها قد ساده التحوير والبعد عن التمثيل الواقعي وإهمال التفاصيل والنفور من التجسيم، وهو أمر يتمشى مع طبيعة الفن الإسلامي في نشأته الأولى.

أما الزخارف النباتية والهندسية فقد أقبل عليها الفنان في العصر الإسلامي بكثرة، بجانب إقباله الشديد على استخدام الخط العربي كعنصر جديد تماماً في مجال الزخارف فأبدع فيه وأجاد.

عناصر الزخارف النباتية:

أقبل الفنان في العصر الإسلامي على استخدام الزخارف النباتية بشكل واضح وفريد من نوعه بين الفنون كلها، ولعل هذا الإقبال مرده إلى طبيعة نشأة الفن في بدايته متأثراً بخصائصه الأولى في النفور من استخدام عناصر الزخارف الحيوانية وأشكال الطير تمشياً مع طبيعة الإسلام في البعد عن صناعة التماثيل وأشكال الصور، وفي وقت يتمشى مع تحريم عملها بعداً عن عبادة الأوثان والتأثر بمظاهرها، فقد جاء الإسلام ليحرم التماثيل وأشباهها ويدعو لعبادة الواحد الخالق سبحانه وتعالى، ومن ثم فقد انعكس هذا الأمر مباشرة على المنتجات الفنية للفن الإسلامي، حيث بدأ الإقبال السريع على استخدام عناصر الزخارف النباتية المتمثلة في الأوراق النباتية وفروعها وأشكال الورود المتنوعة التي تخيلها الفنان أو نقلها من العناصر القديمة حتى ظهر طراز سامراء الجديد في الربع الأول من القرن الثالث الهجري ليعلن عن طراز جديد، اتسمت فيه العناصر الزخرفية النباتية بالتحوير الشديد عن الطبيعة.

لقد كان من الطبيعي أن يتأثر الفنان في بداية الأمر بالتأثيرات الفنية القديمة الساسانية والهيلنسية التي استخدمت العناصر النباتية مثل الفروع النباتية وأوراق العنب وأوراق الأكانتس والمراوح النخيلية وأنصافها وكيزان الصنوبر وأشكال الورود وبعض ثمار الفواكه وسعف النخيل واستخدام الوحدات النباتية المركبة من أكثر من عنصر زخرفي نباتي واحد، وأن يستخدم أيضاً مثل هذه الوحدات النباتية الزخرفية متأثراً بنماذجها

التطبيقية القديمة في قربها من الطبيعة، واحتفاظها بكثير من التفاصيل الدقيقة حتى التعرقات النخيلية الدقيقة جداً بداخلها، وهو الأمر الذي يظهر على كثير من منتجات الطراز الأموي في مجال الفنون الزخرفية التطبيقية على مواد الخشب والحجر والرخام والخزف والمعادن والنسيج وغيرها، فقد جرى استخدام العناصر السابقة بكثرة وتحتفظ متاحف العالم بأمثلة واضحة من هذا التأثير.

على أن التأثر بعناصر الزخارف النباتية يبدو واضحاً في القرن الأول الهجري في زخارف قبة الصخرة بالقدس الشريف، التي بناها عبد الملك بن مروان، وحقاً فقد أنجزوا في زخارفها جمعاً متبايناً من الوحدات المختلفة ذات التأثيرات القديمة، جمع الفنان فيه بين الأوراق والثمار والأشجار جمعاً متبايناً بين الواقعية وبداية التحوير عن الطبيعة في الطراز الأموي الجديد.

إن المتأمل في الزخارف النباتية في قبة الصخرة في مدينة القدس ليجد الأوراق النباتية من أوراق العنب وأوراق الأكانتس وأوراق أزهار اللوتس وأوراق سعف النخيل ونبات القصب وغيرها في أشكال منظمة وبعضها متماثل إلى حد كبير، فضلاً عن النخيل والأشجار بفروعها وثمارها، فمن عناقيد للعنب وعراجين البلح وثمار الفواكه، ومثل هذه العناصر النباتية وثمارها المتنوعة من جذور قديمة في الفنون القديمة، وإنما استطاع الفنان أن يستخلص منها أشكالاً جديدة تتمشى وبداية نشأة الفن الإسلامي، ولاسيما في استخدامها في تزيين وزخرفة مبنى إسلامي جديد، فأصبح لها فيه طابعها المميز الجديد، وقد أضفى من جمالها وزاد في روعتها، بل وفي

صعوبة تنفيذها أيضاً، استخدام الفنان لها على الفسيفساء، وتجميعها بجانب بعضها بشكل دقيق وبألوان مختلفة، وقد حقق الفنان في ذلك في بداية الطراز الأموي تنفيذه في هذا الأثر علامة واضحة في أصل نشأة الفن الإسلامي لجمعه عناصر متباينة من وحدات الزخارف النباتية داخل مبنى واحد، مستخدماً في ذلك النماذج التطبيقية القديمة بذكاء وقدرة وبأسلوب جديد أفصح من بداية نشأة الزخارف النباتية الجديدة في الفن الإسلامي، فهو إذا كان قد اقتبسها من أصولها القديمة إلا أنه نفَّذها بحرية وابتكار جديدين، وهو الأمر الذي استخدمه أيضاً في تنفيذ زخارف الفسيفساء في الجامع الأموي بدمشق، ولكن على قدر أكبر من الحرية في تنفيذ عناصر الزخارف النباتية، وخاصة في استخدام الأشجار الكبيرة.

لقد تبع طراز الزخارف النباتية وتطوره في الفن الإسلامي مرحلة زمنية دامت لأكثر من قرنين من الزمان، وهي تسير متأثرة بمثيلاتها من الوحدات والعناصر النباتية في الفنون السابقة، وحتى ظهرت مراحل هذا التطور في النماذج المعروفة بطرز سامراء الثلاثة حيث يظهر في طرازها الأول تلك الصلة المباشرة مع نماذج العناصر النباتية القديمة ذات الجذور الهيلنسية في القرب من الطبيعة واستخدام التجسيم، وظهور التعرق النخيلي والعيون بين الفصوص، وفي الطراز الثاني بدأ يطرأ على العناصر النباتية التحوير الواضح، فظهرت الوحدات الزخرفية الكبيرة التي تميل إلى التسطيح مبتعدة عن التجسيم، وفي الطراز الثالث أصبح التحوير هو الصفة الغالبة على عناصر الزخارف النباتية فضلاً عن بعدها عن المؤثرات القديمة الساسانية والبيزنطية واحتوائها على الأسلوب المشطوف في الحفر،

وقد ترتب على ظهور هذا الطراز الثالث استخدام القوالب في الزخارف الجصية (١٩).

على أننا نعتقد أن التطور الذي حدث بظهور طرز سامراء في مدينة سامراء العراقية في فترة وجيزة من الزمن، قد سبقه تطور لم تكشف بعد حلقاته، ومهما يكن من أمر فإن الطراز الأخير من طرز سامراء، زاد انتشاراً في بلاد العالم الإسلامي وأصبح هو نواة التطور في الزخرفة النباتية في كل بلد على حدة، وقد تطور بعد ذلك إلى ما عرف بزخارف التوريق التي تطورت بدورها إلى الزخرفة المحورة المعروفة بالأرابيسك (٢٠)،حيث الفروع النباتية والجذوع المنثنية والأوراق الملتفة، بل والثمار المتخفية التي يصعب تحديد أصولها الأولى، وقد أصبح هذا الطراز (الأرابيسك) من أهم خصائص الزخرفة الإسلامية التي تركت تأثيرها على الزخرفة في الفنون الغربية.

إن التخلص من جميع العناصر الزخرفية القديمة في الفن الإسلامي، لم يكن من الأمور السهلة، والدليل على ذلك استمرار التأثر بالجذور القديمة إلى فترة طويلة من الزمن وصلت ربما إلى القرن العاشر الهجري/ ١٦م على أقل تقدير، ويستطيع المدقق في عناصر الزخرفة وأنواعها التحقق من ذلك بسهولة ويسر.

على أي حال فإن عناصر الزخارف النباتية هي أكثر العناصر الدالة على الفن الإسلامي وبها يسهل تمييز القطع الأثرية الإسلامية من غيرها،

وقد غطت الزخرفة النباتية، العمائر الإسلامية على اختلاف تنوع منشآها، وكذلك التحف الإسلامية لمواد الفنون الزخرفية بل أن استخدام الزخارف النباتية كان من أهم العناصر الزخرفية على مواد بعينها كالنسيج والسجاد وغيره في دلالة واضحة على أهمية العناصر النباتية في الفن الإسلامي.

الزخارف الهندسية:

عرفت الزخارف الهندسية في كل الفنون العالمية خاصة بأشكالها البسيطة كالخطوط المستقيمة والمنحنية والأفقية والرأسية وأشكال المثلثات والمربعات وأنصاف الدوائر والدوائر والمصنفات وغير ذلك من هذه الأشكال البسيطة، وهو الأمر الذي عرف أيضاً في بداية العصر الإسلامي، ولعل واجهة قصر المشتى (٢١) تعد من أحسن أمثلة الواجهات في العمائر الإسلامية التي يتضح فيها التقسيم الهندسي القائم على المثلثات المقلوبة والمعدولة بالتبادل، حيث تضم بداخلها عناصر زخرفية آدمية وحيوانية وأشكال من الطير فضلاً عن الزخارف النباتية.

أقبل الفنان في العصر الإسلامي على اقتباس العناصر الهندسية في زخارف منذ بداية العصر الإسلامي ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً، لاسيما على مواد الفنون الزخرفية مستغلاً في ذلك بساطة هذا النوع من الزخارف فاستخدم أشكال الأهلة والأشكال النجمية وهو ما يظهر بكثرة في زخارف قبة الصخرة بالقدس الشريف، كما يلاحظ استخدام التقسيمات

الهندسية في رسوم أشكال العمائر في مصورة نهر بردي بالجامع الأموي بدمشق.

لقد كان الاقتباس من عناصر الزخارف الهندسية واضحاً وهو ما ينسجم مع طبيعة الفن الإسلامي واتجاهه في النفور من الزخارف الآدمية والحيوانية وأشكال الطير، فقد وجد في مجال الزخارف الهندسية ميداناً جديداً بجانب الزخارف النباتية، وهو الأمر الذي أسفر عن ظهور زخارف الأطباق النجمية التي اشتهر بها الفن الإسلامي عامة، التي ترجع بداياتها إلى أواخر القرن السادس الهجري =؛ ليصبح استخدامها من عناصر الزخرفة الهندسية بشكل لافت للنظر على العمائر ومواد الفنون التطبيقية كالأخشاب والمعادن والرخام وفي جلود الكتب وبعض صفحات المخطوطات وغير ذلك.

ولعل ظهور الأطباق النجمية في مجال الزخارف الهندسية في الفن الإسلامي، كان من أهم العوامل المميزة لهذا الفن، والتي تركت تأثيرها على الفنون الغربية، إذ جرى اقتباس هذا العنصر الزخرفي بكثرة.

بدأت المحاولات الأولى للطبق النجمي في نهاية العصر الفاطمي، على محراب السيدة رقية المحفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، من خلال حشوات كبيرة مجمعة إلى حد ما، ثم بدأت مساحة هذه الحشوات، تصغر تدريجياً، حتى وصلت إلى قطع صغيرة للغاية، كان يتم تجميعها وفق أسلوب صناعي وفني، وصاحب هذا الأسلوب الصناعي ما عرف بأسلوب التطعيم

على مادة الخشب، حيث توضع قطع صغيرة من مواد قيمة، أقيم من مادة الخشب المراد تطعيمها بجانب بعضها بلصقها مباشرة على سطح الخشب، كما في الفسيفساء الزجاجية أو الخزفية، وأحياناً ما تلصق تلك القطع وترتب ترتيباً هندسياً وزخرفياً وتملأ الفراغات بينها بمعجون ملون، وفي أحيان أخرى تحفر أمكنة في الخشب حسب الشكل الزخرفي المطلوب، وتنزل فيه قطع من المواد السابقة مشكلة حسب الأشكال الزخرفية وتترك في أمكنتها فتملأها تماماً (٢٢).

هذا وقد ازدهر هذا الأسلوب الصناعي خلال العصر المملوكي، وأصبح من أهم مميزات صناعة وزخرفة المنابر الخشبية التي جرى تطعيمها في المنشآت الدينية في هذا العصر، بحيث يمكن القول بأن نماذج استخدام الأطباق النجمية كان ابتكاراً فنياً في العصر الإسلامي.

وخلاصة القول: بأن الفنان في العصر الإسلامي قد حقق في ميدان الزخارف الهندسية عملاً زخرفياً كبيراً حلى به منشآته المختلفة واستخدمه في النماذج التطبيقية لمواد الفنون الإسلامية الزخرفية، وفاق في هذا المجال كل ما هو معروف من ضروب الزخارف الهندسية في الفنون العالمية الأخرى.

الكتابات:

تعد الكتابات الأثرية في مقدمة النماذج التطبيقية التي نفذها الفنان على العمائر في كل بلاد العالم الإسلامي سواء أكانت هذه الكتابات لها

أهميتها الإنشائية أم الزخرفية، فالخط العربي كان من أهم العناصر الفن الإسلامي عامة مثلما كانت له تلك الأهمية الخاصة عند نشأة الحضارة الإسلامية.

والحق أن الخط العربي وحده ليعتبر هو العنصر الزخرفي الوحيد المستقل الذي انفرد به الفن الإسلامي دون الفنون الأخرى كتابة وزخرفة، وقد احتل الخط العربي مكانة متميزة على المنشآت الإسلامية من الداخل والخارج على حد سواء، بجانب استخدام بطبيعة الحال في المخطوطات وعلى مواد الفنون الإسلامية، وإذا كان الخط الكوفي بنماذجه العديدة المختلفة كان من أهم أنواع الأقلام العربية التي جرى استخدامها على الآثار، فإنما ذلك يرجع إلى تلك المميزات الخاصة التي أكسبت هذا الخط خصائص لم توجد في أنواع الخطوط العربية ولعل من أهمها إلحاق زخارف التوريق بحوافه وبأرضياته، فتارة يكتب به على العمائر على أرضيات مورقة الزخارف وتارة أخرى تنتهي هامات حروفه بالزخارف المورقة وتارة ثالثة تتشابك حروفه وتتضافر وتتعقد ويصعب القراءة فيها وتارة أخرى، تأخذ أشكال الحروف الأشكال الهندسية المربعة والمستطيلة والدائرية وغير ذلك، مما أعطى حقيقة لهذا الخط ميزات لم توجد في أنواع الخطوط العربية الأخرى أو غيرها من خطوط العالم الأخرى.

وعن أقدم الكتابات الأثرية على العمائر الإسلامية في العصر الأموي، تبقى كتابات قبة الصخرة بالقدس الشريف بالخط الكوفي البسيط من أهم كتابات هذا العصر، خاصة وأنها كتبت بأسلوب الفسيفساء، ثم

زاد استخدام الكتابات الكوفية على العمائر الإسلامية، خلال العصر العباسي وفي عصور الدويلات المستقلة في كل بلاد العالم الإسلامي، وقد أصبح هذا الخط وكأنه جزء لا يتجزأ من واجهات المنشآت أو في داخل المنشآت الدينية، وقد ظل هذا الخط مستخدماً بصفة أساسية على العمائر حتى القرن السادس الهجري/ ١٢م، حيث بدأ خط النسخ وخط الثلث في الانتشار وإن استخدمه الأتابكة قبل القرن السادس الهجري على العمائر.

والحق أن لكل خط من الخطوط العربية جماليته وروعته، بل وصعوبة قراءته فالخط الكوفي وكذلك كل من خطي النسخ والثلث لهما قواعدهما الخاصة في الكتابة ولحروفهما معيار خاص وقلم خاص وأسلوب خاص، وأيضاً لكل خطاط قواعده ومعياره وقلمه الذي يتميز به عن غيره، ومن هنا جاءت الكتابات الأثرية على الآثار على جانب كبير من التنوع والاختلاف وإن جمعتها جميعاً تلك الجودة التي تميز بها الخطاطون في العصر الإسلامي.

ظل الخط العربي يحظى طوال العصور الإسلامية بالمرتبة الأولى بين العناصر الفنية الأخرى، وأصبح يتبع ذلك أهمية خاصة للخطاطين عن غيرهم من سائر الفنانين في البلاد الإسلامية حيث ارتقت مكانتهم وزادت أهميتهم وكان منهم الكثير ممن يجيدون كتابة المصحف الشريف فعلت أقدارهم وزاد تقربهم من السلاطين والخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة،

وأصبح للخطاطين من يكتبون تراجم حياتهم وصار لكثير منهم أعمال عديدة باقية إلى اليوم في المتاحف والمكتبات وفي المجموعات الخاصة.

وخلال العصر العثماني زادت أهمية الخط وابتكر من الخط العربي أنواع جديدة انتشرت في بلاد العالم الإسلامي، حيث تجاوز الخطاط العثماني مرحلة التقليد إلى مرحلة التحسين ومنها إلى مرحلة الابتكار، ومن ذلك الخط المعروف بالخط الغباري المصغر عن خط النسخ والخط المثني أو الكتابة المنعكسة وفيه تكتب العبارة مرتين، بحيث يمكن قراءتها من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، وهو يمزج بين حروفها، بحيث يخرج من هذا المزج شكلاً زخرفياً جميلاً (٢٣).

وبعد فإن النماذج التطبيقية للفن المعماري القديم كثيرة ومتنوعة ومنها ما يتصل بطبيعة الإنشاء سواء في المدينة ذاتها أو في منشآتها المتفردة أو في عناصر الزخرفة، وحقاً فإن كل النماذج الإسلامية تشهد للمعمار وللفنان في العصر الإسلامي بالجودة والابتكار وبالأصالة والإتقان، لذلك فقد بقيت حتى الآن رغم مرور مئات السنين عليها، وإن لم يتعد بعضها الألف لتشهد بأن العطاء الصادق يدوم ويبقى على مر الزمن.

الهوامش

(١) تقوم حالياً بالنشر العلمي لهذه المكتشفات، تحت إشراف عالم الآثار الإسلامية الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب، والتي تمت في مواسم للحفر عديدة.

(٢) يذكر المقريزي قوله عن موقع هذه المدينة: "اعلم أن موضع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة نصر كان فضاءً ومزارع، فيما بين النيل والجبل الشرقي الذي يعرف بالجبل المقطم، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة" المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة المركز الإسلامي للطباعة والنشر، مصر، جـ١، ص٢٨٦.

(٣) وضع عمرو بن العاص أساس مسجده الجامع عام ٢١ هـ، ووقف على إقامة قبلته ثمانون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان صغيراً في مساحته بطبيعة الحال ثم أضيفت إليه إضافات كثيرة خلال العصور الإسلامية المتعاقبة وجدد هذا الجامع مؤخراً بإشراف هيئة الآثار المصرية. أنظر: مصطفى شيحه: الآثار الإسلامية في مصر من الفتح العربي حتى نهاية العصر الأيوبي، القاهرة ١٩٩٢، ص٦٩- ص٧٧.

(٤) أنظر عن هذا الموضوع: د. سعاد ماهر: مجرى مياه فم الخليج، المجلة التاريخية الأثرية، المجلد السابع ١٩٨٠، حسن الهواري: الفسطاط: ص١٢، كازانوفا: وصف قلعة القاهرة، ترجمة د. أحمد دراج، القاهرة ١٩٧٤م، المقريزي: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص٢٢٨-٢٣٠، كريزول: وصف قلعة الجبل، ترجمة د. جمال محرز، القاهرة ١٩٧٤، د. عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، القاهرة ١٩٦٠م، وعبد الرحمن زكي أيضاً، قلعة مصر، القاهرة ١٩٥٠م، ابن إياس: بدائع الزهور، في وقائع الدهور، جـ٤، ص١١٠.

(٥) د. علي بهجت، ألبير جبرييل: حفريات الفسطاط، ترجمة: علي بهجت، ومحمود عكوش، القاهرة ١٩٢٨م د. عباس حلمي: تطور المسكن المصري الإسلامي من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، القاهرة.

(٦) عثرت في فسقية أحد مناز الفسطاط خلال أعمال الحفر الأثري على قواديس كبيرة في عمق كل ضلع من أضلاع مثمن الفسقية على عظام وبتحليلها، ثبت أنها عظام أسماك كانت تربى في فسقية المياه وقد أعدت هذه القواديس لراحتها.

(٧) أُنظر: د. فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٠، ص٤٢٧، ص ٤٣١.

(٨) تحتفظ مدينة رشيد بعدد كبير من المنازل الأثرية التي يرجع جميعها إلى العصر العثماني، ويسبق هذه المنازل في تاريخها عدة منازل أثرية من عصر المماليك الجراكسة كمنزل زينب خاتون قبل عام ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨م ومنزل الغوري ٩٠٩هـ/ ١٥٠٤-١٥٠٥م، فضلاً عن بقاء بعض المنازل العثمانية الأخرى بمدينة القاهرة كمنزل آمنة بنت سالم ٩٤٧ هـ/ ١٥٤٠م، ومنزل الكريدليه ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م، ومنزل جمال الدين الذهبي ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م، ومنزل السحيمي ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م، ومنزل إبراهيم السناري ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م. انظر: صالح لمعي: التراث المعماري الإسلامي في مصر، بيروت ١٩٧٥م، ص٨٢-٨٣.

(٩) يذكر المؤرخ تقي الدين المقريزي عن وضع هذه المساحة الجديدة قوله: "فنزل جوهر حيث القاهرة الآن وأناخ هناك، وكانت حينئذ هناك رملة فيما بين مصر وعين شمس، يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين شمس، ولم يكن عند نزول جوهر بهذه الرملة فيها بنيان سوى أماكن هي بستان الإخشيد (الكافوري) ودير للنصارى يعرف بدير العظام، وقصر يعرف بقصر الشوك تنزله بنو عذرة في الجاهلية. المقريزي: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٣٥٩.

(١٠) المقريزي: المصدر السابق، جـ١، ص٣٦١.

(١١) د/ أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، مصر، جـ١، ص٢١.

(١٢) ازدحمت مدينة القاهرة بعد تأسيسها بالأحياء والأخطاط، إضافة إلى أحياء أخرى خارج أسوارها.

(١٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٣٥٩.

(١٤) عرف إحاطة المدن القديمة بالأسوار والأبراج الدفاعية وتزويد الأسوار بدعائم ساندة منذ أقدم العصور.

(١٥) Creswell: K, A, C: The Muslim Architecture of Egypt, Ikhshids and Fatimids, Oxford, pp. 23-32.

(١٦) الوصف المعماري للأبراج مقتبس من: مصطفى شيحه، الآثار الإسلامية، ص٩٧ – ص١٠٠.

(١٧) د. زكي مُحَمَّد حسن: فنون الإسلام، الطبعة الأولى، ص٧.

(١٨) د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري: الموسم الرابع لحفريات قرية (الفاو)، (تقرير مختصر)، ضمن الكتاب الثاني: دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الرياض ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ص١١ – ص١٥.

(١٩) د. فريد شافعي: زخارف وطرز سامراء، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ١٣، جـ٢، ص٢ – ص٥.

(٢٠) د. زكي حسن: فنون الإسلام، ص٢٥٠، ديمانه: الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد عيسى، أرنست كونل: الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، بيروت.

(٢١) يقع هذا القصر على بعد عشرين ميلاً جنوب شرقي عمان وينسب إلى الخليفة الأموي الوليد الثاني وهو عبارة عن قصر صحراوي غير تام البناء، وقد نقلت أهم الأجزاء من الزخارف المحفورة في الحجر الجيري في الواجهة الجنوبية إلى برلين، مهداة من السلطان عبد الحميد إلى القيصر غليوم الثاني، وقد وضعت في متحف القيصر فردريك ببرليه منذ عام ١٩٠٣م. أُنظر: د. كمال الدين سامح: العمارة في صدر الإسلام، القاهرة ١٩٨٢م، ص ٤٣.

(٢٢) أُنظر: د. مُحَمَّد عبد العزيز مرزوق: الفن الإسلامي في العصر الأيوبي، العدد ٨٠/ المكتبة الثقافية، ص٢٧ – ص٢٨، د. فريد شافعي: الأخشاب المزخرفة في الطراز الأموي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد رقم ١٤، جـ٢، ص ١٠٦.

(٢٣) د. مُحَمَّد عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، القاهرة ١٩٧٤، ص١٧٩ – ص١٨٠.

العمارات الإسلامية العتيقة القائمة في بغداد

د. مصطفى جواد

قد كنا ذكرنا في مقالة "دار المنساة" أي القصر العباسي فريقا من الأسباب التي زالت بها الآثار العتيقة ببغداد، وأومأنا إلى العمارات القديمة الزمان التي يصح اتخاذها كالأوتاد للقياس في البحث عن خطط بغداد، ومنها المدرسة المستنصرية وجامع القصر المعروف بعضه اليوم بجامع سوق الغزل وغيرهما. ولما كان للعمارات العتيقة القائمة ببغداد في عصرنا حق الأولوية بالبحث لفضل القائم على الزائل والشاخص على العافي، عزمنا على أن نذكر العمارات الإسلامية منها. والمراد بذلك إنما هو الاستيعاب في البحث وإن كانت الآثار العربية ذوات الأكثرية في العدد، لأن كثيرا من مساجد العهد العثماني وما قبله كانت مبان عربية استهدمت فجددت.

ومما قد ذكر في هذه المجلة من العمارات الإسلامية العتيقة المدرسة المستنصرية، والمدرسة المرجانية، ودار المسناة الناصرية، ومنارة مسجد زمرد خاتون المعروف بجامع الخفافين وبقي منها مما لم يذكر تاريخه تربة السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله، وأم الخليفة الناصر لدين الله، وهي المعروفة بقبة الست زبيدة وكذلك منارة تربة الشيخ معروف الكرخي، ومنارة جامع قمرية ومنارة جامع القصر وباب الظفرية المعروف بالباب الوسطاني، المتخذ متحفا للأسلحة العتيقة، وتربة الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي، ومنارة في تربة الشيخ عبد القادر الجيلي أي

الجيلاني وعدة مساجد بنيت في العصور العثمانية، ولكن تجديد عمارتها قائم على قدم وساق.

وها نحن أولاء نذكر تلكم العمارات بحسب الأزمنة التي بنيت فيها فإن في تدرج تواريخ العمارة تسهيلا لفهم مجرى الفن العماري واقتباس بعض عماراته من بعض، على أننا نسوغ لأنفسنا أن يكون المقياس قرن[١] البناء في الغالب فلا نتقيد بالسنين المفردة ولا العقود.

١- تربة زمرد خاتون:

ذكرنا ترجمة هذه السيدة العظيمة في جزء سابق من هذه المجلة[٢] ولا يعنينا الآن إلا ذكر تربتها المعروفة بالست زبيدة خطأ. ونحن وإن لم نجد نصا كاملاً خاصا بتاريخ بنائها فقد تضافرت عندنا الأدلة المعتمدة على استطراد الأخبار على أن هذه التربة لها لا لغيرها لأن للتاريخ وفن الخطط معا القول الفصل في مثل هذه الأمور. وسنورد الأخبار الاستطرادية الدالة على ذلك بعد الكلام على التربة من حيث الفن العماري (انظر صورة التربة).

قبة السيدة زمرد خاتون

(١) شك بعض اللغويين المعاصرين في دلالة القرن على مائة سنة وقد قال الطبري "قالوا كان بين آدم ونوح عشرة قرون والقرن مائة سنة" ج٢ ص ١٧٠ طبعة مصر وكرر ذلك في موضع آخر فلا محل للشك.

(٢) مج ١ ج ٢ ص ٦٥ سنة ١٩٤٦.

إن قبة السيدة زمرد خاتون التي في تربتها تعرف هي وأمثالها عند العراقيين المعاصرين ومن قبلهم باسم "الميل" لأنها تشبه الميل في كون رأسها مؤللا[1] وهي مخروطية الشكل وفي أعلاها من ظاهرها نوع من القرنصة البنائية الجميلة والتغصين الجانبي مما يشبه جنبذة جنس من الزهر أي زهرة قبل التفتح ونظن أن الأول جعل لتظليل الكوى التي تنير القبة، ثم توسع فيه فصار شكلا من الأشكال العمارية.

إن هذه القبة وأمثالها من القبب المخروطية أو الهرمية تكاد تكون خاصة بمشاهدة الأئمة والكبراء والكبيرات منذ زمن العباسيين، ومما بقي منها وعلمناه في العراق، هذه القبة وقبة الحسن البصري وقبة أمام الدور وقبة الشيخ عمر السهروردي ببغداد، من المخروطيات، وقبة يحيى بن القاسم بالموصل، وقد عمرها بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٣٧ وقبة عون الدين بالموصل أيضا وبانيها لؤلؤ أيضا في سنة ٦٤٦، وكانت لعلي بن إدريس اليعقوبي عند بعقوبا قبة من أحد هذين النوعين إلا أنها سقطت، وبقيت جدران التربة مكشوفة، والظاهر من كلام الأديب الكبير الرحالة الشهير ابن جبير أنه رأى قبة مخروطية من ذلك النوع ببغداد، قال في وصف محلة الرصافة[2] "وفي تلك المحلة مشهد حفيل البنيان له قبة بيضاء سامية في الهواء فيه قبر الإمام أبي حنيفة (رض) وبه تعرف المحلة". وكانت تلك القبة من بناء القرن الخامس للهجرة، ووصف أيضا "منارة القرون" التي بناها

---

(١) ألل الشيء أي حدده كالآلة أي الحربة.

(٢) كانت محلة الرصافة جنوبي قبر الإمام أبي حنيفة في أرض المقبرة الملوكية وما اتصل بها من الشرق والجنوب.

ملكشاه السلجوقي سنة ٤٧٩هـ= ١٠٨٦م قرب الكوفة قال "ثم نزلنا... بمنارة تعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الأرض لا بناء حولها قد قامت في الأرض كأنها عمود مخروط من الآجر قد تداخل فيها من الخواتيم الآجرية مثمنة ومربعة أشكال بديعة، ومن غريب أمرها أنها مجللة كلها بقرون غزلان مثبتة فيها فتلوح كظهر الشيهم[١]". فسمو القباب لا يتأتى إلا مع هذا الطراز من البناء لأن ضخامته تضمر وتضؤل بارتفاعه (انظر صورة المقطع).

والذي يتأمل صورة بغداد التي صورها الأستاذ المطراقي، بعد دخول السلطان سليمان القانوني لهذه المدينة سنة ٩٤١هـ = ١٥٣٤م يرى كثيرا من هذه القباب[٢] وفي مقدمتها قبة زمرد خاتون وقبة الشيخ صندل – على ما تصورناه – وقبة أخرى على ضفة دجلة اليمنى لم نستطع نسبتها؛ هذا في الجانب الغربي من بغداد، وأما الجانب الشرقي فالقباب المصورة فيه من هذا الشكل قبة الشيخ عمر السهروردي وقبة الشيخ عبد القادر الجيلي أي الجيلاني وقباب أخرى عجزنا عن نسبتها أيضا لأن الصورة لم تكن هندسية القياس ولا مكتوبا فيها ما يعين مواضعها.

وكان المؤرخون إذا قالوا: أن لفلان تربة أو ابتنى فلان تربة، دل قولهم على وجود القبة. هذا هو الاصطلاح الذي درجوا عليه، فالتربة

---

(١) رحلة ابن جبير المعروفة بتقييد السياحة "ص ١٨٨، ٢٠٥" من طبعة مصر و"المنتظم ج ٩ ص ٣٥" وكامل ابن الأثير "ج ١٠ ص ٥٤، ص ٧٤" من طبعة مصر.

(٢) تاريخ العراق بين احتلالين للأستاذ عباس العزاوي "ج ٣ ص ٤٢٤".

كلمة اصطلاحية عند مؤرخي العصور العباسية ومن بعدها معناها قبر ذو مشهد وقبة كتربة موسى بن جعفر وعبد القادر الجيلي، قال أحد المؤرخين في ترجمة الشيخ عمر السهروردي – وقد توفي سنة ٦٣٢ – "ودفن في الوردية في تربة عملت له هناك على جادة سور الظفرية[١]"، إلا أن اصطلاح التربة لمثل ذلك البناء لم يبق حتى القرن الحادي عشر للهجرة، قال المؤرخ أحمد بن عبد الله البغدادي في حوادث سنة ٦٣٢ من تاريخه:

وفيها توفي شيخ شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي.. ولما توفي دفن قريبا من الباب الوسطي داخل بغداد وعقد على قبره ميل وإلى الآن قبره ظاهر يزار[٢]" فهذا المؤرخ الذي عاش في القرن الحادي عشر للهجرة وتوفي في أول الثاني عشر لم يستعمل التربة بل ذكر "الميل" لأنه أظهر أجزائها فأغنى ذلك عن التفصيل.

وقبة السيدة زمرد خاتون قائمة على قاعدة ثمانية الأضلاع لأن كثرة الأضلاع في الشكل المضلع تعين كثيرا على قيام بناء مخروطي عليها أي قيام دوائر من البناية متضائلة شيئا فشيئاً حتى تنتهي بسماوته أي بنقطة أعلاه (انظر تخطيط القاعدة) ولذلك كثر استعمال هذا الشكل الثماني في الترب كالتربة الصليبية بسامراء وتربة شيخ الشط بالموصل وتربة نجم الدين بالحديثة قرب عانة، وتأتي بعدها التربة الرباعية الأضلاع كتربة أمام الدور وتربة علي بن إدريس اليعقوبي قرب بعقوبة.

---

(١) الحوادث الجامعة "ص ٧٤".

(٢) أصول التاريخ والأدب "مج ١٦ ص ٢٢".

إن هذا الطراز من القبب المشهدية معروف في العراق قديما كما أشرنا إليه من وصف ابن جبير لقبة الإمام أبي حنيفة ومن مشابهتها لمنارة القرون التي بناها ملكشاه وهو أصبر على الحوادث الطبيعية من الطراز البيضي، أيام لم يكن الآجر الأزرق (أي الكاشي) معروفا، فإن الآجر الأزرق يقاوم أحسن المقاومة، الحوادث الطبيعية وفواعلها كالمطر والحر والبرد. ولما أخذ البناة يظهرون قبب المشاهد بذلك الآجر منذ أواخر القرن السادس –كما ذكر ياقوت في ترجمة العبادي المظفر بن أردشير من معجم البلدان – انتعش الطراز البيضي لجمال شكله وجمال آجره الأزرق كما نرى اليوم في قبب المساجد ببغداد والمشاهد في كثير من مدن العراق وقراه وتضاءل طراز الميل الأصيل.

وفي ظاهر التربة في أعلى قاعدتها زخرفة أخرى مؤلفة من نجوم وبعض الأشكال الهندسية الساذجة الأخرى، وفي ظاهر كل وجه من أوجه القاعدة الثمانية بابان معميان وفي صورتها التي صورت قبل سنة ١٨٥٠ أربعة أبواب معماة اثنان من فوق واثنان من تحت، ولم تحافظ هذه العمارة على كل حضرتها القديمة فقد رممت عدة مرات ترميما أدخل فيها حضرة جديدة، ولكنه لم يغير من شكلها وسمتها، وهذه هي العادة القديمة في ترميم المشاهد حتى اليوم أعني المحافظة على الشكل الأصلي ما وجد إلى ذلك سبيل، وباطن التربة خال من الزخرفة كما هو الواجب، في قبور الأتقياء والتقيات.

تربة زمرد خاتون في الخطط والتاريخ

لم يفتنا أن نذكر مع عمارات الخليفة الناصر لدين الله في مقالة دار المسناة[1] تربة والدته زمرد خاتون وكذلك رباطها ومدرستها وكلاهما كان قرب تربتها، وكان الحق يقضي علينا بالفوت والسهو فهي التي بنت البنايات المذكورة ورباط المأمونية ورباط مشهد عبيد الله، فليس من الإنصاف نسبتها إلى الخليفة ابنها وإغفال اسم هذه السيدة المحسنة. على أن المؤرخين من اتبع هذا الأسلوب في التاريخ، قال علي بن أبي الفرج بن الحسين البصري مؤلف الحماسة البصرية في ترجمة الناصر لدين الله "وبنى الرباطين العظيمين: رباط والدته قبالة تربتها ورباط الخلاطية مع تربتها وغير ذلك من مواضع العبادات وكثرة الصدقات قدس الله روحه[2]. وفي هذا الخبر تبيين لا تعيين للموضع فليس فيه تاريخ للبناء ولا إشارة إلى الموضع الذي بني فيه، كأن القدماء كانوا مستغنين عن ذلك لاشتهاره.

وقد جاء في الأخبار الاستطرادية ما يدل على أن تربة السيدة زمرد خاتون بنيت قبل سنة ٥٨٨هـ = ١١٩٠م، قال سبط بين الجوزي في حوادث سنة ٥٨٨هـ "قال ابن القادسي[3]: وفي جمادى الأولى جلس

---

(١) هذه المجلة ج ٢ ص ٧٦ سنة ١٩٤٥.

(٢) أصول التاريخ والأدب "مج ٩ ص ٨٧" نقلا من كتاب "المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية" للمؤلف المذكور في المتن.

(٣) هو أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي العباس أحمد بن مُحَمَّد بن علي القادسي (نسبة إلى قادسية سامرا) الكتبي المؤرخ العراقي الكبير، سكن والده بغداد، ونشأ هو بها ودرس الأدب، وسمع الحديث واشتغل بالكتب، وحدث عن أبي الفتح عبيد الله بن عبد الله بن شاتيل وغيره، وكانت له عناية فائقة بالتواريخ وضبط الحوادث وألف ذيل المنتظم من سنة ٥٧٥ حتى سنة ٦١٦ وتاريخ الوزراء، وقد نقل المؤرخون من كليهما نقلا كثيرا. توفي أبو عبد الله بن القادسي ببغداد في ١٩

الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي عند تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي فتاب مائة وثلاثون شخصا ومات ثلاثة في المجلس بوجدهم"(١).

ومعلوم أنه أراد بأم الخليفة "زمرد خاتون" وبالخليفة ابنها "الناصر لدين الله" وكان للشيخ أبي الفرج الجوزي عادة في الوعظ تحت تربة السيدة المذكورة فقد ذكر سبطه أيضا في وفاته ونقل تابوته ما نصه "وجاء أهل المحال وشددنا التابوت وسلمناه إليهم فذهبوا به إلى تحت التربة مكان جلوسه فصلى عليه ابنه أبو القاسم علي اتفاقا"(١٢).

وورد ذكر تربة زمرد خاتون أي المعروفة بالست زبيدة في حوادث سنة ٥٨٩ في خبر افتتاح مدرستها، قال جمال الدين بن الدبيثي في ترجمة أبي عبد الله مُحَمَّد بن أبي علي بن أبي نصر النوقاني مدرس المدرسة المذكورة "وأقام بمدرسة قريبة من رباط الشيخ أبي النجيب السهروردي تعرف بالقيصرية مدة... إلى أن أنشأت الجهة الشريفة الكريمة والدة سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على كافة الأنام الناصر لدين الله أمير المؤمنين – خلد الله ملكه ورضى عنها – مدرسة مجاورة لتربتها الشريفة بالجانب الغربي للفقهاء الشافعية وتقدمت بأن يكون مدرسها، فأحضر

جمادى الآخرة سنة ٦٣٢ ودفن بمقبرة باب حرب: مقبرة الإمام أحمد بن حنبل، فالظاهر أنه كان حنبليا "أصول التاريخ والأدب مج ٢٧ ص ٣٩٢" و"المشترك" لياقوت الحموي في القادسية و"أخبار الحكماء" ص ٧٨ طبعة مصر.

(١) مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان "ص ٢٦٥ وص ٣٢٤" ونقل عنه خبر نقل الجنازة أبو شامة في ذيل الروضتين والذهبي في تاريخ الإسلام.

وخلع عليه خلعة جميلة وعمامة وطرحة، ودرس بها يوم الخميس تاسع عشر شوال سنة تسع وثمانين وخمسمائة"[١].

وجاء ذكرها في حوادث سنة ٥٩٢ في ترجمة أبي الخير سعد بن عثمان بن مرزوق المصري الحنبلي الزاهد، فإنه توفي سنة ٥٩٢، قال ابن الدبيثي المذكور "وحمل جنازته الناس إلى الجانب الغربي ليدفن بباب حرب، فطلبت الجهة السعيدة والدة سيدنا ومولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين – أدام الله أيامه – أن يدفن عند تربتها المستجدة بمقبرة معروف الكرخي ونفذت من خدمها من رد جنازته ودفن مقابل التربة"[٢]. وذكرها جماعة من المؤرخين في حوادث سنة ٥٩٧ منهم سبط ابن الجوزي وذلك في ترجمة الشيخ العلامة أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي وقد أشرنا إلى ذلك آنفا، وقال ابن الدبيثي "وحضرت الصلاة عليه... بين التربة والرباط: تربة الجهة الشريفة والدة سيدنا ومولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين – قدس الله روحها – وتقدم في الصلاة ولده الأسن أبو القاسم علي"[٣].

وفي سنة ٥٩٨ دفنت في تربة زمرد خاتون السيدة بنفشة زوجة المستضيء بأمر الله الثانية وهي ضرة السيدة زمرد خاتون، وكان دفنها قبل السيدة زمرد خاتون، قال سبط ابن الجوزي في حوادث هذه السنة "ولما

---

(١) أصول التاريخ والأدب "مج ١٩ ص ١٦٤".

(٢) المرجع المذكور "مج ٢٠ ص ٩– ١٧٨".

(٣) المرجع المذكور "مج ٢١ ص ٢٦".

توفيت بنفشة تولت أمرها والدة الخليفة وجهزتها أحسن جهاز ودفنتها في تربتها المجاورة لمعروف الكرخي". وذكر مثل ذلك من حيث الدفن ابن الساعي[١].

وكنا ذكرنا أن وفاة السيدة زمرد خاتون صاحبة التربة المذكورة سنة ٥٩٩ وذكرنا أيضا قول سبط ابن الجوزي "وعمرت التربة عند قبر معروف الكرخي والمدرسة إلى جانبها وأوقفت عليهما الأوقاف... وأمر الخليفة أن يمشي الناس من دجلة إلى تربتها المجاورة لمعروف والمسافة بعيدة" وقول ابن الأثير "ودفنت في التربة التي بنتها لنفسها" وقول صلاح الدين الصفدي "وحملت إلى تربة معروف الكرخي"[٢] وهو منقول من قول الذهبي في تاريخ الإسلام "وحملت إلى تربة معروف الكرخي وشيعها الأكابر"[٣].

استطرد ابن الدبيثي إلى ذكرها في ترجمة أبي القاسم عبد الرحمن بن مُحَمَّد الواسطي الشافعي الفقيه قال "قدم بغداد واستوطنها وتفقه بها على الشيخ أبي القاسم ابن فضلان ثم على أبي الحسن علي بن علي الفارقي وأعاد له درسه بمدرسة والدة سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على كافة الأنام الناصر لدين الله أمير المؤمنين – خلد الله ملكه وقدس روحها

(١) مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان ص ٣٣٢ ونقله عنه أبو شامة في ذيل الروضتين على عادته في أخبار العراق لذلك الزمان. والجامع المختصر "ج ٩ ص ٨٩".

(٢) هذه المجلة "مج ٢ ص ١ ص ١– ٧٠".

(٣) أصول التاريخ والأدب "مج ٢٤ ص ١٢١".

– التي أنشأتها مجاورة لتربتها بالجانب الغربي ودرس بها بعد وفاته في يوم السبت غرة المحرم سنة أربع وستمائة"[١].

وقال ابن الساعي في حوادث سنة ٦٠٤ "في يوم السبت غرة المحرم درس الكمال عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن المعلم البرجوني بالمدرسة المجاورة لتربة منشئتها والدة الإمام الناصر لدين الله ﷺ". وذكر أن ابنة عز الدين نجاح الشرابي توفيت في سنة ٦٠٤ وحملت إلى تربة زمرد خاتون عند معروف الكرخي فدفنت بباب القبة[٢]. وفي سنة ٦١٢ توفي ببغداد الملك المعظم أبو الحسن علي ابن الخليفة الناصر لدين الله ولي عهد الخلافة العباسية. قال ابن الدبيثي "ومشي الناس كافة بين يدي الجنازة إلى التربة الشريفة عند قبر معروف الكرخي– على ساكنها أعظم الرحمة والرضوان– فدفن بالقبة التي في وسطها مجاورا لضريح الجهة الشريفة الرحيمة والدة سيدنا ومولانا... أمير المؤمنين...[٣]". وقال عز الدين ابن الأثير "ولما توفي أخرج نهارا ومشى جميع الناس بين يدي تابوته إلى تربة جدته عند قبر معروف الكرخي فدفن عندها، ولما أدخل التابوت أغلقت الأبواب وسمع الصراخ

---

(١) المرجع المذكور "مج ٢١ ص ٣١".

(٢) الجامع المختصر "ج ٩ ص ٢١٧" ٢٤٨ ودفنت قبلها داخل التربة على باب القبة "آي خطلخ بنت عبد الله" "وهي جارية زمرد خاتون وكان ذلك سنة ٦٠٢ وقال ابن الساعي في وفيات سنة ٦٠٢ بعد ترجمته أبا الحسن علي بن علي الفارقي المدرس" ودفن بالقرب من التربة المقدسة في مقابر معروف "الجامع ص ١٧٧، ١٨٩".

(٣) أصول التاريخ والأدب "مج ٢١ ص ١٢٢".

العظيم من داخل التربة فقيل أن ذلك صوت الخليفة". ومن البين أن جدته هي زمرد خاتون.

وقال سبط ابن الجوزي "وأخرج التابوت وبين يديه أرباب الدولة لم يتخلف سوى الخليفة وحمل إلى تربة (أم) الخليفة فدفن معها في القبة"[١].

وبعد هذه الوفاة بثلاث سنوات أعني سنة ٦١٥ توفي عز الدين نجاح الشرابي – وقد ذكرنا آنفا وفاة ابنته – وهو أكبر أمراء الدولة العباسية، قال سبط بن الجوزي "وعبروا به إلى الجانب الغربي إلى تربة أم الخليفة ودفن بين يدي القبة التي فيها أم الخليفة، وكانت له خمسمائة مجلدة فأوقفها في تربة أم الخليفة وكتب عليها اسم الشرابي"[٢].

وفي سنة ٦٣٣ في ثامن عشر شعبان منها أمر الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي بالجلوس في الرباط المجاور لمعروف الكرخي المقابل لتربة واقفته زمرد خاتون، فجلس ثم وعظ. وفي سنة ٦٤١ خرج أمير الحاج مجاهد الدين أبو الميامن أيبك المستنصري المعروف بالدويدار الصغير إلى الجانب الغربي من بغداد للتوجه نحو بيت الله الحرام، فنزل في

---

(١) مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان "ص ٣٧٥" الكامل في التاريخ "ج ١٢ ص ٩– ١١٨" من طبعة مصر وممن دفن قريبا من التربة الأمير علم الدين قزل بن عبد الله التركي الناصري توفي شابا سنة ٦٠٥" الجامع المختصر "ج ٩ ص ٢٧٥".

(٢) مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان "ص ٣٩٤".

تربة والدة الخليفة الناصر لدين الله زمرد خاتون أولا ثم ارتحل سالكا سبيل الحج(١).

هذه هي الأخبار الاستطرادية التي ذكرت فيها تربة زمرد خاتون وقد عينتها تعيينا لا يحتمل الشك ولا يطور به الظن، فكيف سميت "قبة الست زبيدة"؟

كيف سميت زمرد "زبيدة"؟

لم أجد نصا إخباريا أقدم من رحلة نيبهر الألماني الذي دخل بغداد سنة ١٧٦٦م = ١١٨٠هـ ذكر فيه أن هذه التربة هي للسيدة زبيدة بنت أبي جعفر المنصور(٢)، على أن اشتهارها بقية الست زبيدة هو المعروف بين الناس من قبل ذلك التاريخ الذي ذكرته –كما بان لي – بقليل، ويجب أن يكون ذلك التبديل الاسمي، من تاريخ الشاهد الذي وضعه حسن باشا على القبر سنة ١١٣١هـ كما ذكر نيبهر، أما نسبتها إلى السيدة زبيدة بنت جعفر العباسية كما رآه نيبهر وتعالمه الناس فهي باطلة لا محالة، ولقد عالج هذا البحث قبلنا المستشرق العلامة "كاي لسترنج سنة ١٩٠٠م" قال "وأعظم نهب حل في الكاظمة ولعله أسوأها وقعا كان على أثر فتنة سنة ٤٤٣هـ= ١٠٥١م وبهذه المناسبة جاء ذكر قبر زبيدة وقبر ابنها

(١) ابن الفوطي في "الحوادث الجامعة ص ٧٩، ١٨٧".

(٢) راجع رحلة نيبهر في بلاد العرب وما حولها

Voyage en Arabic et en d'dutres Pays circonvoisins, par C. Niebuhr. V. II, pp. 245, Amsterdam, 1780.

الخليفة الأمين المرة الأولى وأنهما قائمان بالقرب من هذين المشهدين الشيعيين" ثم قال "وأما ما يخص القبر المنسوب إلى زبيدة الواقع الآن على بعد قليل من جنوب قبر معروف الكرخي فإن الحقائق الواردة في تاريخ ابن الأثير (انظر ص ١٤٣ من هذا الكتاب) تناقض القول بأن هذا الموضع هو قبرها كان التناقض، ولم تلمح المصادر القديمة التي تذكر قبر معروف الكرخي المجاور لذلك القبر إلى أي قبر قريب منه يعود إلى زوجة هارون الرشيد المعروفة"[١].

ثم تكلم في هذا الموضوع بعد كاي لسترنج العلامة السيد محمود شكري الآلوسي ونقل ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٣ من احتراق قبر زبيدة وقبر ابنها الأمين في مقابر قريش[٢]. وإن كان علم الخطط والتاريخ قد أثبتا أن هذه التربة هي لزمرد خاتون إثباتا قاطعا، فإنه يجب أن يوجد السبيل الذي ظهر فيه اسم "زبيدة" حتى حل محل "زمرد"، أفذهبت الكتابة التي كانت في هذه التربة داخل القبة وعلى الشاهد والعمارة المحيطة بهما وزالت زوالا تاما؟ إذن فمن أخبر الناس أن القبة لإنسان أنثى لا لإنسان ذكر؟ أم دفنت ههنا إحدى الزبيدات اللواتي توفين في بغداد بعد سنة ٥٩٩ فغطى اسمها على اسم مؤسسة التربة لأن اسم زبيدة أخف على الألسنة وأشهر وألطف؟ أم هذه تربة زبيدة أخرى؟. هذه أسئلة تخطر ببال كل من يقول بأن هذه التربة هي تربة زمرد خاتون.

---

(١) بغداد في عهد الخلافة العباسية "ص ١٤٢ وص ٢٩٩" من الترجمة العربية.

(٢) مساجد بغداد وآثارها "ص ١٢٧".

إن بعض الباحثين الفضلاء جزموا القول بأن هذه القبة الشاخصة هي لزبيدة خاتون بنت السلطان بركيارق السلجوقي زوجة السلطان مسعود بن مُحَمَّد بن ملكشاه السلجوقي وقد توفيت سنة ٥٣٢هـ[١]. وهذا القول غير صحيح، فإن وجود اسم "زبيدة بنت بركيارق" في تاريخ ابن الأثير لا يعني أن لها قبرا ببغداد ولا أنه في الجانب الغربي منها، ولا أنه عند مقبرة الشيخ معروف الكرخي، والصحيح أن زبيدة خاتون بنت السلطان بركيارق السلجوقي توفيت في السنة المذكورة بهمذان[٢]، وهذا الوهم يمثل لنا ضربا من الأوهام الخططية التي يهم إليها الباحثون المعتمدون على تشابه الأسماء فقط، من دون أن يثبتوا ذلك التشابه بعلم الخطط الذي لا يتجاوز الخطأ فيه عشرات الأمتار، وليس ذلك الخطأ بذي بال.

ومن الزبيدات المقرونة أسماؤهن بتاريخ بغداد "زبيدة بنت نظام الملك الطوسي الوزير الشهير، تزوجها عميد الدولة مُحَمَّد بن جهير التغلبي الوزير سنة ٤٦٢، وكان عميد الدولة وزير الخليفة المقتدي بأمر الله، ثم عزل فسعى حموه نظام الملك في إعادته إلى الوزارة. وقد توفيت زبيدة بنت نظام الملك هذه ببغداد سنة ٤٧٠، ودفنت في دار بباب العامة من دار الخلاف العباسية بالجانب الشرقي من بغداد وكانت الدار من أملاك أبيها نظام

---

(١) الأب أنستاس ماري الكرملي في مجلة "دار السلام مج ١: ١٩٧" ولغة العرب "مج ٦ ص ٧٥٥" نقلا من كامل ابن الأثير من دون إشارة إليه".

(٢) أبو الفرج ابن الجوزي في المنتظم "ج ١٠ ص ٧٤".

الملك، ولم يسمح بدفنها هناك إلا إكراما له، إذ لم يكن لأحد دون الخلفاء وأولادهم ونسائهم أن يدفن في دار الخلافة[1].

ومنهن زبيدة بنت المقتفي لأمر الله العباسي، وهي التي تزوجها السلطان مسعود بن مُحَمَّد بن ملكشاه زواجا صوريا لا حقيقيا، وبقيت عذراء في حياته وبعد مماته، حتى توفيت ببغداد سنة ٥٨٩[2] بعد بناء تربة السيدة زمرد خاتون. ولم أجد حتى اليوم تاريخا يذكر موضع دفنها، فيا ليت شعري أيجوز لي أن أقول أن هذه القبة المعروفة بالست زبيدة هي قبتها، وأترك النصوص التاريخية والخططية التي أثبتت أنها تربة السيدة زمرد خاتون؟ إن شرف البحث يأبى ذلك، وأن أظفر يوما ما بنص مذكورة فيه الإشارة إلى دفنها في الجانب الغربي من بغداد عند قبر معروف الكرخي، فلن أجد محيصا من القول بأنها دفنت تحت قبة السيدة زمرد خاتون، فوفاتها حدثت سنة ٥٨٩- كما ذكرت آنفا- وبينت التربة قبل سنة ٥٨٨- على ما أشرت إليه إشارة سالفة- على أنى لا أطمع في وجدان نص تاريخي حاو لذلك، لأن عندي من المسلمات أن العباسيين والعباسيات من بيت الخلافة كانوا يدفنون بعد موتهم في مقبرتهم العباسية بالرصافة المجاورة لمحلة أبي حنيفة النعمان من الجنوب أي الأعظمية الحالية، فالاعتبارات التاريخية لا يجوز إطراحها في مثل ذلك للتعلق بتشابه الأسماء.

---

(1) البنداري في "زبدة النصرة ص ٥٢" طبعة مصر وابن خلكان في الوفيات "ج ١ ص ٩٧ ج ٢ ص ٨١" وابن الجوزي في المنتظم "ج ٨ ص ٣١٧" والكامل "ج ١٠ ص ٣٧ سنة ٤٧٠".

(2) أصول التاريخ والأدب "مج ٢٤ ص ٣٩" و"مج ١٦ ص ١٦٩" والكامل "ج ١١ ص ٣٠".

إذن كيف صار اسم "زمرد" زبيدة؟ يظهر لي أن الكتابة التي كانت على الترب تآكلت وتحاتت فلم يبق من اسمها إلا "ز...د" والميم من زمرد إذا تأكل أعلاه صار كالباء (بد) أو الياء (يد) فيتألف من ذلك "زبـ....د" وهو قريب من "زبيدة" كل القرب، أما القارئ الذي قرأ الكتابة – على ما أظن – فقد تبادر إلى ذهنه اسم "زبيدة" دون غيرها، لأن زمرد من النساء المجهولات عند أهل العصور المتأخرة، من تركمان وصفويين وأتراك عثمانيين، هذا هو الوجه الذي أراه حقا في انقلاب "زمرد" إلى "زبيدة" ويؤيده ورود اسم "الجارية"[1] في الكتابة التي نقلها نيبهر من شاهد قبرها وسننقلها، مع أن زبيدة لم تكن جارية قط، ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن هذه التربة هي لزبيدة بنت هارون الجويني زوجة ظهير الدين مُحَمَّد بن الحسن بن عبد الرحمن بن محاسن الحنبلي الصرصري معتمدا على تشابه الاسمين وغيره، إلا أنه لم يورد نصا تاريخيا على أن زبيدة بنت هارون الجويني دفنت في الجانب الغربي فضلا عن أن تكون دفنت في مقبرة معروف الكرخي وبنيت لها تربة[2].

وعندي أن زبيدة الجوينية بنت رابعة العباسية بنت ولي العهد أحمد بن الخليفة المستعصم بالله دفنت مع أمها رابعة وجدتها "شاه لبنى" الأيوبية في مقبرة مشهد عبيد الله العلوي المعروف بمشهد النذور وقبر النذور قبل

---

(1) الجارية بمعناها الاصطلاحي هي "المملوكة" وزبيدة عربية عباسية فالحرية ثابتة لها ولا صلة بالعبودية حتى توصف بالجارية. فإن عدت الجارية وصفا للخيرات لم يكن فيها دليل.

(2) الأستاذ عباس العزاوي في "العراق بين احتلالين ج ١ ص ٤٠٦" ويراجع لإتمام الاطلاع "ص ٢٧١، ٢٩٦" منه والملحق الثاني له "ص ٨– ٢٦".

قرون شرقي محلة أبي حنيفة، وتعرف تلك المقبرة في أيامنا بقبر رابعة شرقي الأعظمية[1]، وقد جرت عادة سروات المسلمين أن تدفن كل عائلة في مقبرتها الخاصة بها. فإن يثبت التاريخ يوما ما أن العادة قد خرمت في دفن السيدة زبيدة الجوينية وأنها دفنت في الجانب الغربي من بغداد في مقبرة الشيخ معروف الكرخي، يثبت حينئذ أن زبيدة الجوينية دفنت في قبة السيدة زمرد خاتون نفسها ثم غلب اسمها على اسمها بين الناس فنسبت القبة إليها دون صاحبتها.

تاريخ تربة السيدة (زمرد خاتون)

كنا ذكرنا أنها بنيت قبل سنة ٥٨٨ وإذ لم نجد خبرا لها قبل هذه السنة في أخبار بغداد الاستطرادية نرى أنها بنيت في السنة المذكورة قبل وفاة صاحبتها بإحدى عشرة سنة، ولا يجوز أن ندفع تاريخ بنائها وراء ذلك، فإن الإنسان وإن بلغ المراتب العلى في التقى والزهد يصعب عليه أن يبني قبرا لنفسه، ويبقى ذلك القبر معينا في الأرض ومتصورا في ذهنه، فكيف والبانية لقبرها امرأة؟ والنساء أحرص من الرجال على الحياة. لا

(1) قال الهروي في كتاب الزيارات "وبمقبرة الخيزران قبر الإمام أبي حنيفة... وعنده قبة أبي عبد الله الجرجاني... وعبيد الله بن عمر الأشرف بن علي زين العابدين وعنده جماعة من الأشراف في مشهد النذور" (أصول التاريخ والأدب مج ٩ ص ٤) ويراجع في وفاة شمس الضحى شاه لبني ووفاة ابنتها رابعة ومدافنهما الحوادث الجامعة "٤١٠، ٤٤٩" وقد ترجم رابعة صلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات وابن تغري بردي في المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ولم يترجما زبيدة وإنما ذكراها في ترجمة أمها.

شك إذن في أنها بنتها في آخر عمرها، وقليل من الناس يفعلون هذا الفعل المخالف للطبيعة البشرية ولغريزة حب الحياة.

إن هذه القبة القائمة اليوم كانت داخل عمارة تحيط بها، فيها من المرافق ما تحتويه في العادة أمثالها من الترب، وهذا وإن كان مفهوما معلوما من دلالة الاسم الاصطلاحي– أعني التربة– فقد أكده خبر دفن الملك المعظم علي بن الناصر لدين الله، وقد نقلناه آنفا فقد جاء فيه أن دفن في القبة التي وسط التربة، فالمرافق الأخرى كانت تحيط بالقبة. ونقلنا أيضا أن نجاحا الشرابي كان له خمسمائة مجلد، وضعت في تربة السيدة زمرد خاتون، ومعنى ذلك أنه كان في هذه التربة خزانة كتب نفيسة.

وقد تتبعنا تاريخ هذه التربة منذ أنشئت حتى سنة ٦٤١هـ، وفيها انقطع ذكرها من التواريخ أو ضاعت التواريخ التي تذكر بعض أخبارها. وفي سنة ١١٨٠هـ = ١٧٦٦م في زمن الوالي عمر باشا، دخل بغداد السائح الشهير الكبير "نيبهر الألماني" فوصف تربة السيدة زمرد خاتون باسم السيدة (زبيدة) ورقم لموضعها من خارطته برقم ١٢ وقال "وقرب الرقم ١٢ ميل صغير دفنت تحته زبيدة، وهي امرأة مشهورة في تاريخ العرب وزوجة هارون الرشيد، وكانت وفاتها سنة ٢١٦هـ = ٨٣٠م. وفي سنة ١١٣١هـ = ١٧١٨م دفن حسن باشا زوجته عائشة بنت مصطفى

باشا إلى جانب زبيدة، ووضع رخامة كبيرة مكتوبا عليها كتابة[1]، وذلك بعد أن رم البناية وأمر ببناء عدة منازل للفقراء السائحين[2].

فهذا أول مورد لاسم زبيدة، مكان زمرد، كما ذكرنا قبل هذا، وأول خبر لترميم القبة، على أن الظاهر من بناية منازل للفقراء السائحين هو تجديد ما كان في التربة من مرافق لسكنى دراويش من أهل ذلك الزمان. بل يغلب على الظن أن الترميم كان تافها، ولقد ذكر العلامة محمود شكري الآلوسي تربة السيدة زمرد خاتون باسم مسجد زبيدة أم جعفر قال "هذا المسجد قرب مسجد الشيخ معروف الكرخي وقد اندرس سنة خمس وتسعين ومائة وألف وكان واسعا رصين البناء قوي الأركان، ولما بنى سليمان[3] باشا والي بغداد، سور الجانب الغربي، استعملت أنقاضه في بناء السور، ولم يبق اليوم سوى قبر زبيدة من ذلك المسجد، وعليه قبة مخروطية

---

(1) وذكر كتابة قبر زبيدة ونصها "إلى روحها الفاتحة، هذا قبر المرحومة المغفورة الموفقة للخيرات الجارية ست زبيدة بنت جعفر منصور الدوانيقي وزوجة هارون الرشيد من خلفاء بني العباس، توفيت سنة مائتين وست عشر". وأثبت كتابة شاهد عائشة خاتون ونصها "إلى روحها الفاتحة، هذا قبر المرحومة المغفورة الصالحة العفيفة، الساعية إلى الأفعال المرضية والأعمال اللاتي تستجلب المرضاة الإلهية، عائشة خانم بنت المرحوم مصطفى باشا، مصاحب السلطان مُحَّد خان – عليه الرحمة والغفران – وزوجة الدستور المكرم والوزير الأفخم والي بغداد دار السلام أبو الخيرات (كذا) حسن باشا – يسر الله له الخير كما يحب ويرضى ويشاء – توفيت في شهر رمضان، سبع وعشرين ليلة القدر سنة واحد وثلاثين ومائة ألف".

(2) رحلة نيبهر النسخة الفرنسية المذكورة في هذه المقالة "مج ٢ ص ٢٤٥".

(3) كان أول ولاية سليمان باشا الكبير لبغداد سنة ١١٩٣ على ما ذكر ياسين العمري في الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، فبناء السور بعد تلك السنة وقبل سنة ١٢١٧ ففيها كانت وفاة الوزير المذكور.

الشكل، من نوادر الفن المعماري نحو ميل السهروردي، وكان تاريخ العمارة داخل المشهد بالحجر الكاشي وقد اقتلعه من اقتلعه، ويقول من أدركه أنه حفظ شيئا منه وهو:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ. هذا مرقد أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور عبد الله بن مُحَمَّد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، وهي أم الأمين مُحَمَّد بن هارون الرشيد، أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وكانت وفاتها سنة ستة عشر ومائتين في جمادى الأولى وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله أجمعين".

وهذا مخالف لما ذكره الرحالة نيبهر وفيه إشكال هو خلوه من التاريخ وأن "صلوات الله وسلامه" لم يكن سهلا قولهما في ذلك العصر لبني العباس، ولأن "صلى الله على مُحَمَّد وآله أجمعين" ليست إلا من أسابيع التشيع البعيدة عمن يحترم السيدة زبيدة من المتأخرين، ولو كانت الكتابة عباسية لكان ذلك جائزا.

ومن أغرب ما نذكر ههنا أن بعض الباحثين المعاصرين قال "وقد أخبرني بعض المعمرين أن قبرا بجنب قبر الست زبيدة تحت القبة التي في الشونيزي" مقبرة معروف الكرخي[1]، ينسب للإمام أبي يوسف، وزاد أنه

(1) هذا وهم فإن الشونيزي هي مقبرة الشيخ جنيد الصوفي وأما مقبرة معروف الكرخي فهي مقبرة باب الدير.

رأى كتابة على جدار القبة وعند رأسه تشعر بدفنه هناك، وهذا أمر ثان لابد من الركون إليه والتبصر فيه، وهو أن زبيدة زوج الرشيد توفيت ٢١٠ "وفيات[١] ج ١ ص ١٨٠"، وهذا فيما لو صح أن هذه القبة وهذا القبر لها وهو أمر لا يتفق والتاريخ لأن ابن الأثير يقول أنها دفنت في مقابر قريش[٢]، وأن أبا يوسف توفي سنة ١٨٢هـ فهل كان دفنه تحت القبة قبل دفن زبيدة أم كيف كان الأمر؟ ولذا اضطربت من هذه الملاحظات لشدة وقعها في نفسي وقلت متعجبا: كيف فات العلماء والمؤرخين هذه الحقيقة الناصعة؟ وكيف أخذ الناس بتعظيم قبر دفين مقابر قريش أبي يوسف "نجم الدين الشاعر"؟ واهمين أنه قبر الإمام أبي يوسف تلميذ صاحب المذهب"[٣].

ونحن إنما ذكرنا مثل هذه الأقوال لكي لا يقال أغفلنا شيئا وإلا فإنها أقوال لا يعتمد عليها في التحقيق التدقيق، لثبوت كون الإمام أبي يوسف مدفونا في مقابر قريش أي الكاظمية الحالية وقبره هناك صحيح ثابت الوجود في الأخبار.

ومن هذه القصة وأمثالها نعلم أن كثيرا من ذوي الفضول في التاريخ يبتدعون أمورا ويذكرون أشياء لا صحة لها فتصدق العامة بأقوالهم وتشيع

---

(١) ذكر مؤلف الوفيات أن وفاتها سنة ٢١٦ لا سنة ٢١٠.

(٢) لم يذكر ابن الأثير ذلك وإنما ذكر أن قبرها هناك احترق سنة ٤٤٣ أي بعد ٢٢٧ من وفاتها.

(٣) عبد الحميد عبادة في "لغة العرب" مج ٧ ص ٧٥٤ وما بعدها.

بينهم وتصبح كالحقائق التاريخية يصعب تكذيبها لصعوبة قبول العامة مثل ذلك التكذيب.

وقبل أن نختم الكلام على تربة السيدة زمرد خاتون نود أن نشير إلى أن الترميم قد تعاور القبة وقواعدها كما يدل عليه الآجر والزخرف، فضلا عن التاريخ، وآخر ترميم يذكره المعاصرون هو الذي أجري في عهد الوالي ناظم باشا ١٩٠٧- ١٩٠٨م.

٢- جامع قمرية:

كان القدماء يسمونه "مسجد قمرية" بضم القاف وتسكين الميم، لأن الجامع هو المسجد الذي تصلى فيه صلاة الجمعة وقد نسي الناس الفرق بينهما وغلبوا اسم "الجامع" على كل بناية خاصة بإقامة الصلوات المكتوبة.

إن هذا الجامع لا يزال قائما على دجلة، معروف باسمه القديم في الجانب الغربي من بغداد، ولم يبق من بنائه القديم إلا منارته كما هو الحال في مسجد السيدة زمرد خاتون الذي ذكرنا أنه يسمى اليوم جامع الخفافين وكحال مشهد الشيخ معروف الكرخي فإنه لم يبق من عمارته العتيقة إلا المنارة (انظر صورة المنارة).

والذي بنى جامع قمرية هو الخليفة أبو جعفر منصور الملقب بـ "المستنصر بالله" قال علي بن أبي الفرج بن الحسين البصري في ترجمة هذا

الخليفة "وبنى مسجد قمرية في نهاية البناء خرج عليه ثمانية عشر ألف دينار"[1].

إن إضافة هذا المسجد إلى اسم مؤنث هو "قمرية" يدل آثر ذي أثير على أنها جارية أو حرة من نساء الخلفاء، قال العلامة محمود شكري الآلوسي "هو من المساجد القديمة في الجانب الغربي على ساحل دجلة، تجاه دار الحكومة التي في الجانب الشرقي وهو أصح مساجد بغداد قبلة، فيه مصلى واسع تضله قبلة رفيعة السمك، فيه منافذ من جهة القبلة على حديقة من أوقاف المسجد، وحول القبة مئذنة بيضاء بنيت بالآجر والجص قديمة العهد رصينة البناء". ثم ذكر أن اسم "قمرية" وارد في تاج العروس وأنه موصوف في الكتاب المذكور بأنه مسجد منسوب إليه بعض أهل العلم ثم قال "وقال بعض المؤرخين: أن هذا المسجد من أبنية الناصر لدين الله الخليفة العباسي، والوضع والبناء يشهدان له بذلك. وقمرية هذه لعلها من أهل بيته أو إحدى حظاياه من الجواري والله أعلم"[2].

ولم يذكر العلامة الآلوسي، المؤرخ[3] الذي نسب بناء المسجد إلى الناصر لدين الله، ولم يكن قوله "لعل قمرية من أهل بيته أو إحدى حظاياه" إلا استنباطا من الاسم نفسه فإنه يشبه أسماء النساء، على أن

---

(1) أصول التاريخ والأدب "مج ٩ ص ٨٩" نقلا من المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية.

(2) مساجد بغداد وآثارها "ص ١١٤".

(3) الظاهر لنا أنه نقل من منتخب المختار فقد جاء في ترجمة علي بن عبد الصمد بن أحمد بن عبد القادر ابن أبي الجيش وسنذكر ترجمته أنه "أم بالمسجد الذي أنشأة الإمام الناصر لدين الله بالجانب الغربي المعروف بقمرية" (ص ٥- ١٤٤).

علم خطط بغداد يفتح لنا باباً آخر في معرفة "قمرية" فقد ورد فيه أن "قمرية" اسم موضع بالجانب الغربي من بغداد على شاطئ دجلة بجوار قصر عيسى[١] وليس هو بالقرية كما كنا نسترجحه[٢] ففي أخبار الحرب بين المقتفى لأمر الله والسلطان مُحَمَّد بن محمود بن مُحَمَّد بن ملكشاه السلجوقي سنة ٥٥٢ داخل بغداد وفيما حولها "أن شبان بغداد كانوا يعبرون إلى جند ذلك السلطان بالمقاليع وزراقات النار، فيردون العسكر الكثير ويتلقون النشاب بميازر صوف، وكان القتال تحت قمرية وقصر عيسى" وجاء في أخبارها "أن علي كوجك من أصحاب السلطان المذكور نفذ جماعة فوقفوا على قمرية يصيحون إلى منكوبرس الشحنة من أصحاب المقتفي لأمر الله: نفذ رسولا نودعه رسالة إلى أمير المؤمنين[٣]" ولم ينفرد هذا المؤرخ بذلك فقد ذكر "قمرية" بالتعريف عماد الدين الأصفهاني، قال في الحرب المذكورة عينها "وكانوا – يعني عسكر السلطان مُحَمَّد – قد نصبوا من الجانب الذي من دجلة على مسناة دار العميد، وبقرب القمرية منجنيقين عظيمين"[٤]. والظاهر لنا أن إضافة الألف واللام إلى "قمرية" من عمل البنداري ولعلنا أن نراجع الأصل في دار كتب باريس.

---

(١) محلة قصر عيسى، هي المحلة التي فيها محطة عجلات بغداد فالكاظمية المعروفة بالتراموای وفيها أرض مدرسة الكرخ الثانوية.

(٢) لغة العرب "٩: ٢٩٥".

(٣) أبو الفرج ابن الجوزي في المنتظم "ج ١٠ ص ١٦٩، ١٧١".

(٤) البنداري في زبدة نصرة الفترة ص ٢٢٨ "طبعة مصر ويراجع بحث الأستاذ يعقوب سركيس في تاريخ هذا الجامع" لغة العرب "٧: ٢٤٧، ٦١٣" و٩: ١١٧".

وقد تحقق مما ذكرنا من الأخبار أن "قمرية" كانت في أيام بناء المسجد المضاف إليها اسم موضع لا اسم جارية ولا امرأة أخرى، وهذا لا يمنع أن يكون الأصل اسما لامرأة. ولقد تم بناء مسجد "قمرية" سنة ٦٢٦هـ = ١٢٢٨م وفتح في شهر رمضان منها قال ابن القوطي "وفي شعبان تكامل بناء المسجد المستجد المعروف بقمرية بالجانب الغربي على شاطئ دجلة المقابل للرباط البسطامي، ونقل إليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع وغير ذلك، وفتح في شهر رمضان، ورتب فيه مصليا الشيخ عبد الصمد بن أحمد ابن أبي الجيش[١]، وأثبت فيه ثلاثون صبيا يتلقنون القرآن عليه، ورتب فيه معبد يحفظهم التلاقين[٢]، ورتب أيضا الشيخ حسن الزبيدي محدثا يقرأ عليه الحديث النبوي في كل يوم اثنين وخميس، ورتب أيضا قارئ للحديث، وجعل في المسجد خزانة للكتب وحمل إليها كتب كثيرة[٣].

وقيل للشيخ ناصح الدين إسماعيل بن عبد الرحمن بن الزبيدي: قد فرش في مسجد قمرية زلية[٤] في وسطها جامات مكتوب فيها "الملك لله" فمضى إلى قاضي القضاة عبد الرحمن بن مقبل الواسطي وطلب إليه إزالة

---

(١) في هامش الأصل ما يدل على أن عبد الصمد هذا كان حنبليا ولم ينتقل من مذهبه مع اشتراط الواقف وهو المستنصر بالله أن يكون المصلي شافعيا لتشفع الخلفاء يومئذ، وسنذكر الخبر على وجهه في ملحق التراجم منقولا من طبقات القراء لشمس الدين الذهبي.

(٢) التلاقين جمع التلقين وهو ما يلقنه الشيخ تلاميذ من قرآن ودين وغيرهما.

(٣) الحوادث الجامعة "ص ٤".

(٤) أي (زولية).

ذلك. فقال له: هذا المسجد أمره مردود إلى شمس الدين أحمد بن الناقد وكيل المستنصر بالله. فمضى إليه وقال له في ذلك، فلم يلتفت إليه، فخرج على فوره ومضى إلى المستنصر بالله وكان في ناحية الصالحية بنهر عيسى لأجل الصيد، وكان الزمان شاتيا فوصل إليه ليلا، فقرأ شيئا من القرآن المجيد، فلما سمع المستنصر صوته أنفذ إليه من سأله عن حاله، فذكر ما عنده، فأمر الخليفة الوكيل بإزالة ذلك وأنكر الحال عليه، ثم سئل الشيخ ناصح الدين هل من حاجة غير هذا؟ فقال لا. وعاد على الفور والبرد شديد[1].

وفي هذه الأخبار ما يفيد أن مسجد قمرية كان مدرسة للقرآن والحديث وآداب الإسلام إلى كونه مقاما للصلوات.

منارة مسجد قمرية

ذكرنا أنه لم يبق من البناء العتيق من مسجد قمرية إلا المنارة ولهذه المنارة طراز خاص بها، فإنها وإن أشبهت منارة جامع الخفافين ومنارة تربة الشيخ معروف الكرخي فإن أعلاها، من حوضها فصاعدا حتى قمتها، دقيق بالنسبة إلى الحوض والقاعدة، وهذا عندي أضمن لبقائها زمنا أكثر، لأن ضالة الأعلى تخفف من الضغط على القاعدة، وفي قمتها حجارة صغار من الكاشي الأزرق والأبيض، على نحو ما في منارة جامع الخفافين، ومنارة الشيخ معروف الكرخي، قد رتبت أشكالا زخرفية هندسية. إن هذه

([1]) الحوادث الجامعة "ص ١٨٨".

المنارة أقل إتقانا وبراعة فنية من تينك المنارتين. وقد ظهر أثر الترميم على حوضها من اختلاف آجره وأسلوب بنائه.

تاريخ المسجد

ذكرنا أنه تكامل بناؤه في شعبان سنة ٦٢٦ وافتتح للصلاة وتلقين القرآن ورواية الحديث في شهر رمضان من السنة المذكورة، وفي سنة ٦٥٣ غرقت بغداد غرقا فظيعا، فأصاب الماء مسجد قمرية فهدم بعضه، وفي سنة ٦٥٥ فاضت دجلة أيضا فأغرقت بغداد، وهدمت فيما هدمت نصف مسناة مسجد قمرية، فعمل مكانها سكر من الخشب والطرفاء، ثم سقطت الدولة العباسية والمسجد على تلك الحال، واستمرت السنون حتى سنة ٦٦٧ ففيها أمر علاء الدين عطا ملك الجويني والي العراق في أيام سلطنة أباقا بن هولاكو بعمارة مسناة المسجد وتجديدها كما كانت أولا[١].

أما إمام المسجد وملقن صبيانه الأيتام القرآن الكريم أعني الشيخ عبد الصمد بن أحمد بن أبي الجيش فقد بقي على وظائفه فيه حتى سنة ٦٥٢، فإن الخليفة المستعصم بالله أمر فيها بوقف "دار[٢] سوسيان" وما يجري معها من الحجر والبساتين، وجعلت رباطا للصوفية، ورتب الشيخ عبد الصمد المذكور شيخا للصوفية بها، وجعل ابنه الأكبر أحمد مكانه في مسجد قمرية. ولما سقطت الدولة العباسية في سنة ٦٥٦ جعل الشيخ

(١) المرجع المذكور "ص ٣١٩، ص ٣٦٥".

(٢) جاء اسم هذه الدار في كتاب العراق بين احتلالين "ج ١ ص ٢٨٨" دار سونيسان والصحيح ما ورد في الحوادث "ص ٢٤٥، ٢٧٤، ٣٩٦" وهو سوسيان بن آي دغدي شملة.

عبد الصمد خازنا للديوان ببغداد وذلك في أول عهد الدولة الإيلخانية بالعراق، ووصف بكونه إمام مسجد قمرية قبل ولايته خزن الديوان، ثم ترك ذلك وعاد إلى الإمامة بالمسجد وأضيفت إليه الخطابة بجامع الخليفة أي جامع القصر المعروفة بقيته بجامع سوق الغزل في أيامنا، وبقي على ذلك حتى وفاته سنة ٦٧٦[١].

وجاء في تاج العروس أن عبد الكريم بن منصور القمري بالضم كان يقرئ بمسجد قمرية وأن له شعرا ورواية وأنه حدث عن أصحاب الأرموي أبي الفضل مُحَمَّد بن عمر بن يوسف المتوفى سنة ٥٤٧ فهو من أهل القرن السابع وأنه منسوب إلى مسجد قمرية غربي مدينة السلام. وبعد هذا سكتت التواريخ عن مسجد قمرية إلا أن اسمه بقي تردده الألسنة عصرا بعد عصر حتى يومنا هذا، وقد ذكر الأستاذ يعقوب سركيس أن دلي حسين باشا والي بغداد الذي وليها بضعة أشهر من سنة (١٠٥٤هـ) شيد أركان هذا الجامع وعمر قبابه، وربت له خطيبا وإماما بعد أن كان خرب أيام الفتن، وقال العلامة محمود شكري الآلوسي "وقد جرت على هذا المسجد عمارات كثيرة من ذلك عمارة السيدة عائشة بنت أحمد باشا والي بغداد سنة ١١٦٣" الصواب (١١٤٩– ١١٦١) وكان زوج عمر باشا الذي كان واليا على بغداد سنة ١١٧٧[٢] كما دل على ذلك مضمون الأبيات المحررة على باب المصلى، ثم اختل البناء ومال إلى الانهدام سنة

---

(١) الحوادث الجامعة (٢٧٤، ٣٣٣، ٣٩٦).

(٢) وليها سنة ١١٧٧ وعزل عنها سنة ١١٩٠ وفيها قتل.

١٢٣٠ فتداركه سعيد باشا والي بغداد يومئذ، فأعاد عمارته إلى أحسن مما كانت عليه، وعند ختامها كتبوا تاريخها على محراب المصلى(١)... وهذا المسجد اليوم(٢) تقام فيه الجمع والأعياد وسائر الصلوات، وفيه خطيب والإمام وجملة من الخدم والمصلى مفروش بأحسن الفرش، وفيه بضع حجر يقيم فيها خدام المسجد. ومن الكتابات التي على جدرانه هذه الأبيات:

وعائشـــــة الخـــــير قـــــد عمــــرت

مكـــان الوضـــوء فضـــاهى قصـــورا

وأجـــرت بـــه مـــن نمـــير الميـــاه

زلالا يـــــروي العطـــــاش دهـــــورا

بمتجـــــــر إيمـــــــانهم أرخـــــــوا

"ســقاهم ربهــم شــرابا طهــورا"(٣)

قلت: ولا يزال هذا الجامع العباسي المستنصري معمورا مألوفا في أوقات الصلوات وهو من الجوامع المشهورة، ويجب على مديرية الأوقاف

---

(١) وذكر الأبيات.

(٢) أي سنة ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م وهي سنة تأليف الكتاب.

(٣) الأستاذ يعقوب سركيس "لغة العرب ٧: ٢٢٧" ونقل خبر تجديد لعمارته مشكوك فيه حدث سنة "١٠٩٣هـ" (مرجعه المذكور ص ٦١٤" ومساجد بغداد وأخبارها "٥- ١١٤".

أن تعنى به الاعتناء الأكمل، وتصون عمارته الصيانة البالغة، لمكانته من التاريخ العراقي العربي العباسي.

٣- تربة الشيخ معروف الكرخي:

لقد قدمنا في أوائل بحثنا هذا أن تربة السيدة زمرد خاتون المعروفة اليوم بالست زبيدة هي في مقبرة معروف الكرخي، ولم يبق من تربته العتيقة إلا المنارة الجميلة (تأمل صورتها)، وهذا الشيخ الجليل الزاهد من الشهرة بحيث لا يحتاج إلى نعت ولا وصف ولا بيان ولا ترجمة إلا أننا نذكر تاريخ وفاته وهو سنة "٢٠٠هـ" على أصح الأقوال، والمقبرة التي دفن فيها تسمى مقبرة باب الدير[١] كما أشرنا إليه آنفا، ولم يذكر المؤرخون أنه بنيت على قبره قبة[٢]، ثم بنيت له تربة ولكننا لا نعلم تاريخ بنائها إلا أنه ورد في حوادث سنة ٤٥٩ من المنتظم ما نصه "في ليلة الأحد سلخ شعبان احترقت تربة معروف الكرخي، وكان السبب أن القيم بها كان مريضا فطبخ له شعيرا، فتعدت النار إلى خشب وبواري هناك، وارتفعت إلى السقوف فأتت على الكل فاحترقت القبة والساباط وجميع ما كان. ثم أمر القائم بأمر الله بعمارة المكان"[٣].

---

(١) الخطيب البغدادي "ج ١٣ ص ١٩٩" وما بعدها.

(٢) جاء في أخبار أبي تمام ما نصه "قال البحتري: وبنى عليه أبو نهشل ابن حميد الطوسي قبة" (وفيات الأعيان) وهذا يدل على شيوع بناء القبب على الموتى في ذلك العصر، وقد جرت عادة المؤرخين أن يذكروا التربة والقبة والمشهد بمعنى واحد.

(٣) المنتظم "ج ٨ ص ٢٤٦".

وذكر ابن الأثير خبر هذا الحريق أيضا ولكنه أرخه بذي القعدة من السنة قال: "وفيها في ذي القعدة احترقت تربة معروف الكرخي- رح- وسبب حريقها أن قيمها كان مريضا فطبخ لنفسه ماء شعير، فاتصلت النار بخشب وبواري كانت هناك فاحترقت واتصل الحريق فأمر الخليفة أبا سعد الصوفي شيخ الشيوخ بعمارتها[1]" ثم أشار إلى اجتهاد أبي سعد الصوفي النيسابوري في عمارة التربة عند الكلام على وفاته سنة ٤٧٩ قال "وجد تربة معروف الكرخي بعد أن احترقت"[2].

منارة تربة الشيخ معروف الكرخي

إن هذه المنارة الرصينة المتينة القائمة من أجمل المنار وأبرعها في فن البناء وقد ذكرنا في الكلام على مسجد زمرد خاتون المعروف بجامع الخفافين أن بينهما تشابها، ولا يبعد أن يكون بانيهما رجلا واحدا، على أن منارة معروف أقصر من تلك وفي أحد إيواناتها، الصغيرة المزخرفة بزخارف بنائية وهندسية الحاصلة من إشراف الحوض ونتوء المقرنصات، نقش تاريخ بنائها ونصه "بنيت هذه المنارة سنة اثني عشر[3]" فهي مبنية في عهد الناصر لدين الله، والظاهر أنه أمر ببنائها بعد وفاة ابنه أبي الحسن علي بأيام، وقد أدخل البناء فيها قطعا كثيرة صغيرة من الآجر الأزرق والأبيض، على أشكال هندسية ولم يؤثر فيها الغرق الهائل الذي أصاب بغداد سنة

(1) الكامل في حوادث سنة ٤٥٩ "ج ١٠ ص ١٩" من طبعة مصر.

(2) المرجع المذكور "ص ٥٥".

(3) الصواب "اثنتي عشرة" والظاهر لنا صعوبة أن يكون البناء نحويا في القرن السابع.

٦١٤ بله الأغراق الأخرى التي حدثت ببغداد وقد وصفه ابن الأثير ومما قال "وأما الجانب الغربي فتهدم أكثر القرية ونهر عيسى والشطيات وخربت البساتين ومشهد باب[1] التبن ومقبرة أحمد بن حنبل والحريم الطاهري وبعض باب البصرة والدور التي على نهر عيسى وأكثر محلة قطفتا"[2].

وتربة الشيخ معروف الكرخي معدودة في محلة قطفتا فالغرق قد أصابها لا محالة، إلا أن هذه المنارة القوية البارعة الفن لم يسقطها الماء وقاومت الزمان والحوادث حتى تملينا منظرها وفحصنا عن خبرها ووجدناها آية من آيات الفن العماري الرشيق العتيق. وقد أصابت الحوادث من حوضها فرمم وآثار الترميم عليه ظاهرة.

تاريخ تربة الشيخ معروف

أشرنا فيما سلف من كلامنا إلى جهلنا أول من شيد تربة للشيخ معروف الكرخي، ثم نقلنا خبر احتراقها الذي حدث سنة **٤٥٩** في خلافة القائم بأمر الله وأمره بتجديد عمارتها، ولم نعثر حتى اليوم على خبر تجديد العمارة المجددة المذكورة في أيام بني العباس ومن بعدهم حتى العهد العثماني الأخير في العراق، وإنما وجدنا خبر غرقها. فقد غرقت بغرق بغداد سنة

---

(١) عني به مشهد الإمام موسى بن جعفر.

(٢) الكامل في حوادث سنة ٦١٤ "ج ٢ ص ١٢٨" من طبعة مصر.

٦٤٦ وسنة ٦٨٣هـ[١] ولم يذكر لها العلامة محمود شكري الآلوسي تاريخ عمارة إلا سنة ١٣١٠ قال:

"وفي سنة ١٣١٠ أصلحه والي بغداد وهو يومئذ حسن باشا وزخرف المصلى، وبنى على قبة الشيخ معروف قبة، وهو في شرقي المصلى من جهة القبلة، في سرب من الأرض معقود عليه عقد بالآجر والجص، والصندوق الذي في المشهد اليوم إنما هو فوق السرداب على محاذاة القبر، وهذا السرداب طويل جدا وعمقه نحوا اثنتي عشرة درجة"[٢].

وفي هذا القول إشارة إلى ارتفاع القبور وتعاظلها وتراكمها حتى صار القبر في سرداب عمقه نحو ١٢ دركة، وتكاد القبور اليوم تسامت حوض المنارة فكان في ذلك نوع من الصيانة لها يقوم مقام التأزير[٣] والتبنيد ويقيها أذى الفيضان والميلان.

ملحق تراجم

١- أبو أحمد عبد الصمد بن أحمد بن عبد القادر ابن أبي الجيش بن عبد الله البغدادي.

ذكرنا في خبر افتتاح مسجد قمرية الشيخ مجد الدين أبا أحمد عبد الصمد بن أحمد بن عبد القادر ابن أبي الجيش وإسناد الإمامة فيه والإقراء إليه. وألمحنا إلى بعض

---

(١) ابن الفوطي في الحوادث الجامعة "ص ٢٣٠، ٤٤٢".

(٢) مساجد بغداد وآثارها "ص ١١٩- ١٢٠".

(٣) في المصباح المنير "وأزرت الحائط تأزيرا: جعلت له من أسفله كالإزار".

أخباره الأخرى، ولما كان اتصال التاريخ بمكونيه كاتصال الروح بالجسد وددنا أن نترجم هذا الشيخ العالم العراقي الذي طبقت شهرته الآفاق، ولاسيما بعد أن لم نجد له ترجمة محكمة في تاريخ العراق المصنف فنقول:

إن والده أحمد بن عبد القادر بن أبي الجيش كان يسكن محلة قطفتا "محلة الشيخ معروف الكرخي" وكان من رواة الحديث، سمع الحديث من أبي الرضا أحمد بن طارق الكركي وأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي وغيرهما وأن سكناه في محلة قطفتا تدل على أنه حنبلي. توفي ببغداد في السادس والعشرين من رجب سنة ٦٢٢ ودفن في مقابر الشهداء[١].

وكان ابنه أبو أحمد عبد الصمد قد ولد في المحرم سنة ٥٩٣، وأمه بنت الشيخ أبي زيد الحموي ونشأ ببغداد حنبليا كأبيه، ودرس ما يدرس أبناء المحدثين من فقه وحديث ورقائق، وقرأ القرآن الكريم قراءة تلقن، ثم قرأه بالروايات العشر على فخر الدين بن مُحَمَّد بن أبي الفرج بن معالي الموصلي المقرئ الشافعي، وعلي عبد العزيز بن أحمد بن الناقد وقرأ عليه المصباح في علم القراءات وسمع الشاطبية من أبي عبيد الله مُحَمَّد القرطبي وقرأ على جمال الدين بن الدبيثي وعبد العزيز بن دلف ومُحَمَّد بن أبي القاسم بن سالم ومُحَمَّد بن محمود الأزجي وعلي بن خطاب الموفق الضرير وإبراهيم بن الخير، وأحكم فن القراءات وأتقن هذا الشأن، وسمع الحديث من عبد العزيز بن أحمد بن الناقد أحد شيوخه في القراءات، وقد قدمنا ذكره والفتح بن عبد السلام وغيرهما كأبي غالب مُحَمَّد بن أبي غالب بن النزال، وأجاز له أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي وجمع أسماء شيوخه بالسماع والإجازة فكانوا فوق خمسمائة، وقرأ كتاب سيبويه والإيضاح والتكملة واللمع على العكبري قال شمس الدين الذهبي: كان إماما محققا

---

(١) أصول التاريخ والأدب "مج ٢٧ ص ٣٥٨" نقلا من التكملة لوفيات والنقلة. ومقابر الشهداء كانت في غربي الكاظمية بقليل بينها وبين مقبرة باب حرب قيل أنهم ممن قتلهم الخوارج والذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب.

بصيرا بالقراءات وعللها وغريبها صالحا ورعا زاهدا كبير القدر بعيد الصيت[١] وقال ابن رافع "وانتهت إليه مشيخة بغداد في الإقراء... وكانت له حلقة كبيرة وتخرج به جماعة في القرآن[٢]" ووصفه أحد المؤرخين بالمقرئ النحوي اللغوي الفقيه الخطيب الواعظ الزاهد، ومما ذكر من أخبار دراسته أنه قال: ما كان فخر الدين مُحَمَّد بن أبي الفرح الموصلي يأخذ على كتابا[٣] من كتب القراءات إلا بشيء ولما أردت أن أقرأ عليه كتاب التبصرة لمكي[٤]، وكان يرويه عن ابن سعدون القرطبي بعت بقيارا[٥] لي بسبعة دنانير ثم جعلتها في كاغد وناولته إياها. وكان عبد الصمد يروي أكثر من ثلاثين كتابا في القراءات[٦]. وقال آخر "كان إماما صالحا زاهدا كبير القدر بعيد الصيت".

وعند افتتاح مسجد قمرية في شهر رمضان سنة ٦٢٦ رتب عبد الصمد بن أبي الجيش إماما فيه ومقرئا للأيتام الذين جعلوا فيه ليتلقنوا القرآن، كما نقلناه من قبل، قال الذهبي "قرأت بخط السيف بن المجد قال. كنت ببغداد فبنى المستنصر مسجدا وزخرفه وجعل به من يقرئ ويسمع، فاستدعى الوزير جماعة من القراء وكان منهم صاحبنا عبد الصمد بن أحمد فقال له: تنتقل إلى مذهب الشافعي. فامتنع، فقال الوزير: أليس مذهب الشافعي حسنا؟ قال: بلى ولكن مذهبي ما علمت به عيبا أتركه لأجله. فبلغ الخليفة ذلك، فأعجبه قوله، وقال: هو يكون إمامه دونهم.

(١) المرجع المذكور "مج ٢١ ص ١٥٩" نقلا من طبقات القراء.

(٢) منتخب المختار من ذيل تاريخ النجار "ص ٦– ٩٥".

(٣) أي يقرئني إياه.

(٤) هو أبو بكر مكي بن أحمد بن مُحَمَّد البغدادي المقرئ نزيل واسط المتوفى سنة ٥٢١.

(٥) البقيار ضرب من الثياب أي القماش من النوع الفاخر، وكان في ذلك الزمن يتخذ عمائم.

(٦) أصول التاريخ والأدب "مج ٢١ ص ١٥٩".

وعرضت عليه العدالة[1] فأباها"[2]. ونقل إلى مشيخة الرباط بدار سوسيان سنة ٦٥٢ وجعل ابنه الأكبر مكانه في المسجد المذكور.

وجعل بعد احتلال هولاكو لبغداد خازنا بالديوان لثقته وعدالته، فأسند الإمامة والإقراء إلى ابنه الأكبر أحمد – على ما مرت إبانته – ثم ترك الخزن بالديوان وعاد إلى وظائفه بالمسجد المذكور، وأضيفت إليه الخطابة بجامع القصر، وألف ديوان خطب لنفسه في سبع مجلدات، واستمر على ذلك حتى وفاته في يوم الخميس سابع عشر ربيع الأول سنة ٦٧٦، ودفن بالجانب الغربي من بغداد بحضرة الإمام أحمد بن حنبل، في مقبرة باب حرب، ورثاه الأديب المؤرخ المحدث ظهير الدين علي بن مُحَمَّد الكازروني بأبيات[3].

٢- الشيخ أبو علي حسن بن المبارك بن مُحَمَّد بن يحيى الزبيدي.

ومر في خبر افتتاح مسجد قمرية اسم الشيخ حسن بن الزبيدي وترتيبه راويا للحديث في المسجد المذكور في كل يوم اثنين وخميس، وهذه ترجمته:

ولد أبو علي الحسن الزبيدي ببغداد سنة ٥٤٣، ونشأ فيها وقرأ القرآن والنحو، وسمع الحديث وكتب كتبا كثيرة بخطه ومن شيوخه، في الحديث أبو الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي وأبو علي أحمد بن أحمد بن علي بن الخراز وأبو جعفر مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطائي الهمذاني، وأبو أحمد معمر بن عبد الواحد بن الفاخر، وأبو زرعة طاهر بن مُحَمَّد بن طاهر، قال زكي الدين المنذري "كان نبيلا غزير الفضل صدوقا"

---

(١) أي أن يكون شاهدا عدلا يشهد عند القاضي.

(٢) المرجع المذكور قبل هذا "مج ٢١ ص ١٥٩".

(٣) المراجع المذكورة، وقد ترجمه الصفدي في الوافي بالوفيات باختصار.

وكان قد قال "ولنا منه إجازة كتب بها إلينا من مكة وبغداد إحداهن (كذا) سنة ٦١٤"[١].

وقال محب الدين بن النجار "كان فاضلا عالما أمينا متدينا صالحا، حسن الطريقة رضي السيرة، له معرفة تامة بالنحو، وكتب بخطه كثيرا من كتب التفسير والحديث والتواريخ والأدب، وكانت أوقاته محفوظة... وعمر وحدث بالكثير وقال الذهبي: حدث ببغداد ومكة، وكان حنبليا ثم تحول شافعيا، ثم استقر حنفيا". والظاهر أنه انتقل إلى الشافعية حينما ندب لتدريس الحديث بمسجد قمرية سنة ٦٢٦ على أن الذي يوهن هذا الظاهر هو قرب وفاته من تاريخ ندبه، فقد توفي يوم السبت لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وستمائة "ودفن يوم الأحد سلخ الشهر بمقبرة جامع المنصور قال جمال الدين ابن الدبيثي: قرأت على أبي علي الحسن بن المبارك بن مُحَمَّد الزبيدي ثم رفع الحديث إلى جابر – قال رسول الله – ص: لا يدخل أحد ممن بايع تحت الشجرة النار"[٢].

٣- علي أو عبد المنعم بن عبد الصمد البغدادي:

وذكرنا في أخبار مسجد قمرية أن ابن عبد الصمد الأكبر ناب عن أبيه في وظائفه بمسجد قمرية منذ سنة ٦٥٢ وقد وجدنا له ابنا آخر أَمَّ بالناس في المسجد المذكور بعد وفاته وهو محب الدين أبو الربيع علي أو عبد المنعم بن عبد الصمد بن أبي الجيش المقرئ، ولد ببغداد ضحى يوم الجمعة سادس ربيع الآخر سنة ٦٥٦ عقيب سقوط بغداد في أيدي المغول، ونشأ فيها وبعد إتمامه دراسة مبادئ المعارف الإسلامية، سمع الحديث من مُحَمَّد بن أبي الدينة جزء ابن عرفة بإجازة ابن كليب له،

---

(١) أصول الأدب والتاريخ "مج ٢٧ ص ٢٧٩" ولعل الأصل "ولنا منه عدة إجازات...".

(٢) أصول التاريخ والأدب "مج ٢٠ ص ١٣٠" و"مج ٢٧ ص ٣٧٩" والجواهر المضية في طبقات الحنفية "ج ١ ص ٢٠١" و"بغية الوعاة ص ٢٢٦" والشذرات "ج ٥ ص ١٣٠".

وسمع من والده عبد الصمد مسند أحمد بن حنبل بإجازة ابن الجوزي له، وصحيح البخاري، ومن كمال الدين علي بن وضاح، ومن علي بن علي بن عثمان الوجوهي وعبد الرحيم بن مُحَمَّد بن أحمد المعروف بابن الزجاج، واستجاز له والده في سنة ٦٥٧ النجيب عبد اللطيف بن القبيطي وغيره، وأجاز له أبو الفضل عبد الله بن محمود بن بلدجي في آخرين، وكان يحفظ محفوظات ويعظ وعلى ذهنه أشياء، وكان شيخا –كما ذكرنا – صالحا متواضعا منقطعا عن الناس، أم بالمسجد الذي أنشأه الخليفة المستنصر بالله المعروف بقمرية وفي سنة ٧٣٣ بعد وفاة تقي الدين محمود بن علي الدقوقي ولي مشيخة الحديث بالمدرسة المستنصرية قال ابن رافع "أجاز لي جميع ما يرويه[١]" ولم يذكر وفاته، إلا أننا نعلم أنه تولى مشيخة الحديث في المستنصرية وعمره ٧٧ سنة فالبقاء بعد هذه الإقامة الطويلة قليل.

٤– عبد الكريم بن منصور القمري:

لم أعثر على ذكر نسبته في غير تاج العروس وكونه أدرك تلامذة أبي الفضل مُحَمَّد بن عمر بن يوسف الأرموي المحدث المتوفى سنة ٥٤٧ يدل على أنه كان من أهل القرن السابع –كما ألمعنا إليه آنفا –.

والرجل الذي نعلمه بهذا الاسم إنما هو الأثري لا القمري قال الذهبي "والأثري نسبة إلى الأثر... وأمين الدين عبد الكريم بن منصور الموصلي الأثري، سمع من عبد المحسن بن الطوسي وعبد السلام الداهري وهذه الطبقة بدمشق والجزيرة والعراق، روى عنه الدمياطي مات سنة ٦٥١"[٢].

---

(١) منتخب المختار "ص ٥– ١٤٢".

(٢) المشتبه "ص ٣".

وقال جمال الدين بن الصابوني "معروف بالطلب مشتغل بالحديث والأدب وهو أبو مُحمَّد عبد الكريم بن منصور بن أبي بكر بن علي الموصلي الشافعي الأثري – كذا كان يكتب بخطه في الطباق والإجازات – سمع ببغداد من جماعة ودخل دمشق وسمع بها من والدي – رح – ومن غيره وتوفي سنة إحدى وخمسين وستمائة ولعله في شوال ببغداد وله نظم حسن[1]...".

---

(1) وذكر له أبياتا في مدح جماعة من الأئمة، أصول التاريخ والأدب "مج ٣١ ص ٨١" نقلا من كتاب "تكملة أكمال الكمال".

الابتكارات المعمارية في المسجد الجامع بقرطبة

د: السيد عبد العزيز سالم

يعتبر المسجد الجامع بقرطبة أشهر المساجد الجامعة في العالم الإسلامي كبر مساحة، وإحكام صنعة، وإتقان بنية، وجمال هيئة، وكان لقدم إنشائه- على أيدي حنش بن عبد الله الصنعاني وأبي عبد الله الرحمن الحبّلى التابعين، اللذين توليا تأسيسه منذ أول الفتح الإسلامي لقرطبة، وقوما محرابه- موضع إجلال أهل الأندلس والمغرب وتعظيمهم لبنيته، فأطلقوا عليه اسم الجامع الأعظم (١)، وسموه الجامع المبارك (٢)، والجامع المكرم (٣) ، ولهذا السبب اتخذ عرفاء البناء في المغرب والأندلس من عناصره المعمارية والزخرفية مثالاً احتذوه في منشآتهم الدينية: فجامع إشبيلية مثلاً أخذ من جامع قرطبة مظهره الخارجي، كما ورث منه أيضاً عظمة صحنه بعقوده السبعة في أروقة مجنباته التي تحدد عظم اتساعه، بدلاً من أربعة عقود في أروقة الصحن بجامعي الكتيبة بمراكش وتنمال بالمغرب (٤) ، كذلك قلد بناة جامع تلمسان بالمغرب الأوسط تخطيطه النهائي، الذي انتهى إليه بعد زيادة المنصور مُحَمَّد بن أبي عامر تقليداً تاماً: فبيت الصلاة في جامع تلمسان من عهد المرابطين يشتمل على ١٣ بلاطاً عمودية على جدار القبلة، يتميز البلاط الأوسط منها كما هو الحال في قرطبة بأنه أكثر اتساعاً من البلاطات الأخرى، كما يتميز نفس البلاط بوجود قبتين إحداهما أمام المحراب والثانية فوق منتصف البلاط الأوسط، على غرار ما نشاهده في وضع القبة المخرمة الكبرى بجامع قرطبة، في صف

العقود القائمة على دعائم ضخمة، تقطع البلاطات الطولية عرضاً، وتقسّم بيت الصلاة في جامع تلمسان إلى قسمين، كل منهما يشتمل على ثلاثة أساكيب (٥) ، وهذا الصف من الدعائم والعقود الحاجزة يشبه صفوف الدعائم والعقود التي تفصل بين بيت الصلاة القديم في جامع قرطبة، وزيادة الحاكم المستنصر بالله (٦) في نفس الجامع، كذلك أثر نظام توزيع القباب القائمة على البلاط الأوسط وأسكوب المحراب في الزيادة الحكمية بجامع قرطبة على مساجد الموحدين الجامعة، ويتمثل هذا التأثير على نظام القباب في جامع القصبة الموحدية بإشبيلية (٧).

ومن الجدير بالذكر أن عرفاء البناء في الأندلس في عصر دويلات الطوائف، قلدوا نظام التشبيكات البنائية التي ابتكرها بناة جامع قرطبة في قواعد قبابهم، ومن أمثلة هذا التقليد قاعدة قبة المصلى بقصر الجعفرية بسرقسطة، والتشبيكات التي نشهدها في القاعة الرئيسية بقصر بني حمود في قصبة مالقة، كذلك قلّد عرفاء البناء في المغرب في عصر دولة الموحدين، نظام الفتحتين المعقودتين اللتين تكتنفان جوفة المحراب في المسجد الجامع بقرطبة، في مساجد تنمال والكتيبة والقصبة بمراكش، كما قلدت قبابه القائمة على العقود البارزة المتقاطعة فيما بينها، بأشكالها المختلفة في قباب من عصر دويلات الطوائف، بل ومن عصر دولتي المرابطين والموحدين.

والحديث عن مظاهر هذا التقليد طويل ويبعدنا عن موضوع هذه الدراسة، التي نقتصر فيها على تخصيص ثلاثة عناصر معمارية مبتكرة،

ظهرت في جامع قرطبة وأثرت في مساجد الأندلس والمغرب في العصور التالية، وتعرض بعضها للتطور نحو الزخرفة.

لقد نجح عرفاء البناء بجامع قرطبة في التوصل إلى صيغ معمارية أصيلة، لم يسبقهم إليها أحد في تاريخ العمارة والإنشاء، وكانت موضع استلهام لصيغ معمارية مماثلة في العصور التالية، كنظام التشبيكات البنائية الذي سبق أن أشرنا إليه، واستخدام العقود التوأمية ثلاثية الفتحات التي ظهرت لأول مرة في صومعة المسجد الجامع بقرطبة، وفي إحدى قاعات قصور مدينة الزهراء، ثم ظهرت في القصر المبارك بقصر إشبيلية (داخل قاعة السفراء التي يرجع تاريخها إلى عصر دويلات الطوائف) وفي قصر بني حمود بقصبة مالقة، أو كنظام القباب ذات العقود البارزة المتقاطعة فيما بينها، والتي قلدت في كثير من القبوات والقباب الإسلامية في الأندلس والمغرب، على النحو الذي سنشير إليه في عصر دولتي المرابطين والموحدين.

فبالنسبة لتشبيكات العقود المفصصة التي ظهرت في قواعد القباب بجامع قرطبة، فإنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظام طابقي العقود المعروف بنظام العقود المتراكبة، الذي طبق على عقود الجامع داخل مسطح بين الصلاة بأكمله، فالعقود السفلى المتجاوزة لنصف الدائرة والمسماة «بعقود حدوة الفرس» Arcos de Herradura والتي تنبت من أطراف الحدائر الواقعة بين الأعمدة والدعائم، هي في حقيقة الأمر عقود متحررة تسبح في الفضاء الواقع بين صفي الدعائم العليا القائمة على العمد، وتؤدي هذه العقود

مهمة مزدوجة، إذ تجمع بين ربط العمد التي ترفع الأسقف الخشبية وتثبتها فيما بينها، وهي مهمة كانت تؤديها الأوتاد الخشبية في المساجد الجامعة الأولى في الإسلام، وبين إسباغ مظهر جمالي فريد من نوعه داخل مسطح بيت الصلاة الفسيح، الذي يمتد امتداداً لا يحده البصر، وتوحي هذه الصفوف المتراصة من العمد بعقودها المنطلقة في الهواء بالطبيعة الحية، فتظهر للناظر كما لو كانت غابة من النخيل.

هذه العقود المتحررة في الفضاء يمكن أن تقوم بمفردها دون أن تندمج مع عقود أخرى كما هو الشأن في بيت الصلاة القديم بجامع قرطبة، السابق للزيادة الحكمية، أو اللاحق لها، كما يمكن أن تتقاطع مع عقود أخرى بحيث تؤلف تشبيكاً من الحنايا والنحور الناتئة، التي ترتكز عليها قواعد القباب الأربعة بالزيادة الحكمية في الجامع المذكور (٨).

ويعتقد عالم الآثار الإسباني مانويل جومث مورينو أن فكرة تشابك العقود وتداخلها فيما بينها، أو قيام نحور ناتئة من أعلى رؤوس العقود المفصصة بمثابة ثورة معمارية أمكن تنفيذها في عمارة المسجد الجامع بقرطبة، بوعي معجز وإدراك متقن بحيث ترتب عليه تشبيك يجمع بين الوثاقة والجمال (٩) ، تتخلله فراغات مفصصة أقرب إلى شكل المعيّنات، مهدت لظهور فكرة الشبكات الزخرفية، التي طغت على فن البناء منذ القرن السادس للهجرة، لاسيما على أوجه الصوامع الموحدية (١٠) ، وعلى المسطحات المراد تزيينها في قصور بني الأحمر بغرناطة، ومساجد

المغرب ومدارسه في عصر بني مرين وما تلاه من عصور ، بل وعلى واجهات بعض الكنائس المسيحية في إسبانيا (١١).

وفيما يتعلق بالقباب القرطبية القائمة على هياكل من الحنايا البارزة المتقاطعة فيما بينها على نحو يتشكل منه في الوسط مثمن تشغله عادة قبيبة مفصصة، فقد قلدت تقليداً يكاد يكون متماثلاً في بعض قبوات مسجد طليطلة (١٢) ، وقبة مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة (١٣) ، وانتشر نظام التقبيبي القرطبي في الكنائس المسيحية ذات الأسلوب الرومانسكي مثل قبوة كنيسة المزان بقشتالة وتشبه قبة مدخل الزيادة الحكمية بجامع قرطبة، وفي كنيسة سانت كروا بأولورون، ومستشفى سان يليز المعروفة بمستشفى الرحمة في منطقة جبال البرانس (١٤) ، وقبة مصلى طلبيرة بالكاتدرائية العتيقة بشلمنقة، وقبوة دير لاس إويلجاس بمدينة برغش (١٥) ، كما تتمثل في كثير من الآثار الإسلامية في المغرب والأندلس، مثل قبوة بهو البنود بقصر الموحدين إشبيلية، وقبة المحراب بالمسجد الجامع بتلمسان، وقبة المحراب بجامع رباط تازي بالمغرب، وإن كانت قد تطورت في هذه الآثار الإسلامية تطوراً زخرفياً خالصاً، أفقدها مقوماتها البنائية التي ظهرت عليها في جامع قرطبة.

وفيما يتعلق بظاهرة العقود المتجاوزة لنصف الدائرة التوأمية ثلاثية الفتحات، التي تتمثل في وجهين من أوجه صومعة جامع قرطبة من عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر، فقد تكرر ظهورها كوحدة معمارية قائمة بذاتها في المجلس الفني بمدينة الزهراء من عصر نفس الخليفة، ثم تكرر ظهورها مرة

ثالثة في عصر دويلات الطوائف بالأندلس، في العقود المتجاوزة ثلاثية الفتحات بقاعة السفراء من قاعات قصر أشبيلية، وفي العقود ثلاثية الفتحات بالقاعة الرئيسة في صقر بني حمود بقصبة مالقة (١٦).

وهكذا كان جامع قرطبة مصدر إلهام فني لعرفاء البناء في الأندلس، في عصر دويلات الطوائف وعصر دولتي المرابطين والموحدين، بل إن هذا المصدر الإلهامي لم يقتصر على جامع قرطبة، وإنما تجاوزه إلى أسماء قصور قرطبة، ففي سرقسطة نشهد قصر المذهب وقصر الجعفرية، وفي طليطلة قصر الناعورة، وفي بطليوس قصر البديع، وفي إشبيلية القصر المبارك، والقصر الزاهر، وكلها أسماء قصور تماثل نظائرها في قصر الخلافة بقرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس.

الهوامش

(١) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخص أخبار المغرب، تحقيق الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة ١٩٤٩ ص٣٧٢- ابن الخطيب، كتاب أعمال الأعلام، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، بيروت ١٩٥٦ ص٤٣، ٤٨- المقري- نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩ ج٢ ص١٠، ٩٩.

(٢) ابن حيان، نصوص نشرها ليفي بروفنسال من المقتبس في مجلة أرابيكا، مجلد ١ قسم ١، ليدن، ١٩٥٤ ص٨٩، وورد نفس النص في القسم الذي نشره الدكتور عبد الرحمن الحجي، بيروت ١٩٦٥ ص٢٤٣.

(٣) ابن غالب، قطعة من كتاب فرحة الأنفس، تحقيق د.لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٥٦، ص٣٠.

(٤) السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، القاهرة ١٩٥٨ ص٦٣.

(5) Marcais (G), L, Architecture Musulmane D, Occldent Paris, 1454, P. 195.

(6) Elie Lambert, Les Mosquees De Type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al- Andalus, vol. X1v, 1949, P. 285.

(٧) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢: المغرب الإسلامي، الإسكندرية ١٩٦٦، ص٦٥٨.

(٨) عبد العزيز سالم، مظاهر الأصالة في بنيان المسجد الجامع بقرطبة، من بحوث ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد فكري، الإسكندرية ١٩٨٣، ص٤١.

(٩) جودت مورينو، الفن الإسلامي في أسبانيا، ترجمة د. لطفي عبد البديع ود. السيد عبد العزيز سالم، القاهرة ١٩٥٩، ص١٢٠، ١٢٩.

والمعروف أن عرفاء البناء في الأندلس في عصر دويلات الطوائف قلدوا هذا النوع من التشبيك الذي ظهر لأول مرة بجامع قرطبة في قواعد قباب الزيادة الحكمية تقليداً يكاد يكون كاملاً، ويتمثل هذا التقليد في تشبيك قاعدة قبة مصلى قصر الجعفرية بسرقسط، وتشبيك الجوسق الغربي بقصر بني حمود بقصبة مالقة، وتشبيك قاعدة قبة قاعة السفراء بالقصر المبارك بأشبيلية.

(١٠) حيث تغمر القطاعين الرأسيين بكل وجه من أوجه صومعة جامع القصبة بإشبيلية، وكذلك نشهد أمثلة من هذه الشبكات الزخرفية في صومعة جامع الكتبية بمراكش، وجامع حسان بالرباط وجامع القصبة بمراكش، وفي واجهة قصر الجص بقصر أشبيلية، وقد طغى هذا النوع من العناصر الزخرفية في واجهات البراطل بقصور الحمراء بغرناطة.

(١١) مثل برج كنيسة أومنيام سانكتورام– Omnium Sanctorum وواجهة بهو الدميات Patio de las Munecas وبهو الفتيات Patio de las Doncellas وقاعة السفراء بقصر إشبيلية، وبداخل كنيسة الترانستو اليهودي بطليطلة، وبرجي كنيسة سان بابلو وكنيسة أتيكا وصدر كنيسة السيد بمدينة سرقسطة.

(12) Elie Lambert, l, Hopital Saint Blaise et son eglise hispano Mauresque, al. Andalus, PP. 179-187. 1940.

(13) Galiay, el Castillo de la Algaferia, 1906, P. 20.

(١٤) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس، ج٢، ص٤٥.

(15) Jose Camon Aznar, la Boveda gotica morisca de la Capilla de Talavera en la Catedral Vieja de Salamanca, al- Andalus, vol, v, 1g 40, P. 176.

(١٦) السيد عبد العزيز سالم، تحقيق أسماء قصور بني عبّاد بإشبيلية الواردة في شعر ابن زيدون، مجلة أوراق، عدد ٢، مدريد ١٩٧٩، ص٤٤.

العمارة الإسلامية في سوسة

صلاح عاشور

تُعدّ مدينة سوسة من أهم المدن التونسية ومن أقدمها، إذ يرجع تاريخها إلى عصر الرومان والبيزنطيين حيث كانت من الموانئ البحرية المهمة وبخاصة في القرن الثالث قبل الميلاد؛ ثم أصبحت مركزاً عظيماً للتجارة والعمليات البحرية. وقد فتحها المسلمون سنة ٤٥هـ على يد القائد ابن الزُّبير في إحدى الحملات الأولى على بلاد المغرب.

ومهما يكن من شيء فإن تاريخ هذه المدينة مجهول إلى حدٍّ ما فيما سبق عصر الأغالبة، وأول ذكر لها كان فيما كتبه اليعقوبي؛ إذ قال إن ابن الفرات سافر من سوسة سنة ٢١٢هـ لغزو صقلية. ويقول البكري عنها، إنها كانت معقلا بحريًا هامًّا، وإنه كان يصنع فيها المراكب في ذلك العصر.

وحقيقة الأمر أن الأغالبة هم الذين خلّدوا هذه المدينة؛ وجعلوا منها مركزاً دفاعيًّا هامًّا، وأن مدينة سوسة لم تمر في تاريخها بعصر زاهر كالذي مرَّت به في عصر الأغالبة، وإن كانت ظلت في القرن التالي لانقضاء دولتهم محتفظة بأهميتها، حافلة بالأسواق والقوافل والحمامات على حد قول ابن حوقل.

ويذكر الإدريسي أن هذه المدينة كانت في القرن الخامس الهجري محتفظة بالسكان، وكانت تجارتها رائجة وكان يقصدها الرحالة من كل جهة.

وهكذا نجد أنها اتُّخذت مرفأ في العصر الإسلامي؛ وقامت عظمتها المعمارية في عصر الأغالبة، وذلك لاحتوائها على مجموعة كبيرة من آثار عصر واحد أقيمت جميعها في مدى خمسين عاماً؛ في فترات متعددة، وتزداد عظمتها بتنوع هذه الآثار، فقد أقيم فيها الرباط، ومسجد أبي فتاتة، والمسجد الجامع، والأسوار الحربية والقصبة، والمنارة التي تنبر للبحر، وخزانات المياه.

• الرباط

وأول آثارها الدينية أهميَّة وتاريخًا هو الرباط. والرباط هو المركز الذي يقيم فيه المرابطون على أهبة الخروج للجهاد عندما يدعون إليه، وهو أيضاً المكان الذي يقيمون فيه أيام السلم؛ متفرغين للصلاة والعبادة، وهم يخصصون أشهر: رمضان وذي الحجة والمحرم للعبادة. وكان الرباط يتحول عادة فيما بقى من أشهر السنة إلى مركز للمتطوعين وللتجنيد.

وكان لهؤلاء المرابطين شيخ مشهور بالصلاح والتقوى متولياً رئاستهم وقيادتهم، وكان لكل رباط أوقاف موقوفة عليه وإعانات ترسل للمرابطين تعينهم على الحياة، ولما حكم الفاطميون تونس قضوا على المرابطين ومنعوهم فانقرضت هذه الفئة وأصبح يقيم في الأربطة شيوخ متعبدون لذلك يمكن القول بأن الرباط كان مؤسسة أغلبية.

فقد أقيم رباط سوسة سنة ٢٠٦هـ أمر بإقامته الأمير زيادة الله بن إبراهيم، ويظهر ذلك مسجلا على مئذنته.

والرباط عبارة عن مربع تقريباً؛ طوله أربعون متراً، وعرضه ثمانية وثلاثون متراً، وله صحن مستطيل طوله ثلاثون متراً، وعرضه ستة وعشرون متراً، وحول هذا الصحن مجنبات تطل عليه من كل جهاته، وفي المجنبة الجنوبية رواقان وتتفتح على هذه الأروقة حجرات صغيرة عددها عشر في الجانب الشمالي، وتسع في الجانب الشرقي؛ أي ثمان حجرات من كل جهة وحجرة في كل ركن. مدخلا للبناء، وهو المدخل الوحيد فيه.

وسور الرباط سُمكه حوالي ١٣٥ سم أقيمت في أركانه دعامة ضخمة مستديرة فيما عدا الركن الجنوبي الشرقي، فهو مربع تعلوه مئذنة وتتوسط جدرانه الشمالية والشرقية والغربية دعامة أخرى ضخمة شبه مستديرة؛ ونجد الباب البارز في وسط الجدار الجنوبي وهو عبارة عن بناء ضخم مستطيل. وهكذا يمتاز تخطيط الرباط بجدرانه السميكة؛ ووجود الصحن تشبهاً بالجامع والحُجر الضيقة التي تؤدي معنى التعبد.

والواقع أن هناك شبهاً كبيراً بين نظام الرباط ونظام الحصون البيزنطية فيما يتعلق بجدرانها ودعائمها وأبراجها.

ويزداد الطابع الديني لهذا البناء ظهوراً من نظام الطابق الثاني فيها، وهو يطابق إلى حد كبير الطابق الأرضي للبناء، غير أن الجانب الجنوبي

يحتله مسجد من أسكوبين، كما أن الأروقة في الطابق الأسفل؛ تعلوها في الطابق الثاني ممرَّات مكشوفة.

ويتكون المسجد من بيت للصلاة طوله أربعون متراً وعرضه إثنى عشر متراً وتتوسطه عقود تفصل بين الأسكوبين، وتقوم على عشر دعائم وتحمل العقود والدعائم سُقفُاً مبنية من أنصاف دوائر؛ ويلاحظ أن أسكوب القبلة أكثر سعة من الأسكوب الثاني، وبه إحدى عشرة بلاطة. ويتوسط جدار القبلة محراب. كما فتحت بهذا الجدار فتحات عالية تساعد على الإضاءة، ويوجد في الجدار المقابل خمسة أبواب؛ ويعلو المسجد والحجرات المقامة على الجوانب الثلاثة، سطحٌ مكشوف يدور حوله سور وأبراج، وتنتصب فيه صومعة (مئذنة) كما تقوم فيه قبة فوق موضع محراب المسجد.

• مسجد أبي فتاتة

وأقيم في سوسة مسجد أبي فتاتة سنة ٢٢٣هـ (سنة ٨٢٨ م) وهو مسجد صغير لا تزيد مساحة بيت الصلاة فيه طولا عن أحد عشر متراً وعرضاً عن ثمانية أمتار وبه ثلاثة أساكيب وثلاث بلاطات يتقدمها رواق مسقوف يطل على الصحن بثلاثة عقود من ناحية وبعقد من ناحية أخرى.

والواقع أننا لا نعرف تماماً شكل الصحن القديم أما صحن المسجد الحالي فهو مضلع، وقد استعمل بناة هذا الأثر الدعائم في البناء بدلا من العمد، وأقاموا له سقفاً معقوداً كما هو الحال في المسجد الجامع والرباط.

- **المسجد الجامع**

ويتلو ذلك الأثر تاريخيا المسجد الجامع الذي شيده الأمير أبو العباس مُحَمَّد بن الأغلب سنة ٢٣٣هـ سنة ٨٥٠ م وهذا التاريخ مسجل على الإفريز الموجود حول الصحن وقد كان المسجد قديماً يحتوي على ثلاثة أساكيب يتوسطها المحراب القديم ولكن أضيف إليه ثلاثة أساكيب أخرى وعمل به محراب جديد.

ويمتد بيت الصلاة على خمسين متراً تقريباً وعرضه ثلاثة عشر متراً تقريباً. أما حدود المسجد الخارجية القديمة فهي حوالي خمسين متراً أي أن المسجد كان مربعاً. والصحن مستطيل طوله أربعون متراً وعرضه ستة وعشرون متراً. ويلاحظ أن به ثلاث عشرة بلاطة وأن مجاز المحراب أكثر سعة من البلاطات الأخرى ويطل على الصحن ثلاث مجنَّبات شرقية وغربية وشمالية، وكلٌّ منها مكون من رواق واحد، وفي المجنَّبة الشرقية بابان، والشمالية باب واحد، والغربية ثلاثة أبواب؛ وهذه المجنبات بها أفاريز مكتوب عليها آيات قرآنية بالخط الكوفي. وللمسجد زيادتان شرقية وأخرى غربية.

فالزيادة الشرقية يوجد بها مسجد مكون من ثلاث بلاطات وخمسة أساكيب وأربعة أبواب، وبها أيضاً صومعة قد انهدمت في الحرب العالمية الماضية وتقع في الجهة الجنوبية الشرقية للمسجد، وقد بُنيت على شكل مستدير.

أما الزيادة الغربية، فهي عبارة عن رواق واحد به ميضأتان شمالية وأخرى جنوبية. وعلى حدود الميضأة الشمالية، توجد مساحة أقيمت بها دكاكين للانتفاع بأجورها. ويتفتح في هذا الرواق أبواب وباب رابع على بيت الصلاة.

والأبواب في هذه الزيادة الغربية تدل أشكالها على أنها أبواب أصلية للمسجد، وذلك يتجلى في شكلها وزخارفها، في حين أن أبواب الزيادة الشرقية عالية وخالية من النقوش والزخارف.

والملاحظ أن هذا المسجد قد أقيم على دعائم ضخمة بدلا من العمد، كما أضيفت إلى صحن المسجد مجنَّبة لبيت الصلاة، وعلى هذه المجنبة نقشٌ يحدد تاريخها بسنة ١٠٦٦هـ.

• الآثار المدنية

أما الآثار المدنية في تونس فهي المنازل والقصور التي أنشئت في عصر الأغالبة ويحدثنا المؤرخون أن إبراهيم بن الأغلب أقام القصر القديم سنة ١٨٥هـ بالقرب من القيروان.

وقد أنشأ إبراهيم بن أحمد في رقَّادة قصر الفتح سنة ٢٦٣هـ وأيضاً قصر البحر الذي كان يطل على خزَّان مياه واسع بشبه بحيرة صناعية.

أما خزانات المياه فما زالت آثارها باقية تنطق بعظمة العمارة والتصميم في بلاد كادت تنعدم فيها الأنهار واقتصرت مئونتها على مياه

الأمطار فقد كانت الطرق فيما بين القيروان وسوسة وسواحل البحر يتخللها خزانات وسدود للمياه بعضها صغير وبعضها متسع كبير. فمن النوع الصغير توجد خزانات عديدة بالقرب من القيروان وسوسة، ومن النوع الثاني توجد بقايا ثلاثة خزانات كبيرة؛ خزان رقَّادة وحوض الأغالبة في القيروان والسفرة في تونس، وتسمى هذه الخزانات بالمواجل.

وقد اختلف العلماء في أصل هذه المواجل فقد أرجعها بعضهم إلى العصور الرومانية والبيزنطية، وادَّعوا وجود أحواض صغيرة تشبه مواجل الأغالبة في تونس قبل العصر الإسلامي. ولكن الذي لا شك فيه أن مواجل الأغالبة قد أقيمت بطريقة فريدة في فن البناء لا نظير لها في العصور السابقة للإسلام؛ لذلك كانت هذه الأحواض إسلامية، وليست كما يدَّعون أنها رومانية أو بيزنطية.

وقد تناول كثير من علماء الآثار هذا الموضوع بالبحث، واتَّضح أن هذه المواجل أقيمت في العصر الإسلامي، ومن أهمها السفرة في سوسة، وهو حوض عظيم لا مثيل له بني كله تحت سطح الأرض وجميعه مسقَّف ويبلغ عمقه أكثر من خمسة عشر متراً وهو مربع الشكل يبلغ طول ضلعه ما يقرب من خمسة وعشرين متراً، وكانت تجلب إليه المياه بواسطة أنابيب وخزانات من خارج أسوار سوسة وكانت هذه الأنابيب تتخذ في الوقت نفسه مصفاة لهذه المياه.

وحقيقة الأمر أن طريقة بناء حوض السفرة في سوسة طريقة فريدة في نوعها بالنسبة لتصميم الأحواض لم تشاهد في أي فن من فنون العمارة فقد أقيمت لهذا الخزان سُقُف من قبوات أنصاف أسطوانية على هيئة سقف أساكيب المسجد الجامع بسوسة. ورفعت هذه السُّقف على عقود ضخمة ترتكز على دعائم وتوجد في أواسط القبوات فتحات متباعدة كانت تستخدم للتهوية، ولرفع المياه من الداخل.

* * *

أما عن العمارة الحربية والأسوار في هذه المدينة الخالدة، قد سبق أن بحثنا في رباط سوسة وفيما يتخذه هذا الرباط من مظهر حربي بجانب وظيفته الدينية وما به من عناصر معمارية تطبعه بالطابع الحربي، فقد كان في البلاد التونسية سلسلة من الأربطة يعتبر رباط سوسة أكثرها احتفاظاً بعناصره الأولى، وتبعه في ذلك رباط المنستير الذي أقيم بالقرب من سوسة. وتدل مظاهره على أنه كان يشترك مع رباط سوسة في عناصر مختلفة وعلى أنه أقيم في عصر الأغالبة.

وأهم هذه الأسوار، أسوار سوسة الحربية، ومنها نقش تاريخي مسجل على إحدى البوابات يؤكد إقامتها سنة ٢٤٥هـ. في عهد أبي إبراهيم أحمد، على يدي فتاتة حاكم سوسة حينئذ.

وترتفع هذه الأسوار إلى أكثر من عشرة أمتار ونصف من الخارج وثمانية أمتار بما في ذلك الشرفة العليا التي يبلغ ارتفاعها متراً ونصف متر

وهذه الأسوار ضخمة بحيث يزيد سمكها عن مترين. وقد أقيمت بحيث يخفُّ الضغط عن الأجزاء السفلى من هذه الأسوار بأن جُعل بها طابقان فتحت فيهما فتحات متسقة تتوجها عقود، وفي جهات طابق واحد فتحت فيه أيضاً فتحات تتوجها عقود من أنصاف دوائر بعضها منكسر.

وقد أقيمت في السور أبراج مستطيلة القاعدة في أماكن متفاوتة منها ويزداد ارتفاع هذه الأبراج عن الأسوار، ويبلغ أحياناً ثمانية عشر متراً. والواقع أن مهمة الأبراج هو دعم السور وتقويته، وتهيئ الفتحات ممرات فوقها للمحاربين تصل إلى الطابق العلوي.

ويتوج الأسوار شرفات ارتفاعها مترا وربع متر، فيها فتحات، تتخذ أشكال العقود وأنصاف الدوائر.

وفي الركن الجنوبي الغربي من مدينة سوسة ومن أسوارها، أقيمت منارة عالية ترجع إلى سنة ٢٤٥هـ وحولها حصن القصبة، وهي ثكنات خاصة للعساكر. ويلاحظ أن المنارة ترتفع إلى ثلاثين متراً وتحتوي على أربعة طوابق، وهي بناء مدرَّج في ارتفاعه شأنه في ذلك شأن مئذنة المسجد الجامع بالقيروان.

أما قاعدة المنارة فهي مربعة طول ضلعها أحد عشر متراً تقريباً، ويقل طول أضلاع الطوابق كلما ارتفعنا وقاعدة أعلاها طابق يصل طولها إلى ٧.٧٠ متراً.

والواقع أن الأغالبة أقاموا أسواراً حربية أخرى مثل أسوار سوسة في القيروان والمانستير وسفاقس، كما كان الحال أيضاً في بعض المدن الجزائرية. وأغلب الظن أن نماذج هذه الأسوار والأبراج اقتبست من العمارة البيزنطية في إفريقية، كما اشتقت نظمها من نظم القصور الشامية التي أقيمت من العصر الأموي. فقد كانت هذه القصور تتخذ أسوارها على شكل مربع تتخلله أبراج من أنصاف دوائر، وكانت تمتد من الداخل فجوات وغرف ومداخل، كما هو الحال في أسوار مدينة سوسة، فكان يقوم برج عالٍ أو منار في ركن من أركانها.

* * *

وخلاصة هذا البحث أن العمارة الإسلامية في سوسة تمتاز بميزات عديدة منها:

أنها من حيث التخطيط: وضوح بناء المساجد وبيوت الصلاة، وامتداد الأساكيب، موازيةً لجدار القبلة، وقلة عدد هذه الأساكيب.

ثم تسجيل تاريخ البناء، وهي ظاهرة لها أهمية عظيمة في تاريخ الآثار الإسلامية.

والواقع أنها كانت موجودة قبل آثار سوسة، كما اتبعت في شواهد القبور الإسلامية. وقد ظلت هذه الظاهرة قائمة في الآثار التونسية، وانتشرت في الآثار الإسلامية في جميع البلاد.

كذلك البناء بالدعائم، وهي طريقة جديدة؛ فقد كان البناة في العصور الأولى للإسلام يقيمون العقود على أعمدة، ويتخذون منها عنصراً أساسيًّا لمبانيهم.

أما في مدينة سوسة فقد استخدم البناة الدعائم بدلا من العُمُد. وليس من شك أن طريقة استخدام الدعائم، كانت معروفة في العمارة الإسلامية القديمة كما استخدمت في العمارة السابقة للإسلام، لكنها في سوسة تظهر لأول مرة في العمارة الإسلامية بطريقة نظامية عامة، لأن الدعائم كانت تتخذ في المعابد القديمة كعنصر لتدعيم أركان البناء، أما في مدينة سوسة فنجدها قد أقيمت عوضاً عن الأعمدة، وبذلك أصبح البناء لأول مرة خالياً من الأعمدة.

وقد كان من المعتقد؛ أن مسجد ابن طولون أول بناء في العمارة الإسلامية استعيض فيه عن الأعمدة بالدعائم، ولكن يظهر من دراسة العمارة الإسلامية في سوسة أن مبانيها هي التي أوحت فكرة البناء بالدعائم في مسجد ابن طولون، لأنه أقيم فيما بين سنتي ٢٦٣– ٢٦٥هـ أي بعد رباط سوسة بستين عاماً. وبعد بناء المسجد الجامع في المدينة نفسها بثلاثين عاماً، وأن هذا المسجد الأخير به أشكال زخرفية تطابق نظائر لها في المسجد الطولوني.

وتمتاز آثار سوسة بعقودها المتجاورة، ووضوح أشكالها، وظهورها بمظهر البساطة والجمال، وباستعمال السقف المبنية على شكل قبوات

نصف أسطوانية، وتحد الأبواب والصرر والنقوش المنحوتة فيها إطارات مستطيلة.

والواقع أنه لم يكن لهذه العناصر المعمارية والزخرفية الأثر في العمارة الإسلامية في بلاد المغرب فحسب، وإنما في بلاد الشرق عامة وبخاصة في مصر.

سامراء

سامراء.. تلك المدينة التي تمثل لونا خاصا من العمارة العربية المرحة الغنية بمظاهر الترف والبذخ حتى أن فنانيها كانوا يبالغون في استعمال رقائق الذهب والفضة في كساء بعض أجزاء المباني كما كان قدماء المصريون يستخدمونها في مبانيهم. وحتى في العصر الحديث يستعمل بعض المهندسين الألوان البرّاقة والعاكسة كصفائح الألومنيوم وخلافه..

ومدينة سامراء الحالية مبنية على أطلال مدينة "سُرَّ من رأى" القديمة التي تمتد أطلالها على طول نهر الدجلة إلى أبعاد شاسعة. وتصل من جهة الجنوب إلى محل قريب من فهم نهر "القائم". ومن جهة الشمال إلى صدر نهر الرصاص، ولذلك يبلغ طول الأطلال نحو أربعة وثلاثين كيلو متراً. وتقع ثمانية منها جنوب المدينة والبقية في شمالها، وقد أسس مدينة سامراء الخليفة المعتصم بن هرون الرشيد ثامن الخلفاء العباسيين سنة ٢٢١ هجرية الموافقة سنة ٨٣٦ ميلادية.. وقد وصلت إلى أوج عظمتها في عهد المتوكل (من سنة ٢٣٢ هـ ٨٤٦ م- ٢٤٧ هـ ٨٦١ م)..

وقد كتب عنها المؤرخ القديم اليعقوبي في كتاب البلدان أنها المدينة الثانية من مدن خلفاء بني هاشم، وقد سكنها ثمانية خلفاء، وقد كانت في متقدم الأيام صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها، وكان بها دير للنصارى بالموضع الذي صارت فيه دار السلطان المعروفة بدير العامة، وصار الدير بيت المال. فلما قدم المعتصم، بغداد، من طرسوس في السنة

التي بويع فيها بالخلافة، وهي سنة ثماني عشرة ومائتين، نزل دار المأمون ثم بنى داراً في الجانب الشرقي من بغداد، وأقام بها في سنة ثماني عشر وتسعة عشرة وعشرين وإحدى وعشرين ومائتين... وكان معه خلق كثير من الأتراك وهم يومئذ أعاجم..

أعلمني جعفر الخشكي قال: (كان المعتصم يرسلني في أيام المأمون إلى سمرقند إلى نوح بن أسد في شراء الأتراك؛ فكنت أعود إليه في كل سنة ومعي جماعة منهم حتى اجتمع له في أيام المأمون زهاء ثلاثة آلاف غلام، فلما أفضت إليه الخلافة ألح في طلبهم) واشترى من كان ببغداد من رقيق الناس. وكان أولئك الأتراك العجم إذا ركبوا الدواب ركضوا فيصدمون الناس يميناً وشمالا فيثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضهم ويضربون البعض الآخر فتذهب دماؤهم هدراً ولا يعرف من فعل ذلك. فثقل ذلك على المعتصم فعزم على الخروج من بغداد؛ فخرج إلى الشماسية وهو الموضع الذي كان المأمون يخرج إليه فيقيم به الأيام والشهور وعزم أن يبني بالشماسية خارج مدينة بغداد فضاقت عليه أرض ذلك الموضع وكره أيضاً قربها من بغداد فمضى إلى البردان..

وبعد البحث والتوقف في عدة مواضع عمد إلى "القاطول" فقال أن هذا أصلح موضع؛ فسيَّر النهر المعروف بـ "القاطول" وسط المدينة ويكون البناء على الدجلة والقاطول؛ فبدأ البناء وأقطع القواد والكتاب والناس فبنوا حتى ارتفع البناء واختلطت الأسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن هو في ما بني له وسكن بعض الناس أيضا..

ثم قال أرض القاطول غير طائلة وإنما هي حصار وأنهار، والبناء بها صعب جدا، وليس لأرضها سعة ثم ركب للصيد، وفي مسيره مر بأرض (سُرَّ من رأى) وهي صحراء من الطيرهان لا عمارة فيها ولا أنيس إلا دير للنصارى فوقف بالدير.. ثم عزم المعتصم على أن ينزل بذلك الموضع فاحضر وزرائه وقال لهم اشتروا من أصحاب هذا الدير هذه الأرض.. ثم أحضر المهندسين وقال لهم اختاروا أصلح هذه المواضع فاختاروا عدة مواضع للقصور وترك إلى كل رجل من رجاله وأصحابه بناء قصر.

ثم خطَّ القطائع للقواد والكتاب والناس، وخطَّ المسجد الجامع، واختط الأسواق حول المسجد الجامع ووسعت صفوف الأسواق وجعلت كل تجارة منفردة. وكل قوم على حدة على نسق أسواق بغداد. وقد جلب لذلك أمهر الصناع وأدوات البناء والمواد المختلفة من البصرة وبغداد وأنطاكية وسواحل الشام، وقد عزل قطائع الأتراك ومنعهم من الاختلاط بالمولدين ولا يجاورهم إلا الفراعنة. ثم اشترى لهم الجواري وزوجَّهم منهن وأجرى لهم أرزاقا قائمة.

وأحضر المعتصم كذلك من كل بلد من يعمل عملا من الأعمال أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والغرس وهندسة الماء ووزنه واستنباطه وحمل من مصر كذلك من يعمل القراطيس وغيرها وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر وحمل من الكومة من يعمل الأدهان ومن سائر البلدان كذلك من أهل كل مهنة وصناعة. وبنى المعتصم كذلك

العمارات والقصور فبنى في كل بستان قصرا به برك وميادين. فحسنت العمارات وتنافس الناس في البناء هناك.

وأهم الخرائب الباقية من مدينة سامراء القديمة هي الجامع القديم الكبير المعروف باسم المسجد الجامع ومئذنته المعروفة باسم "الملوية"، وهي مخروطية الشكل تستند إلى قاعدة مربعة يرتقي إلى قمتها من سطح صاعد في شكل حلزوني يدور حولها من الخارج ويبلغ طولها اثنين وثلاثين مترا وقطر القمة ستة أمتار ويبلغ مجموع ارتفاع المئذنة والقاعدة عن سطح الأرض ٥٢ مترا.. ويبدأ الصعود الحلزوني من وسط الضلع الجنوبي المقابل لجدار الجامع نفسه باتجاه عكس اتجاه عقرب الساعة في خمس لفات إلى أن يصل إلى باب القمة الذي ينفتح هو الآخر في وسط القسم الجنوبي.

والقمة الأسطوانية يبلغ ارتفاعها ستة أمتار وهي مزدانة بروازين عمياء مدببة العقد ومقعرة السطح وعدد هذه الروازين العمياء ثمان غير إحداها تقوم مقام الباب ويوصل إلى ذروتها دَرَج حلزوني يدور داخلها حول الممر وتدل المعالم الموجودة على أن هذه القمة كانت متوجة بسقيفة خشبية. وتقع هذه المئذنة خارج الجامع على بعد عشرين مترا من ضلعه الشمال. ولا شك أن شكل هذه الملوية ليس بغريب علينا هنا في مصر إذ أن أحمد بن طولون نقل طراز هذه الملوية في شكل مصغر إلى مصر، بعد أن أصبح حاكما عليها.

أما الجامع نفسه فلم يبق منه شيئ قائم غير جدرانه الخارجية التي تحيط بساحة مستطيلة طولها نحو مائتين وأربعين مترا وعرضها مائة وستين مترا ولا يقل سمك الجدار عن مترين. ويزيد ارتفاعه عن عشرة أمتار وقد دعمت من الخارج بأبراج نصف أسطوانية يبلغ عددها أربعين برجا. أربعة منها في الأركان وثمانية في كل ضلع من الضلعين الجنوبي والشمالي وعشرة منها في كل ضلع من الضلعين الشرقي والغربي..

ودار الخليفة أهم وأعظم القصور التي بنيت حين تأسيس سامراء. ويبلغ طول واجهته من جهة النهر ٧٠٠ مترا وأما المسافة التي بين بابه ومنتهى بناياته الخلفية فلا تقل عن ٨٠٠ مترا وذلك بقطع النظر عن الحديقة الفسيحة التي كانت تمتد أمامه حتى شاطئ النهر، ولقد لاحظ أطلال هذا القصر العظيم المهندس الفرنسي فيولة Viollet سنة ١٩٠٩ ورسم مخططا تقريبيا بالنظر إلى المعالم التي رآها ظاهرة عندئذ. ثم رسم صورة خيالية للقصر حسبما تصور حالته الأصلية. ولكن هذه الصورة الخيالية لا تبعد عن نتائج المسح التي قام به المهندس المشار إليه. وجاء العالم الألماني هرتسفيلد Herzfeld بعد فيولة Viollet وقام في القصر بتنقيبات وحرفيات منتظمة كشف خلالها قسميه الوسطي والجنوبي مع بعض أقسامه المتفرقة واكتشف قاعة العرش وغرف التشريفات والحمام ودوائر الحرم.. كما عثر على آثار كثيرة وصور بديعة ومواد خزفية. ويقع تل العليق في الجهة الشمالية من الجامع والشمالية الشرقية من بيت الخليفة، والتل محاط بخندق دائري عريض، والضفة الخارجية من الخندق المذكور محددة بسور منتظم وارتفاع التل عن السهل المجاور نحو ٢٥ مترا. وأما عمق الخندق

فنحو من ثلاثة أمتار وأن قطر التل نحو ٢٠٠ مترا، وأما قطر السور المحيط بالخندق فنحو ٤٥٠ مترا. ويعلل الناس تسمية هذا التل برواية يتناقلونها أبا عن جد وهي أن التل تكون من:

١- منظر جانبي لأطلال دار الخليفة.

٢- منظر لهاوية السباع بدار الخليفة.

٣- إطلالة قصر العاشق والسراديب.

التراب الذي تقبله الجنود الخيَّالة بعليق خيولهم، وإن الخليفة المتوكل أراد أن يظهر كثرة جنوده بدليل عياني محسوس فأمر بأن يأكل واحد من جنوده الخيالة طبقة بالتراب ثم يرميه هناك. والتل قد تكون من التراب الذي تجمَّع على هذا الوجه.

ساحة الفروسية: إن الخرائط الطبوغرافية الدقيقة والصور الجوية تظهر في السهل الذي يقع شمال المسجد الجامع شكلا غريبا جدا، وهو يتكون من حيث الأصل من اجتماع أربع حلقات كبيرة حول مربع مركزي. وقد اعتبرت الخرائط الإنكليزية التي تبينت هذه الأشكال ولاحظتها أنها حديقة غير أن التنقيات التي قامت بها مديرية الآثار قد أثبتت فساد ذلك الزعم وأنها إنما تتكون من طوقين متوازيين يدوران بهذا الشكل الجميل تاركين بينهما ساحة عرض فهما ٨٠ مترا تلتوي حول المربع المركزي أربع مرات دون أن تنقطع من أي محل كان. والمربع المركزي المبحوث عنه يكون

دكة مرتفعة تظهر عليها آثار بناية من الآجر، ولا يوجد داخل تلك الساحة شيء يشبه قنايا المياه يسوغ فرضه حديقة زينة. وبهذا يصبح أصح الفروض أنها إنما كانت ساحة فروسية.

٣- منظر خارجي لقبة الصليبية.

٢- المنقور ببقايا النصر الجنوبي.

٣- منظر لأطلال أبو دلف.

سمرقند الإسلامية

عمارة وزخرفة

د. مُحَّد محمود الجهيني

آسيا الوسطي تمثل شبه منحرف تحده من الجنوب جبال الهيمالايا، ومن الجنوب الغربي هضبة البامير، ومن الغرب تيان شان، ومن الشمال جبال الآلتاي، وبابلونوي، وستانوفوي ومن الشرق جبال كنجان وكوكونور.

– وسمرقند واحدة من مدن آسيا الوسطي، أشار إلى تسميتها بهذا الاسم الجغرافي العظيم ياقوت الحموي في معجمه، فذكر أن هذا الاسم ينطق بفتح أوله وثانيه، ويقال لها بالعربية "شمران" وقد عرفت أولا بـ (شمر أبو كرب) نسبة إلى أول من عمرها، ثم حرّف الاسم إلى "شمركنت" ثم عربت فقيل سمرقند أي وجه الأرض، وقد زارها في القرن الثامن الهجري الرحالة الشهير ابن بطوطة، ووصف عمائرها وحالتها العمرانية، فقال عنها:إنها من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالًا مبنية، على شاطئ وادٍ يعرف بوادي القصارين، وكانت تضم قصوراً عظيمة وعمارة تنبئ عن علوم أهلها.

مرت سمرقند بالكثير من الأحداث والعصور، التي كان لها دورها في عمرانها، فمنذ دخلها الإسلام على يد قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٨٧ هـ

، وانتهاءاً بالعصر التيموري، والمدينة تزخر بالكثير من روائع العمائر الإسلامية، فلقد وجه الدين الإسلامي الجديد الذي اعتنقه أهالي تلك المدينة وتباروا في الدخول فيه وجهة جديدة ، فشيدت المساجد، والدور، والقصور والمدارس، والخانقاوات(أماكن لتعبد الصوفية) والأسبلة، وغيرها.

هذه العمائر تميزت في كل عصر عن الذي يليه، واستمرت في أداء رسالتها رغم ما كان يعتريها من أحداث أثرت فيها تأثيراً بالغاً، مثلما حدث أثناء الغزو المغولي للمدينة، حيث قاموا بتدمير أسوارها وقصورها ودورها، ومساجدها، ثم ما لبثوا بعد أن اعتنقوا الدين الإسلامي أن قاموا بدور عمراني عظيم في هذه المدينة، فأعادوا إنشاء الكثير من المساجد، والمدارس، والقصور بمميزات عصرهم، وظلت المدينة تحتفظ بالكثير من هذه العمائر حتى جاء الأمير تيمورلنك واعتلي سدة الحكم على معظم مدن آسيا الوسطي، واتجه إلى اتخاذ سمرقند حاضرة لملكه فأعاد إنشاء أسوارها، وشيد قلعتها (مقراً لحكمه)، وشيد القصور والدور، والمساجد، والمدارس، وأضاف إليها البساتين المزهرة، وأصبحت المدينة في عصره تعج بالحياة وتزدان بالكثير من روائع العمارة الإسلامية مثل: مسجد " وتركان أكا"، "وتوجلوتيكين"، ووجدت المساجد والمدارس مثل مسجد ومدرسة بيبي خانيم، ومدرسة وخانقاة، ومسجد تيمورلنك، وغير ذلك من عمائر دينية، كما شيدت بالمدينة الكثير من القصور التي امتازت بالضخامة والفخامة في العمارة والزخرفة، وقد اندثرت معظم هذه القصور، وتبقي وصفها ضمن مصادر هذا العصر.

●وسوف نطالع معاً معالم هذه المدينة الإسلامية في عصر الأمير تيمورلنك معتمدين في ذلك على ما ذكر في المصادر التاريخية، وعلي ما تبقي من هذه العمائر داخل هذه المدينة، وسوف أخص من هذه العمائر الكثيرة والمتنوعة داخل هذه المدينة التي شيدها هذا الأمير وزوجاته وأمراؤه قصور سمرقند، ومسجد ومدرسة بيبي خانم، وضريح وخانقاة ومدرسة تيمورلنك.

القصور:

تعددت القصور التي شيدها تيمورلنك بحاضرته سمرقند، وجميعها تميزت بضخامة بنائها، واتساع ساحاتها، وتنوع تخطيطاتها، واشتمالها على أكثر من طابق فوجدت القصور ذات التخطيط المسدس، والمربع، والمتقاطع: ويمكن أن نتبين مدي ضخامة هذه القصور من خلال ما تبقي من قصر " آق سراي" "القصر الأبيض" الذي شيده تيمورلنك بمدينة كشي، فلقد اشتمل على مدخل يرتفع بمقدار خمسين متراً يؤدي إلى داخل القصر، وقد اشتمل تخطيط القصر من الداخل على جناحين أحدهما خصص للحريم ويعرف "بالحرملك" وآخر للرجال ويعرف بالسلاملك، وغالباً ما كان الجناح الأول في الطابق الأول.

وجميع قصور هذا الأمير تتميز باستعمال الآجر المصقول المزدان بالكتابات العربية باللونين الأزرق والذهبي، في تزيين جدرانها وحجراتها، التي كانت تتميز بتعددها، وفرط زخرفتها في الحرملك.

●بالإضافة إلى ذلك فإن هذه القصور قد تميزت باشتمالها على قاعات استقبال كبيرة تطل على بساتين ظليلة، كانت تعقد فيها جلسات الطرب والأنس.

وقد ذكرت لنا المصادر من هذه القصور ما يلي :-

(١)قصر دلكشا:

(القصر الصيفي).

وقد تميز مدخله المرتفع المزدان بالآجر الأزرق والمذهب، وكان يشتمل على ثلاث ساحات بكل ساحة فسقية.

(٢) قصر باغ بهشت (روضة الجنة)

شيد بأكمله من الرخام الأبيض المجلوب من تبريز، فوق ربوة عالية كان يحيط به خندق عميق مليء بالماء، وعليه قناطر تصل بينه وبين المنتزه، كما كانت تقوم عند جوانبه داراً للوحوش والسباع، وقد أهدي تيمور هذا القصر بعد اكتماله إلى حفيدته ابنة ميرانشاه، وكان لها عنده مكانة مرموقة.

(٣) قصر "باغ جناران" روضة الحور:

عرف هذا القصر بهذا الاسم لأنه كانت تحوطه طرق جميلة، يقوم شجر الحور على جوانبها، وقد شيد أيضاً فوق ربوة عالية تتوسط البستان، وكان ذا تخطيط متقاطع متعامد، وقد قام فنانو الشام بنقشه، كما زينت جدرانه الداخلية بالتصاوير وملئت غرفه بأثاث ضخم من الفضة.

(٤) قصر باغ نو(الروضة الجديدة).

(٥) قصر باغ شمال (روضة الشمال) :

وكلاهما تخطيطه مربع الشكل اشتمل على الكثير من الحجرات والقاعات التي زخرفت أرضياتها بالترصيع بالأبنوس والعاج.

وكل هذه القصور التي اندثرت معالمها، ولم يتبق منها سوي أسمائها وأوصافها تشير إلى مدي البذخ الفني والمعماري الذي كانت عليه عمائر أمراء ذلك العصر، وأخصها بعمائر تيمورلنك التي تنوعت تخطيطاتها وتعددت أقسامها، وزخارفها، ونقوشها، وأرضياتها، ومواد بنائها، وكلها تشير إلى عظمة ذلك الأخير في الناحية العمرانية.

العمارة الدينية

وفي مجال العمارة الدينية تطالع عظمة أخري لهذا الرجل تميزت بها تلك العمائر التي تحتفظ بها سمرقند، والتي نلاحظها من خلال أثرين هامين هما:" مسجد ومدرسة بيبي خانيم- ومدرسة وضريح وخانقاه تيمورلنك" .

مسجد ومدرسة بيبي خانيم :

تميز هذا الأثر الذي شيد عام ٨٠٢ هـ/١٣٩٩م وانتهي بنائه عام ٨٠٦ هـ/ ١٤٠٣م بالعديد من المميزات التي أجملها في النقاط التالية:

●التخطيط:

.. يعتمد تخطيط هذا الأثر على صحن أوسط مكشوف ، وأربعة إيوانات تفتح ثلاثة منها عليه بأبواب، وإيوان واحد يفتح عليه بكامل اتساعه، وما بين الإيوانات شيدت حجرات الطلبة الدارسين، غطيت إيوانات ثلاثة منها بقباب محمولة على حنايا ركنيه (Squniches).

لها هيئة مميزة من الخارج، إذ تمتاز بهيئة بصلية ذات ضلوع، مقامة على رقاب مرتفعة، مكسوة بالبلاطات الخزفية التي تزينها عناصر الفن الإسلامي النباتية والهندسية والكتابية.أما الإيوان الرابع فيغطيه قبو.

تكتنف الإيوانات بأنها متساوية العدد على جانبي كل إيوان، وتتقدمها مساحة صغيرة مسقوفة استغل سقفها كممر يتقدم حجرات الطابق الثاني

المخصصة للمدرسين والمعيدين، ولهذه الحجرات مداخل معقودة بعقود مدببة، متماثلة مع المساحات التي تتقدمها والمعقوده بنفس العقود .

– وقد انفرد ها الأثر بين آثار سمرقند بهذا التخطيط، وهو متأثر إلى حد كبير بالأساليب السلجوقية، فنري مثيلًا له في المدرسة المستنصرية بغداد المشيد عام ٦٣١ هـ /١٢٣٤م.

أما تغطية إيوان القبلة بقبة فنري لذلك شبيهاً في مصر في مدرسة الأمير صرغتمش ٧٥٧ هـ/ ١٣٥٦م، كذلك فإن حجرات الطلبة المشيدة على جوانب الإيوانات تماثلها حجرات الطلبة لنفس المدرسة.

ب-القباب:

.. تميزت قباب هذا الأثر بهيئتها البصلية ذات الرقاب المرتفعة والضلوع التي تزخرف ظاهرها، فضلًا عن تكسيتها بالبلاطات الخزفية المنفذة خصيصًا لتغطي مساحات هذه القباب من الخارج، وقد وصلت القبة إلى هذه الهيئة في العصر التيموري في عمائر تلك المدينة، بعد أن كانت في العصر المغولي ذات شكل بصلي خفيف، واستمرت بهذه الهيئة في العصر الصفوي، وقد أثرت هذه القبة التي يمكن تسميتها "بالقبة السمرقندية" في بعض القباب التي ظهرت على آثار مصر في العصر المملوكي الحري، حيث ظهرت بنفس هذه الهيئة على ضريح التربة السلطانية بجبانة السيوطي الذي شيدته خوند سمرا، والدة السلطان حسن في القرن الثامن الهجري، كذلك تراها أعلي ضريح يونس، الدوادار بالحطابة المشيد قبل عام ٧٨٣ هـ ،

ونراها قبل ذلك بدون تضليع أعلي إيوان القبلة بمدرسة الأمير صرغتمش، وقبلها في قمة مئذنة الناصر مُحَّد بن قلاوون بالقلعة ٧٣٥ هـ.

- وهذه القبة السمرقندية تتميز عن القبة الفارسية التي تشبهها في الهيئة، ولكن لا تظهر عليها الضلوع التي ميزت القبة السمرقندية، ومن ثم فإن رؤية هذه القبة بهذه الهيئة تمكننا من معرفتها من بين قباب كثيرة مختلفة العصور والبلاد.

كما تتميز باشتمالها على غطاءين يبدأ الأول، والذي يكور القبة من الداخل من عند عقد شباك الرقبة، أما من خارج فيبدأ على مسافة كبيرة من عقب الشباك المذكور، وقد نقل بعض صناع سمرقند بناء هذه القبة إلى مصر، عندما اجتاح بلادهم الغزو المغولي، وتختلف القبة السمرقندية عن القبة العراقية التي تتشابه مع القبة الفارسية.

جـ- المداخل:

.. تميز مدخل هذا الأثر بارتفاعه، وبتتويجه بعقد مدبب، يليه مدخل آخر معقود بنفس نوع العقود المدببة، الموروث عن العمارة الإيرانية، إذ أن هذا المدخل وكذلك مداخل العمائر في آسيا الوسطي يمتاز بالازدواجية، وتغشيه من الخارج والداخل زخارف منفذة على بلاطات خزفية، وهو بذلك متأثر إلى حد كبير بالمداخل الإيرانية، التي تأثرت بها عمائر العراق أيضاً ولكن عمائر مصر يميزها أنواع عديدة من المداخل ليس هذا النوع واحداً منها.

د- الواجهات:

.. تميزت واجهات هذا الأثر وغيره من عمائر آسيا الوسطي، وإيران والعراق بتقسيمها الي بانوهات رأسية في مستويين، معقودة بعقود مدببة تخفف من حدة الملل والسأم الذي قد يعتري المشاهد لها، نظراً لامتدادها الكبير، وهذه الجزئية في زخرفة الواجهات تخالف ما نشاهده على عمائر مصر في الفترة المعاصرة، إذ إن تلك العمائر قد تميزت باشتمالها على حنايا رأسية تنتهي بصدور مقرنصة من عدة محطات وضعتها النوافذ السفلية والقندليات التي تعلوها وكذلك المداور.

هـ- المآذن:

.. تعددت المآذن في هذا الأثر إذ بلغت ثماني مآذن، تحيط بأركانه وحول المدخل وإيوان القبلة، وهي تمتاز بأنها ذات بدن أسطواني

ممشوق ذو تناقص تصاعدي يزدان بزخارف كتابية منفذة باستعمال الطابوق، وهي كتابات كوفية مربعة، وتنتهي بدورة واحدة في الغالب محمولة على عدد من المقرنصات، وهذه المآذن عرفت أولا في إيران قبل الإسلام بهذه الهيئة في المعابد القديمة، وعرفتها العمارة العراقية في صدر الإسلام، وتوجد أقدم أمثلتها في مئذنة جحضة شرق قصر الأخيضر ١٦٠ هـ/ ٧٧٧ م، وعرفتها مصر في القرن الثالث الهجري في مئذنة المشهد البحري بأسوان، والمزدانة بنص كتابي منفذ باستعمال الطابوق.

ولم تستخدم مآذن سمرقند وإيران للأذان نظراً لارتفاعها الشديد، ولكن كان المؤذن يؤدي الأذان من أعلي سطح المسجد، وبذلك استعملت المئذنة كرمز فقط.

الزخارف:

.. استعملت الزخارف بأنواعها داخل العمائر الدينية بآسيا الوسطي عامة، وسمرقند خاصة، ويعنينا منها الزخارف الكتابية المنفذة بالطابوق على المآذن والواجهات وبعض أجزاء من داخل البناء، إذ نفذت الكتابات الكوفية المربعة باستعمال الطابوق في تنفيذ الزخرفة بأسلوب عربي عرف في العراق منذ القرن ٢هـ/ ٨م في قصر الأخيضر، وظهر على مئذنة المشهد البحري بأسوان في القرن ٣ هـ/٩م.

واستعمال الخط الكوفي المربع على عمائر سمرقند ومنها هذا الأثر أسلوب.

موروث عن السلاجقة، وهو أسلوب انتقل إلى مصر عنهم أيضًا يختلف عن أسلوب تنفيذه في عمائر آسيا الوسطي عامة وسمرقند خاصة، إذ استعملت شرائح الرخام الأبيض والأسود في تنفيذ كتابات الخط الكوفي المربع على عمائر مصر، وكذلك أسلوب " التنزيل" الذي تحفر فيه الكتابات بالهيئة المربعة، وينزل فيها مسحوق الرخام ذو اللونين الأبيض والأسود.

أما استعمال البلاطات الخزفية كأسلوب زخرفي على عمائر سمرقند وإيران والعراق، فإلي جانب الزخرفة، كانت لها وظيفة أخري، وهي منع تسرب المياه إلى داخل العمائر، والناجمة عن المطر الشديد الذي يتسم به شتاء هذه البلاد، وهو ما يفسر أيضاً استعمال القباب بكثرة في التغطية هناك.

مدرسة وخانقاه وضريح الأمير تيمور لنك

شيد هذا المجمع الديني قبل عام ٨٠٧ هـ/١٤٠٥ م المهندس الأصفهاني مُحَمَّد بن محمود البنّا، الذي سجل توقيعه أعلي عقد المدخل الجانبي للضريح وهذا الضريح يأخذ الهيئة المثمنة من الخارج، والمربعة من الداخل (ش٢) وقد تأثر تيمور لنك في تشييده له بتخطيط قبة الصخرة وقبة الصليبية في العراق (٢٤٧هـ) فهو يتشابه تماماً مع تخطيط قبة الصليبية، التي تأثرت في هيئتها الخارجية بهيئة قبة الصخرة، وقد نقل هذا التأثير بعد أن أغار علي العراق عام ٧٩٥ هـ مما يشير إلى إعجابه بقباب الدفن التي رآها هناك.

-والضريح يتشابه في عناصره

المعمارية والزخرفية مع الأثر الذي أسلفنا ذكر مميزاته.

بقي أن أشير إلى تخطيط هذا المجمع الديني، المكون من مدرسة وخانقاه ملحق بهما قبة ضريحية، وهو المثل الوحيد الذي كان باقياً لفترة من الزمن.

-غير أن أطلالهما تمكن من رسم، فتخطيط المدرسة عبارة عن صحن مكشوف وإيوانيين متقابلين، وحجرات على الجانبين، وما بين الإيوانيين توجد حجرات كان عليها قباب، وهذا التخطيط يماثل مدرسة سيواس في تركيا المؤرخة بعام ٦٧٠هـ/ ١٢٧١-١٢٧٢ م التي تتميز باشتمالها على أربعة إيوانات.

العمارة الإسلامية في الهند (راجستان ـ أجرا) [1]

فاتن إبراهيم عبد الهادي

ولاية راجستان.. تقع شمال غرب الهند، وتتميز بقصورها الفخمة التي تضاهي قصور ألف ليلة وليلة، وراجستان هي أرض الراجا، وهي تعني السادة المحاربين أصحاب الكبرياء؛ فإذا تجولت داخل ولاية راجستان، لتأكدت أنها بلاد أسطورية بأسوارها وقلاعها المعلقة بسفوح الجبال، وتبلغ مساحة راجستان ضعف مساحة بريطانيا.

قصور راجستان تعد أسطورة بقبابها وجدرانها المزخرفة، وكأن الحضارة الإسلامية قد لمستها، فبدت ظاهرة فيها طرز العمارة الإسلامية.. فهناك قصر «أنوب محل» وخاصة القاعة التي تمر فيها تتويجه، وقد أقيم هذا القصر عام ١٥٨٧م، داخل حصن جونا جاره بمنطقة بيكانر.. أما قصر «الرياح» فيعد رمزًا للعاصمة جايبور، وهي تعني المدينة الوردية، وهذا القصر بالغ الروعة.. وهناك حصن العمبر بشمال العاصمة جايبور، وهو يطل على بحيرة مواتا، وإذا نظرنا أعلى التل لشاهدنا حصن جايجارة، حيث كان يعمل على حماية حصن العمبر، وهناك تحفة أخرى تظهر فيها اللمسة الفنية بصورة واضحة، وهو قصر المرايا «شيش محل»، الذي لا يقل في قيمته الفنية والمعمارية عن حصن مهر انجاره، وقد شيده راي جوذا على

(١) مجلة المنهل ـ أكتوبر ـ نوفمبر ١٩٩٤

ارتفاع ١٣٠ مترا، فوق تل يسيطر على مدينة جوذ بور عام ١٤٥٩، بالإضافة أيضا الى قصر يوميد بهوان الذي استغرق بناؤه ما يقرب من اربعة عشر عامًا، ولا يزال مقرًا للمهراجا حتى الآن.

على طول الطريق في جايبور وحتى نصل إلى دلهي تبدو ملامح العمارة الإسلامية بسماتها المميزة من طبقات وأسوار وقلاع، بل حتى في أسواق البخور والبهارات.. وفي عام ١٨٧٦م عندما زار الملك إدوار السابع – ولي العهد للملكة فيكتوريا – مدينة جايبور عاصمة راجستان، أعيد طلاء المدينة باللون الوردي، حيث كان يمثل لون الترحيب عند أهل البلاد، وقد أطلق على العاصمة «بنك سيتي» أي المدينة الوردية، ولا تزال قصور راجستان تتميز باللون الوردي حتى الآن.

من معالم أجرا

«تاج محل»:

شيده الإمبراطور شاه جهان تاج محل من عام ١٦٣١ حتى عام ١٦٥٣، كضريح لزوجته أرجماند، التي اشتهرت باسم ممتاز محل، التي تزوجت من شاه جهان عام ١٦١٢، وتوفيت بعد إنجاب طفلها الرابع عشر عام ١٦٣١، وبعد وفاة الإمبراطور أوصى بأن يدفن بجوارها.. يرتفع تاج محل على منصة من الرخام، تبلغ مساحتها حوالي ٣١٣ مترًا مربعًا، تطل على نهر اليامونا، أما القبة الضخمة الكمثرية الشكل فيبلغ قطرها

٦٠ قدمًا، وترتفع بمقدار ٨٠ قدمًا، ويمكنك أن ترى في القوس الداخلي قطعة رخامية مقببة، حفرت بأشكال ماسية.

زينت بوابة الدخول بنقوش من الآيات القرآنية، التي كتبت بخطوط عربية رائعة الجمال، ويثرى الصرح بكامله بلوحات من الرسوم المنحوتة البارزة والزخارف العديدة من الأحجار الكريمة، يواجهك في المدخل بعض الدرجات التي تقودك إلى البهو، حيث التوابيت الحقيقية، التي ترتفع فوقها النصب التذكارية الخاصة بها، وعبر الممر المحيط بالغرفة العلوية تزهر نباتات من فصيلة السوسنات، وقد أحيطت النصب التذكارية بلوح مثمن الأضلاع من الرخام الأبيض المزخرف برسومات معقدة التصميم ونقوش زهرية رائعة، في المنتصف تمامًا يقع ضريح ممتاز محل الصغير، بينما يأخذ ضريح شاه جهان معظم مساحة اللوح الرخامي.

تحف معمارية:

عندما تمعن النظر في التحفة المعمارية – تاج محل – تجد أن تخطيطها وتصميمها يشبه معظم أضرحة المغول، الذين جاءوا إلى الهند عام ١٥٢٦ ووحدوها لأول مرة تحت لوائهم، بعد أن عانت من الخلافات العرقية. وخلفوا وراءهم تراثًا غنيًا، تجسد بشكل كبير في الأبنية المعمارية التي تزخر بها أجرا، حيث كان مسرحهم الرئيسي ومقرهم لأكثر من مائة عام فقد أقدم أول مغولي، ليؤسس دولته في الهند، وكانت أجرا واحدة من أكبر المدن في قلب الهند الشمالية، وقد ظلت قرية رعوية حتى قدوم السلطان

سكندر لودي، الذي أسس المدينة الحالية عام ٩١١م، وقد شيد عدة أبنية لم يتبق منها سوى براداري، التي تبعد بمسافة قصيرة، عن ضريح أكبر في سكندرا، وكانت عاصمة لودي حتى تمكن بابور من هزيمة ابراهيم لودي في معركة باينبات عام ١٥٢٦م وقد أوفد بابور ابنه ووريثه همايون، حيث أجهز على ما تبقى من دولته لودي، واستولى على كنوز وقصور عائلة لودي.

وقد أسس القائد الشاعر بابور عاصمته في أجرا، وشيد حديقة رائعة الجمال أمام الأحياء السكنية على طول النهر، أطلق عليها اسم «أرام باغ» أو حديقة الراحة، ويقع على مقربة منها ضريح إعتماد الله، الذي كان رئيسًا لوزراء الإمبراطور جهاغير، وقد أطلق على همايون اسم – المغولي الأكبر – وتوج امبراطورًا على أجرا، وعندما أصبح ابنه أكبر امبراطورًا عام ١٥٥٨ أعاد تسمية أجرا باسم أكبر أباد، وظلت عاصمة للمغول إلى أن أدرك شاه جهان أنه بحاجه الى مدينة رئاسية أضخم، ومن ثم شيد مدينة شاه جهان أباد في دلهي، وظلت كافة الكنوز الملكية حتى ذلك التاريخ في مدينة أجرا، كما شيد السلاطنة والأشراف بيوتًا لهم وأضرحة فخمة في المدينة، يمكن من خلالها استنشاق عبق العصور الوسطى، حيث نمت المدينة خلال فترة حكم الإمبراطور بسرعة كبيرة وامتدت إلى خارج حدود الأسوار، وانتشرت المحلات التجارية التي كانت تمتلئ بالسجاد العجمي والأقمشة الحريرية والماس والمجوهرات والملابس الموشاة بخطوط الذهب وكبرت حتى وصلت إلى أقصى شمال المدينة.

الفهرس